© أوراق فلسطينية

تصدر عن مؤسسة ياسر عرفات
رئيس مجلس الادارة: د. ناصر القدوة

رئيس التحرير: يحيى يخلف
مدير التحرير: غسان زقطان
مستشار التحرير: فيصل دراج

يشارك في التحرير: فيصل حوراني
عبد الفتاح القلقيلي
أحمد نجم

الهيئة الاستشارية: حلمي النمنم
كمال عبد اللطيف
محسن بوعزيزي
كريم مروة

ادارة: رفيف الأسمر
وليد زبيدي

تصميم الغلاف: زهير ابو شايب
التصميم الفني والإخراج: عاصم ناصر

جميع الحقوق محفوظة لمؤسسة ياسر عرفات

ISBN 978-9950-375-04-8

AWRAQ FELASTINIA

أوراق فلسطينية

فصليّة فكريّة عربيّة تصدر عن مؤسّسة ياسر عرفات

العدد «١٣» صيف ٢٠١٦

المراسلات:

العنوان: ص. ب: ٥٧٣

رام الله – فلسطين

هاتف: ٢٩٥٧٣٧٣ – ٩٧٠٢ + / ٢٩٥٧٣٧٢ – ٩٧٠٢ +

Email: awraq.falastinya@gmail.com

www.yaf.ps/awraqfelastinia

الاشتراكات السنوية:

٥٠ دولاراً للأفراد، ٨٠ دولاراً للمؤسسات (بما فيها نفقات البريد)

ترسل الاشتراكات شيكاً إلى العنوان البريدي أو حوالة بنكية على حساب المؤسسة:

البنك العربي

رام الله – فلسطين

فرع الماصيون

رقم الحساب: ٥١١ – ٤٨٠٢٥٢ - ٩٠٩٠

Ps 57 arab00000000090904802525l0

الآراء الواردة تعبر عن رأي الكتّاب، وهي لا تعبر بالضرورة عن رأي المؤسسة.

الفهرس

الافتتاحية

٧ **الأسرى: المواجهة من الداخل**

هيئة التحرير

أوراق فلسطينية

١٣ **الدبلوماسية الفلسطينية**
انجازات وانحسارات

نبيل الرملاوي

٢٧ **مؤتمر هرتسليا السادس عشر**
(١٤ - ١٦ حزيران ٢٠١٦)
حلم رفلن في مواجهة اليمين

نظير مجلي

٤٣ **واقع النساء وحقوقهن أثناء**
العدوان الإسرائيلي على القطاع

دنيا الأمل إسماعيل

٥٣ **فلسطين: أشواق الزيارة**
المغربية الثانية

أحمد المديني

٧٥ **ذاكرة البدايات:**
شهادة الأخ سليم الزعنون

جمع وتحرير يحيى يخلف

أوراق عربية

١٠١ **مئة عام على "الثورة العربية**
الكبرى": لورنس: صديق
المصالح الاستعمارية وعدو العرب

د. فيصل دراج

١٠٩ **نمط اقتصاد الغزو**

عبد الفتاح القلقيلي

١١٧ **وجه آخر لغاندي ...**
مناضل ضد الصهيونية
ومدافع عن الحق الفلسطيني

شذى يحيى

الآراء الواردة تعبر عن رأي الكتّاب، وهي لا تعبر بالضرورة عن رأي المؤسسة.

الفهرس

أوراق ثقافية

١٢٩ الرواية الفلسطينية من "الزمن الرسولي" إلى زمن مفتوح

د. فيصل درّاج

١٣٩ حوار مع الروائي المصري إبراهيم عبد المجيد

بديعة زيدان

١٤٩ أورهان باموق بورتريه الكاتب

حسين عيد

١٥٧ نشأة المسرح العربي الحديث.. الصعود إلى الخشبة

رياض كامل

١٧٣ رواية العائلة

تأليف: سيلبيا توبرون

ترجمة الاسبانية: أحمد يعقوب

أوراق الذاكرة

١٩٥ رفيق العمر وصديق الخير.. ذكريات عن الشّاعر سميح القاسم

محمد علي طه

٢٠٩ الفنان عبد الحي مسلم .. لكل لوحة قصة

بديعة زيدان

٢١٥ دور السينما في القدس .. "كان زمان" !

يوسف الشايب

أوراق المؤسسة

٢٢٠ المؤسسة تنظم مخيمات صيفية

وثائق

٢٢٣ وعد بلفور

٢٢٥ القرار ١٩٤

الأسرى: المواجهة من الداخل

تشهد بلادنا في هذه الأيام حراكا ونضالا للحركة الأسيرة في سجون الاحتلال، يتمثل في خوض معركة الاضراب عن الطعام من أجل انصياع سلطات الاحتلال للقانون الدولي وتوفير الشروط التي نصت عليها اتفاقيات جنيف وسائر القوانين ذات الصلة بحقوق الإنسان.

وفي الوقت الذي يتضامن الشعب الفلسطيني وقواه الحية مع أسرى الحرية الفلسطينيين وتمتلىء الشوارع والساحات بمسيرات تضامنية فإنّ سلطات الاحتلال لا تكتفي بممارساتها العنصرية ضد أسرى الحرية في سجونها، بل تحوّل الأراضي الفلسطينية كلها الى سجن كبير، من خلال الاعتقالات اليومية، وتجريف الأراضي وبناء المستوطنات، ومواصلة بناء الجدار العازل، وعزل القدس والاجتياحات اليومية للمسجد الأقصى وهدم البيوت واقتحام المدن والقرى والمخيمات والتنكيل بالأرض والسكان في المناطق المصنّفة (ج)، واقتلاع أشجار الزيتون وإطلاق قطعان المستوطنين لاستباحة القرى وحرق البيوت وساكنيها كما حدث مع عائلة دوابشه وحرق الطفل محمد أبو خضير حيّا، واطلاق جنود الاحتلال النار على الأطفال بدم بارد بحجة الاشتباه بحملهم سكاكين ، وحصار جميع المدن والقرى بالحواجز العسكرية التي تمعن في تفتيش الناس والمركبات بشكل مذل ومهين، والقيام بكل ما من شأنه تحويل حياة الفلسطينيين الى جحيم.

دولة الاحتلال التي لا تعبأ بالقانون الدولي ولا تتمتع بأخلاقيات الدول المحبة للسلام ماضية في متاهتها ، دولة المؤسسة العسكرية والمستوطنين واليمين المتطرف والعنصري تتسارع خطاها هذه الأيام نحو الأبرتهايد والعنصرية بشكل غير مسبوق ضاربة عرض الحائط بما يسمى بعملية السلام، وبالإتفاقيات الموقعة مع منظمة التحرير فيما يعرف باتفاقية إعلان المبادىء(اتفاقيةأوسلو)،وما تلاها من تعهدات،وايصال المفاوضات الى طريق مسدود،وخلق وقائع على الأرض تغلق كل الفرص أمام حل الدولتين.

وبالعودة الى موضوع الأسرى الفلسطينيين في السجون الإسرائيلية، فتؤكد المصادر الفلسطينية أنّ

سياسة الإعتقال اعتمدت كوسيلة لتدجين وتركيع الأجيال الفسطينية وإطفاء شعلة الكفاح والنضال ضد الاحتلال،وطمس حقوق الشعب الفلسطيني في الحرية والاستقلال وسائر الحقوق وفي مقدمتها حق تقرير المصير واقامة الدولة المستقلة وحق العودة.

وتقدر المصادر أنّ عدد الفلسطينيين من الشباب والكبار والنساء والأطفال الذين دخلوا السجون منذ عام ١٩٦٧ حتى الآن يقدّر بما يقارب المليون فلسطيني،دخلوا وحكموا وقضوا محكومياتهم ، وبعضهم خرج بعمليات تبادل أسرى، وبعضهم الآخر من أصحاب الأحكام بالمؤبد قضى موتا،أو ما زال يعاني في السجون ،وما زالت سلطات الاحتلال تحتجز الآن ما يقارب عشرة آلاف سجينا ، وهذا الرقم يزيد وينقص،ويحرص الاحتلال على سياسة الباب الدوار فكلما أفرجت عن سجين تقوم يوميا باعتقال عشرة مقابله.

سياسة الاحتلال من اعتقال الأجيال في مختلف المراحل تهدف كما أسلفنا الى التدجين والتركيع وإطفاء شعلة المقاومة،لكن هذا كان نوعا من الوهم والتمنيات التي لا تستند الى أساس،فقد فشلت هذه السياسة في تحقيق مرادها،ولم تفلح في تطويع الشعب الفلسطيني ،ولم تفلح في إطفاء شعلة مقاومته ،وتطلعه الى الحرية،سواء في تحويل الأراضي الفلسطينية التي هي أراضي دولة فلسطين الى سجن كبير،أو في السجون الصغيرة التي تحتجز فيها أسرى الحرية.

وإذا رصدنا نضالات الأسرى في السجون على مدى ما يقارب نصف قرن (من عام ١٩٦٧-٢٠١٦) فسنجد أننا أمام تراث كفاحي شجاع وباسل، تمثّل في مقاومة السجّان بالوسائل المتاحة، أولا بتنظيم أنفسهم وتوحيد أهدافهم ووضع برامج تثقيف وتعبئة ورفع مستوى الوعي الوطني في صفوفهم، وثانيا استعمال السلاح الأمضى الذي تمتلكه إرادتهم، وفي مقدمتها سلاح الإضراب عن الطعام ،وما أطلق عليه المقاومة بالأمعاء الخاوية، لتعرية سياسات الاحتلال أمام الرأي العام العالمي، وأمام المنظمات الدولية التي تعنى بحقوق الإنسان، ولفت نظر وسائل الإعلام المحلية والعالمية الى عدالة قضيتهم، وحشد الدعم الشعبي الفلسطيني والعربي والعالمي لقضيتهم.

وقد حققت معارك الإضراب عن الطعام إنجازات وحققت العديد من المطالب، وما زالت مستمرة لاجبار اسرائيل على التقيد بحقوقهم كاملة حسب القوانين الدولية واتفاقيات جنيف ومبادىء حقوق الإنسان. ومن أشهر هذه المعارك:

*إضراب سجن عسقلان ومعتقل كفار يونا عام ١٩٦٩

* إضراب الأسيرات في معتقل نيفي ترستا عام ١٩٧٠

* إضراب سجن عسقلان عام ١٩٧٧

* إضراب سجن نفحة عام ١٩٨٠

* إضراب سجن الجنيد عام ١٩٨٤

*إضراب شامل في سجون الاحتلال كافة أثناء الانتفاضة عام١٩٨٨

* إضراب شامل في سجون الاحتلال كافة عام ١٩٩٢

* إضراب شامل في السجون كافة عام ١٩٩٥

وتوالت الإضرابات الموحدة في السجون في الأعوام ١٩٩٨، ٢٠٠٠، ٢٠٠١، ٢٠٠٤، ٢٠٠٦، ٢٠٠٧، وما زالت هذه المعارك مستمرة، وآخرها الإضراب الحالي عن الطعام للأسير بلال الكايد الذي دخل شهره الثالث وتضامن معه عدد كبير من الأسرى.

والأهداف التي طرحتها حركة الأسرى تتمثل في جملة مطالب منها: إنهاء سياسة الاعتقال الإداري والعزل الإنفرادي، ووقف الإقتحامات لغرف الأسرى، والسماح بالزيارات العائلية لهم، وتوفير وتحسين العلاج الطبي، وإدخال الصحف والمجلات والكتب، ووقف العقوبات الفردية والجماعية، وحقهم في التعليم والتعليم الجامعي..الخ.

إنّ المعارك التي يخوضها الأسرى، هي سلمية الطابع غير عنيفة، لكنّها مؤثرّة، وتعتبر واحدة من الوسائل التي تحقق إنجازات، وتفضح وتعرّي سلطات الاحتلال الاسرائيلي.

وتواجه اسرائيل بسبب سياساتها العنصرية هذه عزلة دولية، وشجب واشمئزاز من قبل الأخلاقيات العالمية التي أسست الحركة الدولية لمقاطعة اسرائيل اقتصاديا وأكاديميا وثقافيا والتي أسهمت في عزل اسرائيل والتصدي لسياساتها على الصعيد الدولي، ولقد اعترفت اسرائيل بهذه العزلة، ونوقشت في دوائرها الاجتماعية والسياسية والتشريعية.

وأقرت الحكومة الاسرائيلية مؤخرا أنّ الصورة المرسومة لإسرائيل في أنحاء العالم هي أنّها (دولة جرباء ومنبوذة) ويجب تكثيف العمل من أجل تغييرها.

وفي هذا السياق عقدت لجنة الشفافية التابعة للكنيست مؤخرا اجتماعا لبحث الخطة التي وضعتها وزارة الشؤون الاستراتيجية بهدف (تحسين صورة اسرائيل في العالم).

وصرّحت وكيلة وزارة الشؤون الخارجية (سيما فاكنين) أنّ العالم ينظر الى اسرائيل كدولة جرباء، وأن لجنة تشكلت من مختلف الوزارات مع موازنة سنوية بمبلغ ٣٠ مليون دولار للعمل من أجل تغيير صورة اسرائيل في العالم بكل الوسائل. وقالت أيضا إنّ طاقم هذه اللجنة سينجح في مهمته في حال نجح في تغيير الرواية الحالية في العالم بأنّ اسرائيل هي دولة فصل عنصري.

لن تجد اسرائيل من يصغي اليها فيما هي ماضية في سياساتها العنصرية الاستيطانية، وممارساتها الوحشية، وافشالها كل محاولات المجتمع الدولي لاستئناف مفاوضات السلام، واصرارها على إدامة الاحتلال.

ولعلّ ملف الأسرى الذي فتحه من جديد الأسير المقاوم بلال الكايد نموذج لاستهتار دولة الاحتلال بالقانون الدولي، وإهدارها لكرامة الإنسان، فهذا الأسير الذي أنهى مدة محكوميته لم يفرج عنه، بل صدر قرار بمواصلة احتجازه بقرار اداري دون توجيه أي تهمة له، والاحتجاز الإداري بدعة اخترعتها اسرائيل خارج كل القوانين لاحتجاز أي فلسطيني لمدة ستة أشهر قابلة للتجديد دون توجيه تهمه أو اعطاء أي تفسير لسبب الاعتقال مما دفع منظمة العفو الدولية بالتدخل من أجل الحرية للأسير بلال الكايد وادانة سياسة الاعتقال الاداري.

اسرائيل ماضية في متاهتها،ماضية في عزلتها،ينطبق عليها قول الصحافي الاسرائيلي (يوروم بنور) صاحب الكتاب الأكثر شهرة والمعنون بـ (أنا عدو نفسي).

اسرائيل بساستها ومستوطنيها ومجتمعها اليميني المتطرف تخترع أعداء يهددون وجودها، ساسة اسرائيل بضاعتهم التخويف، فالخوف هو الذي يبقي ما يسمونه الجبهة الداخلية متماسكة، وفي السنوات الأخيرة اخترعوا الخطر الإيراني وقنبلته الذرية، وعارضوا الاتفاق الأميركي الأوروبي مع ايران، وهددوا بشن حربهم الخاصة على ايران، ثم صمتوا بعد أن تبين أنّ ايران ليست معنية باستهدافهم، وانما معنية بانتهاء العقوبات الدولية عليها.

اذا فإسرائيل هي في الواقع عدوة الشعب الفلسطيني وعدوة القانون الدولي والقيم الانسانية وعدوة السلم العالمي، وقبل ذلك وبعده: اسرائيل عدوة نفسها.

(هيئة التحرير)

أوراق فلسطينية

الدبلوماسية الفلسطينية .. انجازات وانحسارات

نبيل الرملاوي*

مرحلة البدايات

عندما نتحدث عن تجربة عملية في العمل الدبلوماسي يكون الحديث بالتأكيد عن مرحلة مجتزأة، ومرتبطة إما بزمن معين أو بتجربة شخصية محددة. وهنا في هذا المقام أعترف بأنني سمحت لنفسي أن أتحدث عن بعض العموميات ذات الطابع المشترك بين عدد من الدبلوماسيين إن لم يكن بين الدبلوماسيين الفلسطينيين كلهم، نظرا لطبيعة ظروف التعيين الواحدة والمشتركة في مرحلة البدايات، والطبيعة الواحدة المشتركة للدبلوماسيين أنفسهم الذين تم تعيينهم في تلك المرحلة.

وعندما نقول تجربة مجتزأة، إنما نعني ما يتعلق منها بالتجربة الشخصية وما تضمنته هذه التجربة من استمرار لتجربة سابقة، وما تشكله بحد ذاتها من واقع يمهد لتجربة قادمة. فهي لا تمثل الدبلوماسية الفلسطينية إلا من منظور جزئي لأنها تشكل مرحلة من مراحل تاريخية من البدايات إلى المستقبل الممتد للدولة ووجودها.

تجدر الإشارة في البداية إلى أن الواقع المباشر، وقد يكون الأهم الذي واجه الدبلوماسي الفلسطيني في مرحلة البدايات، هو أن الدبلوماسي الفلسطيني قد بدأ عمله في هذا الحقل كممثل لحركة تحرر وطني هي منظمة التحرير الفلسطينية، وكان من طبيعة تلك المرحلة أن يعطي الأولوية في عمله إلى الكفاح ومقاومة العدو بكل الوسائل ليستقطب التأييد الدولي لكفاح كشعبه، ودعم حقوقه الوطنية على المستويات الدولية المختلفة إلى جانب التركيز على التعريف بهذه الحقوق، وكان عليه بسبب ذلك أن لا ينحرف إلى العمل الدبلوماسي كدبلوماسيي الدول، لأنه لا يمثل دولة، بل يمثل حركة تحرر وطني، ما يفرض عليه أن يعطي الأولوية في عمله إلى إبراز الكفاح المسلح الذي يخوضه الشعب الفلسطيني،

* كاتب ودبلوماسي فلسطيني.

والتضحيات الجسام التي يقدمها من أجل استعادة حقوقه الوطنية في أرضه، ومقارعة العدو الصهيوني الذي اغتصب أرض فلسطين منذ عام ١٩٤٨. ولكن في نفس الوقت هو دبلوماسي أمام العالم وفي نطاق عمله مع الدولة المتلقية والسلك الدبلوماسي فيها. وكان عليه في هذه الحالة أن يوفق بين الثائر الممثل لشعب مازال يقاوم الاحتلال من اجل أن يتحرر ويمارس حقه في تقرير مصيره بحرية، ويقدم التضحيات والشهداء، وبين واقعه الوظيفي كدبلوماسي وما يترتب على ذلك من ضرورة إتقان فن الدبلوماسية والالتزام بقوانينها وأعرافها التي تتعارض في كثير من الأحيان مع سلوك الثائر المقاوم للاحتلال والسيطرة الأجنبية، وذلك ممارسة يومية وبوتيرة لا ترحم، ولاسيما أن الخصم المقابل للدبلوماسي الفلسطيني في المحافل الدولية كان وما زال هو الولايات المتحدة الأميركية قبل أن تكون إسرائيل. كان هذا هو التحدي الأكبر والأخطر في مرحلة بدايات العمل الدبلوماسي الفلسطيني. وقد استمر هذا التحدي عند بعض السفراء حتى يومنا هذا، وقد يكونوا قد بلغوا درجة الإتقان النسبي للعمل الدبلوماسي التقليدي إلا أنهم وبحكم انتمائهم النضالي العتيق والمغروس في كل وعيهم ووجدانهم وفكرهم قد تمكنوا من المحافظة على الأصل وزاوجوا بين الأصل والحداثة الدبلوماسية بقدر المستطاع رغم صعوبة وحساسية هذه الحالة.

الدبلوماسية الفلسطينية

الدائرة السياسية لـ: م. ت. ف. هي المرجعية للدبلوماسية الفلسطينية

كان من الطبيعي أن يبدأ العمل الدبلوماسي الفلسطيني منذ تأسيس الدائرة السياسية في منظمة التحرير الفلسطينية، بعد انعقاد الدورة الأولى للمجلس الوطني الفلسطيني سنة ١٩٦٤في القدس. حيث تولى رئاسة الدائرة السياسية آنذاك السيد نمر المصري وكان هو أول رئيس للدائرة السياسية التي بدأت بإيفاد ممثلين للمنظمة الى عدد من الدول العربية كخطوة أولى في هذا المجال من العمل. وقد استمر هذا الأمر حتى استقالة أحمد الشقيري، ليتولى بعده رئاسة المنظمة بشكل مؤقت السيد يحيى حمودة حتى سنة ١٩٦٩.

سنة ١٩٦٩ فتحت المنظمة أبوابها لفصائل العمل الفلسطيني الفدائي، فدخلت إلى المنظمة الفصائل التي كانت تعمل خارج نطاق منظمة التحرير الفلسطينية بما فيها حركة التحرير الوطني الفلسطيني "فتح" بزعامة السيد ياسر عرفات الناطق الرسمي باسم حركة "فتح" آنذاك .

ولما كانت حركة فتح هي التي أطلقت الرصاصة الأولى في فلسطين وباشرت العمل الفدائي ضد الوجود الإسرائيلي المغتصب لفلسطين منذ سنة ١٩٤٨، فقد كان ذلك سببا لكي تصبح حركة "فتح" أكبر الفصائل حجما وأكثرها شعبية مما كان سببا في أن تحظى بأكثرية عددية في اللجنة التنفيذية

للمنظمة، وبالتالي تترأس المنظمة بتأييد من جميع الفصائل الفلسطينية الأخرى. وكان لها بالإضافة الى رئاسة اللجنة التنفيذية، عضوان آخران تولى أحدهما رئاسة الدائرة السياسية وتولى الآخر رئاسة دائرة التنظيم الشعبي في اللجنة التنفيذية.

أما الدائرة السياسية فقد تولى رئاستها منذ ١٩٦٩ الأخ خالد الحسن (أبو السعيد)، ثم تولاها بعده الأخ أبو يوسف النجار الذي استشهد مع زوجته في شهر مارس ١٩٧٣ بعملية الفردان والتي ذهب ضحيتها الشهداء الأخوة كمال عدوان، وكمال ناصر رحمهم الله جميعا.

فاروق القدومي (أبو اللطف) يتولى رئاسة الدائرة السياسية

بعد استشهاد الأخ أبو يوسف النجار سنة ١٩٧٣، تولى رئاسة الدائرة السياسية الأخ فاروق القدومي (أبو اللطف) واستمر ممارسا لهذه المسؤولية حتى تولت وزارة الخارجية في السلطة الوطنية الفلسطينية الكثير من مهمات الدائرة السياسية، وخصوصا ما يتعلق بالسلك الدبلوماسي، والتمثيل الفلسطيني لدى دول العالم والمنظمات الدولية،

وقد شهدت الفترة الواقعة بين سنة ١٩٧٣ وسنة ٢٠٠٣ أكبر وأهم الإنجازات الدبلوماسية الفلسطينية برئاسة الأخ فاروق القدومي (أبو اللطف) منها على سبيل المثال، انتشار ممثليات ومكاتب وسفارات المنظمة في مختلف بلدان العالم، ودخول منظمة التحرير الفلسطينية مراقبا في الأمم المتحدة سنة ١٩٧٤، واكتساب فلسطين العضوية الكاملة في جامعة الدول العربية، وإقرار القمة العربية في الرباط بان المنظمة هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني سنة ١٩٧٤، والفوز بنجاح قرار في الجمعية العامة للأمم المتحدة يدين الصهيونية باعتبارها شكلا من أشكال العنصرية والتمييز العنصري سنة ١٩٧٥، واكتساب مكانة نائب الرئيس في جميع مؤتمرات حركة عدم الانحياز وعلى المستويين وزراء الخارجية والقمة. كما شهدت هذه الفترة من العمل الدبلوماسي، محاولة انضمام دولة فلسطين الى كل من اتفاقيات جنيف الأربعة لعام ١٩٤٩، ومنظمة الصحة العالمية، ومنظمة اليونسكو سنة١٩٨٩، وما رافق هذه المحاولات من مجابهات حادة مع كل من إسرائيل والولايات المتحدة الأميركية على جميع المستويات السياسية والدبلوماسية، كما شهدت أول محاولة جادة للتوجه إلى محكمة العدل الدولية سنة ١٩٩٦.

إضافة إلى ذلك كان التمثيل الدبلوماسي الفلسطيني لدى دول العالم ولدى المنظمات الدولية والذي تكرس باعتراف أكثر من مئة دولة رسميا بدولة فلسطين بعد اعلان الاستقلال في الجزائر في نوفمبر١٩٨٨، هو الرافعة الأكثر أهمية لمسيرة منظمة التحرير الفلسطينية عندما كانت تواجه مشكلة سياسية أو أي مشكلة دبلوماسية أخرى في تلك المرحلة الممتدة من الكفاح الفلسطيني.

خصوصية الدبلوماسي الفلسطيني وتميزه

بينما يتولى سفراء الدول مهام تمثيل رؤسائهم وحكوماتهم لدى الدول المتلقية، ويعملون فيها على تعزيز العلاقات القائمة بين بلدانهم والدول الأخرى، ويساهمون في حل المشاكل والقضايا التي قد تنشأ لسبب أو لآخر عن طريق قيامهم بالأدوار الدبلوماسية لتجنب أي عمل من شأنه تعريض العلاقات القائمة الى أي اهتزاز أو تصدع، وبذل ما في وسعهم من جهد لتحقيق ذلك استنادا الى قدراتهم العالية وكفاءاتهم الدبلوماسية البارزة، ويسهرون على مصالح رعاياهم في البلدان المعتمدين لديها، فان سفراء فلسطين يجدون أنفسهم مجبرين على تحمل أعباء إضافية لتلك المهام التقليدية التي يتحملها سفراء الدول الآخرين، وذلك نظرا للواقع المختلف الذي يميز الواقع السياسي الفلسطيني وخضوع الأرض الفلسطينية إلى احتلال عسكري إسرائيلي استيطاني يعمل على أن يكون بديلا عن الشعب الفلسطيني وكيانه السياسي والقانوني عن غيره من الدول المستقلة التي تعيش حياتها العادية في أمن واستقرار. وعندما نقول :احتلال عسكري استيطاني إجلائي يكون مفهوما بأن ذلك يعني حقيقة ما هدفت إليه الحركة الصهيونية من إنشاء إسرائيل على أساس نظرية البديل (إسرائيل بديل لفلسطين واليهود بديل للشعب الفلسطيني)، والعمل بكل الوسائل والحروب بشتى أنواعها ضد الشعب الفلسطيني لتحقيق ذلك.

إذن في حين يكرس سفير الدولة أي دولة جهده وعمله الجاد والمستمر على تطوير وتمتين علاقات بلاده مع الدولة المعتمد لديها وحصر مهام عمله كسفير لبلاده مع رأس الدولة وحكومة الدولة المتلقية، والعمل مع وسائل الإعلام إن لزم الأمر وبما لا يتعارض مع قوانين الدولة المتلقية، يتحمل سفير فلسطين في نفس الدولة مسؤوليات كبيرة أخرى تتعلق بمجابهة التحديات الناشئة عن نشاطات الجهات المعادية لفلسطين على مختلف المستويات الرسمية والحزبية والشعبية في الدولة المعتمد لديها، والعمل الدؤوب على استمرار كسب تعاطف وتأييد القوى السياسية لحقوق شعبه والمحافظة على ذلك وتطويره بشكل دائم، وبطبيعة الحال يشكل هذا العمل النضالي عبئا إضافيا أساسيا على كاهل سفير فلسطين أينما كان وفي أية دولة من دول العالم إضافة الى مهامه التي صنفناها بالمهام التقليدية لسفراء دول العالم الأخرى. ومن هنا تتشكل المكانة الهامة لسفراء فلسطين في دول العالم المختلفة ودورهم البارز في مجالس السفراء العرب والأوساط الدبلوماسية الأخرى، كاجتماعات مجالس سفراء دول منظمة المؤتمر الإسلامي، ومجالس سفراء دول حركة عدم الانحياز على سبيل المثال.

الدبلوماسية الفلسطينية ودقة العمل مع المتناقضات وحساسيتها

الدبلوماسية الثنائية هي كما أسلفنا تتصل بالإجراءات والتدابير والعلاقات بين الدولة المصدر ودولة أخرى متلقية. أما من حيث طبيعة العمل الدبلوماسي الفلسطيني فان هذا العمل يختلف من بلد إلى آخر، وقد يحدث نوعا من التشابه بين عدد من البلدان من حيث أساليب العمل المثمر، فهناك على سبيل المثال دول تتعاطف حكوماتها مع القضية الفلسطينية ولها مواقف تاريخية مرموقة في تأييد ودعم حقوق الشعب الفلسطيني ليس على المستوى الثنائي فقط بل وفي المحافل الدولية أيضا، وهذا يتطلب نوعا معينا من العمل الدبلوماسي خصوصا إذا كان الشعب في هذا البلد، أو إذا كان عدد هام من قواه السياسية الحزبية والنقابية والشعبية على علاقة سلبية مع نظام الحكم هناك، والحكم في نفس الوقت ملتزم بعلاقة جيدة مع نضال الشعب الفلسطيني ومؤيدا لحقوقه الوطنية.

العمل الدبلوماسي في هذه الحالة يدخل في حقل من الألغام السياسية مما يفرض على الدبلوماسي الفلسطيني الحيطة والحذر، كما يفرض عليه الدقة العالية في حسابات كثيرا ما يجد نفسه أمامها في وضع بالغ الحساسية، بين الجماهير وقوى سياسية مؤيدة له ولشعبه، والنظام المتعاطف تاريخيا مع قضية وطنه أيضا في نفس الوقت، ويشتد الوضع تعقيدا إذا تصاعدت المواجهات في ذلك البلد بين النظام وأجهزته من جهة والشعب وقواه الوطنية من جهة أخرى على خلفية القضايا الداخلية، مما يولد مناخا سياسيا معقدا يتطلب استعمال ما وهبه الله للدبلوماسي من ذكاء، وما امتلكه من خبرة دبلوماسية وحنكة فائقة كي يحافظ على علاقة بلاده الايجابية مع طرفي النزاع على حد سواء، وفي حالة إخفاقه في ذلك فانه قد يضع نفسه في موقف تعلن فيه الدولة المتلقية عن عدم رغبتها في بقائه كدبلوماسي لديها كما حدث لعدد من سفرائنا في عدد من الدول في مراحل سابقة ومن ضمنها الهند واليمن والسودان على سبيل المثال.

أشكال ونماذج التمثيل الدبلوماسي الفلسطيني وتطوره

يمكن القول بان التمثيل الدبلوماسي الفلسطيني اختلف وتنوع وفق مراحل النضال التي خاضتها منظمة التحرير الفلسطينية. ففي السنوات الأولى من إنشاء المنظمة كان التمثيل الدبلوماسي الفلسطيني محصورا بالدول العربية وعدد قليل من الدول الصديقة متخذا شكل اعتماد مكاتب للمنظمة لدى عواصم الدول المذكورة تقوم بالعمل الإعلامي فيها خدمة لفلسطين دون أي صفة دبلوماسية لهذه المكاتب، وكان يطلق اسم (مكتب منظمة التحرير الفلسطينية) على المكتب التمثيلي للمنظمة. ولم تكن هذه المكاتب تتمتع بأي نوع من الحصانة الدبلوماسية، أو الامتيازات التي تتمتع بها السفارات والقنصليات التابعة للدول المرسلة.

بل كان الهم كل الهم لدى المبعوثين الفلسطينيين للدول المتلقية في تلك المرحلة المبكرة هو أن يقدم المبعوث أقصى ما يمكن له أن يقدمه من اجل بلده وقضية شعبه. وكان الإعلام وما يتصل به هو ما يتمحور حوله الجهد والعمل المتواصل، ولم يكن يفكر أحد في تلك المرحلة بالعمل الدبلوماسي وحصانته وامتيازاته بقدر ما كان يفكر المبعوث الفلسطيني في التعريف بجذور قضية فلسطين وتطورها التاريخي ومعاناة الشعب الفلسطيني التي ترتبت على إفرازات الحرب العالمية الأولى وبشكل محدد اتفاقية سيكس بيكو، ووعد بلفور والهجرة اليهودية إلى فلسطين ودور الانتداب البريطاني في تنفيذ قرارات مؤتمر سان ريمو ١٩٢٠، وإصرار الشعب العربي الفلسطيني على النضال من اجل استعادة حقوقه في وطنه والعودة الى أرضه وممتلكاته التي هجر منها بالقوة والإرهاب الذي اعتمد ارتكاب المجازر بحق الشعب الفلسطيني كما حدث في مذبحة دير ياسين عام ١٩٤٨ لتفريغ أرض فلسطين من مواطنيها الفلسطينيين تمهيدا لتوطين المهاجرين المستجلبين اليهود من مختلف أنحاء العالم مكانهم فيها. كما كان من مهمات المندوب أو المبعوث الفلسطيني حشد التأييد والدعم لكفاح الشعب الفلسطيني سواء أكان على المستوى الرسمي الحكومي أو على المستوى الشعبي من خلال العمل مع الأحزاب والنقابات والمؤسسات المدنية لدعم كفاح الشعب الفلسطيني في البلد المعتمد لديه، فنشأت عن ذلك لجان التضامن مع الشعب الفلسطيني في العديد من البلدان العربية وغير العربية مثل الجمعية المغربية لمساندة كفاح الشعب الفلسطيني في المملكة المغربية، وجمعية دعم أسر شهداء ومجاهدي فلسطين بالمملكة العربية السعودية وغيرها من البلدان العربية، وجمعية أصدقاء فلسطين في لندن، وجمعية أصدقاء فلسطين في ايرلندا في دول أوروبا الغربية على سبيل المثال، أما في دول أوروبا الشرقية في ذلك الحين، فكانت النشاطات تتركز على تعزيز العلاقات مع الأحزاب الشيوعية والنقابات والمؤسسات الإنسانية وجلب دعمها وتأييدها إلى الشعب الفلسطيني وحقوقه الوطنية في وطنه من خلال إقامة نشاطات مستمرة، وإحياء المناسبات الوطنية وإشراك هذه الأحزاب والمؤسسات فيها.

العمل الدبلوماسي الفلسطيني في دول أوروبا الغربية

نظرا لصعوبة العمل الدبلوماسي التمثيلي الفلسطيني في الدول الأوروبية الغربية آنذاك، لجأت المنظمة وبدعم من الحكومة الجزائرية إلى الاتفاق مع جامعة الدول العربية لتعيين كفاءات فلسطينية لدى مكاتب الجامعة في الدول الأوروبية يحملون صفة المندوبين الإعلاميين ليعملوا من خلال مواقعهم ضمن مكاتب جامعة الدول العربية في عواصم تلك البلدان, ويكرسوا عملهم لفلسطين إعلاميا وسياسيا واستقطابا. علما بان وضع المنظمة لدى جامعة الدول العربية آنذاك

كان من الناحية القانونية هو وضع العضو المراقب، واستمر هذا الوضع إلى أن اتخذ مؤتمر القمة العربي السابع في الرباط عام ١٩٧٤ قراره باعتبار منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني فاكتسبت فلسطين العضوية الكاملة في جامعة الدول العربية، وتبع ذلك اكتسابها العضوية الكاملة في حركة عدم الانحياز، ومنظمة المؤتمر الإسلامي الذي أصبح اسمها فيما بعد منظمة التعاون الإسلامي، وبالتالي اتسع نطاق التمثيل الفلسطيني لدى عدد آخر من دول العالم النامي مما أتاح للمنظمة افتتاح مكاتب لها في عواصم تلك البلدان, وكان هذا التطور المترتب على التصعيد في العمل الكفاحي الفلسطيني، والتضحيات الجسام التي يقدمها الشعب الفلسطيني من خلال مسيرته النضالية وهو ما كان عاملا أساسيا في فتح أبواب الأمم المتحدة للمنظمة لتصبح عضوا مراقبا فيها باعتبارها حركة تحرر وطني وذلك في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٧٤.

في ضوء ذلك رفعت العديد من الدول العربية مستوى التمثيل الفلسطيني إلى مستوى دبلوماسي أعلى من مستوى مكتب ومنحتها بعض الحصانات الدبلوماسية، وقبلت بعض الدول الأوروبية استقبال ممثل لمنظمة التحرير الفلسطينية فيها ومن ضمنها على سبيل المثال، فرنسا وبلجيكا واسبانيا والسويد واليونان والمملكة المتحدة والنمسا والبرتغال.

إعلان قيام الدولة عام ١٩٨٨ يفتح آفاقا جديدة امام التمثيل الفلسطيني في العالم

بعد إعلان قيام الدولة افتتحت فلسطين سفارات لها في العواصم العربية، كما قررت الدول الأوروبية بعد ذلك اعتماد التمثيل الفلسطيني فيها على مستوى مفوضية، وممثل فلسطين مفوضا عاما لفلسطين في العاصمة يقدم أوراق اعتماده إلى وزير الخارجية، وقدم عدد من الدول الأوروبية بعض الامتيازات الدبلوماسية الى المفوضيات الفلسطينية. والمعروف أن المفوضية في الترتيب الدبلوماسي تأتي كدرجة أدنى بشكل مباشر من درجة السفارة. وكان الأوروبيون يقولون إننا تعاملنا مع فلسطين بهذه الطريقة انتظارا للمستقبل عندما نتعامل معها كدولة سنرفع التمثيل الى مستوى سفارة.

الرئيس ياسر عرفات يقرر إنشاء المعهد الدبلوماسي

إدراكا منه لأهمية التمثيل الدبلوماسي وضرورة أن يرتقى هذا القطاع الهام إلى أقصى درجة من الكفاءة والأهلية قرر الرئيس المرحوم الأخ أبو عمار تأسيس المعهد الدبلوماسي الفلسطيني فأصدر بتاريخ ٤كانون الثاني/ يناير سنة ٢٠٠٤ قرارا يقضي بإنشاء المعهد وطلب مني البدء في العمل على

تأسيسه فورا في إطار وزارة الشؤون الخارجية. ولقد جاء هذا القرار بعد أن أدرك الرئيس عرفات ومن خلال التجربة الدبلوماسية الطويلة هذه الخطوة بالغة الأهمية، وفي ضوء نجاحات وإخفاقات العمل الدبلوماسي الفلسطيني على مدى الأربعين سنة الماضية، والإدراك لأهمية وضرورة وجود معهد دبلوماسي يقوم بإعداد وتكوين المرشحين للعمل في السلك الدبلوماسي، وتأهيل العاملين في السلك ممن يحتاجون إلى مثل هذا التكوين. ولكن لسوء طالع الدبلوماسية الفلسطينية قضت مشيئة الله عز وجل أن يستشهد الرئيس عرفات قبل أن يرى وثائق المعهد الدبلوماسي التي وصلت إلى مكتبه كاملة وهو على فراش المرض قبل أن ينقل إلى باريس بأيام، وهي المرحلة التي منعه الأطباء فيها من التعامل مع الورق منعا باتا. ومع وفاته والتغيير الحاد في الوضع السياسي والإداري الذي ساد الوسط الرسمي الفلسطيني بعد وفاته على مستوى الحكومة ولا سيما في وزارة الخارجية التي عين على رأسها وزير كان أول خطوة اتخذها في شأن الوزارة هي إلغاء المعهد الدبلوماسي من هيكلية وزارة الشؤون الخارجية وإحالة رئيسه المعين بقرار رئاسي إلى التقاعد معلنا أننا لسنا بحاجة إلى معهد دبلوماسي، فهذه خطوة أكبر منا بكثير، كما قال في تصريح صحافي آنذاك.

واقع الدبلوماسية الفلسطينية

مرحلة شهداء العمل الدبلوماسي

عندما نتكلم عن واقع الدبلوماسية الفلسطينية الآن لا نلغي بأي شكل من الأشكال تاريخ العمل الدبلوماسي الفلسطيني ودور الدبلوماسية الفلسطينية الأساسي والهام في النضال الفلسطيني وأثره البالغ في المحافظة على منظمة التحرير الفلسطينية وإبقاء شعلة النضال الفلسطيني متأججة وحية خلال أصعب المراحل والأزمات السياسية التي مرت بها المنظمة والعمل الفلسطيني عموما، وما قدمه السلك الدبلوماسي الفلسطيني على مستوى السفراء من تضحيات ذهب معها العديد من السفراء وممثلي فلسطين شهداء في الساحتين الأوروبية والعربية، منهم وائل زعيتر الذي استشهد اثر إطلاق النار عليه في روما بتاريخ ١٧ تشرين أول/أكتوبر ١٩٧٢، ومحمود الهمشري الذي استشهد في باريس بتفجير قنبلة لقتله في بيته بتاريخ ٩ كانون الثاني/ يناير١٩٧٣، وسعيد حمامي الذي استشهد بإطلاق النار عليه في مكتبه في لندن بتاريخ ٤ كانون الثاني/ يناير ١٩٧٨، وعز الدين القلق الذي استشهد في باريس بإطلاق النار عليه بتاريخ ٣ آب/ أغسطس ١٩٧٨، ونعيم خضر الذي استشهد بإطلاق النار عليه في بروكسيل بتاريخ ١ حزيران / يونيو ١٩٨١، وعلي ناصر ياسين في الكويت، ود. عصام صرطاوي في لشبونة سنة ١٩٨٣ناهيك عن محاولات الاغتيال التي أحبطت في أماكن أخرى، والتهديدات بالقتل

لسفراء فلسطينيين آخرين بعد ذلك مما وثقته الحكومات ودوائر البوليس في بريطانيا وغيرها من الدول، وظهر في الوثائق البريطانية التي أفرج عنها مؤخرا، وهي التي تحتوي على معلومات تتعلق بأحداث الثلاثين سنة الماضية، وغيرها من الدول الأوروبية. هؤلاء هم الكوكبة المتقدمة من الدبلوماسيين الفلسطينيين الذين قضوا شهداء برصاص ومتفجرات الغدر الصهيوني والموساد الإسرائيلي وعملائه بينما كانوا في أماكن أعمالهم الدبلوماسية في العواصم الأوروبية عندما كان الدبلوماسي الفلسطيني يتوجه عند تعيينه الى مهامه الجديدة وهو يعلم أنه قد لا يعود حيا إلى أهله ووطنه.

هذه الكوكبة من الشهداء الدبلوماسيين لحقت بها كوكبة أخرى من الدبلوماسيين الذين جاءتهم المنية وتوفاهم الله وهم على رأس أعمالهم فاستشهدوا أمثال المرحوم السفير حاتم الحسني الذي توفي في واشنطن، والمرحوم عصام كامل السالم الذي توفي في مدريد، والمرحوم يوسف علان الذي توفي في دبلن، وإبراهيم الخطيب في بلغراد، وفيصل عويضة في فيينا، وجورج سلامة في نيكاراغوا، وسعيد العباسي في السنغال، وعلي حليمة في جنوب إفريقيا، إضافة إلى الذين توفاهم الله بعد التقاعد أمثال المرحوم جمال الصوارني وشفيق الحوت، وعبد اللطيف أبو حجلة (أبو جعفر)، وسعيد المزين، وصبحي أبو كرش،، وفتحي عبد الحميد، وفؤاد ياسين وأحمد عبد الرازق، وخالد الشيخ، وزهدي الطرزي، وسعدات حسن، ومروان طهبوب، ويوسف رجب، وزيد أبو العلا (هشام) وإبراهيم الطري، رحمهم الله جميعا. هؤلاء السفراء قضوا بعد سنوات طويلة من البذل والعطاء قدموا خلالها كل ما لديهم من جهد وخبرة وتفان في معركة الدبلوماسية الفلسطينية حول العالم.

العمل الفلسطيني ينشط على المستوى الثنائي

من ناحية أخرى نشط العمل الدبلوماسي الفلسطيني على المستوى الثنائي وأثبت وجوده في أكثر من تسعين دولة إضافة إلى النجاحات المميزة التي حققتها الدبلوماسية الفلسطينية على مستوى الدبلوماسية المتعددة في المحافل الدولية المختلفة عربية وإسلامية وعدم انحياز وصولا إلى العالم كله ممثلا في الأمم المتحدة، مما شمل تعريف وتحديد الحقوق الوطنية الفلسطينية على مستوى العالم بدءا من حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره وحقه في إنشاء دولته الوطنية المستقلة على ترابه الوطني، وحقه في مقاومة الاحتلال الإسرائيلي، وتحرير أرضه والعودة إليها وفقا لأحكام القانون الدولي والقانون الإنساني الدولي وحقوق الإنسان.

وعندما نلقي نظرة سريعة على وضع الدبلوماسية الفلسطينية في هذه المرحلة ندرك بسرعة مواطن الضعف والخلل فيها، وإذا كان هناك تأثير متبادل بين السياسة بكل جوانبها والدبلوماسية بكل

مظاهرها، نجد أن الوهن الذي أصاب السياسة الفلسطينية منذ سنوات بسبب التعنت الاسرائيلي وتوقف المفاوضات ومكر السياسة الدولية وتراجع الدعم العربي قد انعكس سلبا على الدبلوماسية الفلسطينية، ثم إن هذا الوهن لهذه السياسة على المستويات المختلفة التي شهدتها الساحة الفلسطينية، سواء على الصعيد الخارجي وبالتحديد فشل منهج المفاوضات مع إسرائيل، وعلى الصعيد الداخلي من الانقسام الوطني بين غزة والضفة، وفشل التوصل إلى إعادة اللحمة للوطن وتوحيده حتى الآن، والتخوف من أن يصبح الانقسام انفصالا في المستقبل لا سمح الله،، إلى سوء الإدارة وظاهرة الفساد الإداري والمالي، قد ترك أعمق الأثر في إضعاف نشاط تلك الدبلوماسية، كما لو تعمقنا في البحث عن الخلل الدبلوماسي من حيث هو لوجدنا أنه يكمن بالدرجة الأولى في ثلاث عناصر تعتبر الركائز الأساسية لنجاح كل عمل دبلوماسي فلسطيني، وهي العنصر البشري، وعنصر الوزارة، وعنصر الحرية والاستقلال الوطني في اتخاذ القرار.

١ - فالسلك الدبلوماسي الفلسطيني يفتقر إلى حد كبير إلى العنصر البشري الذي يتمتع بالموهبة الدبلوماسية. وهذه الموهبة لا تكتسب بالشهادة الجامعية أو المنبت أو عن طريق المباراة أو الانتخاب، بل تولد مع الإنسان وتصقل بالعلم والممارسة والإطلاع والتجربة الغنية. ونلاحظ أن معالم الخلل الدبلوماسي التي ظهرت في البداية لم يطرأ عليها أي تغيير بعد أربعين سنة من بدء العمل الدبلوماسي الفلسطيني، ويمكن إجمال هذه المعالم بأمور أربعة هي:

أ -تراجع المعايير في اختيار الدبلوماسي الفلسطيني، ففي غالب الحالات لا تعتمد طريقة الانتقاء والكفاءة والإعداد لاختيار رجال السلك الدبلوماسي، بل شاب الاختيار اعتبارات غير مهنية لا علاقة لها بالكفاءة أو المهنية أو التخصص .

ب _الضعف الظاهر في المستوى اللغوي والثقافي، فهناك عدد من دبلوماسيينا لا يتقن لغة أجنبية واحدة، ومنهم من كان لا يجيد حتى اللغة العربية الصحيحة، ومن الصعب على الدبلوماسي الفلسطيني القيام بمهمته على الوجه الأكمل أو المقبول إذا كان يجهل لغة الدولة المعتمد لديها. والمثير للدهشة أن انخفاض المستوى الثقافي لدى عدد من الممثلين الدبلوماسيين يكاد يكون ظاهرة ملموسة ناهيك عن التكوين السياسي والدبلوماسي المطلوب.

ج _الإهمال في تحسين المستوى الاجتماعي، فالدبلوماسي يجد صعوبة في الاندماج في المجتمع الأجنبي، وذلك بسبب البيئة التي ينتمي إليها، أو الطريقة التي يختار بها، أو الضعف اللغوي والثقافي الذي يعانيه، أو الزوجة العاجزة عن مساعدته في أداء رسالته لأنها ليست في الأصل مؤهلة أو مهيأة للعمل الدبلوماسي.

د_الشعور الدائم بعدم الاستقرار والاطمئنان نظرا للتقلبات السياسية وارتباطه بمن عينه من المتنفذين وارتباط مصيره بوجودهم مما لا يتيح له فرصة التفكير والإبداع والمبادرة.

٢- ما زالت وزارة الشؤون الخارجية جهازا ضعيفا أو عاجزا عن التصدي للمشكلات الخارجية أو حتى لعملية التنسيق والمتابعة لكثير من القضايا الهامة، ولا سيما ما يتعلق منها بالعمل مع المنظمات الدولية، أو حتى على المستوى الثنائي كما هو واقع الآن مع العديد من الدول الإفريقية، حيث نلاحظ التراجع الواضح لدول افريقية عن التأييد والدعم السياسي لقضية فلسطين مقارنة بالماضي القريب، وتوجه عدد من هذه الدول نحو إسرائيل وتعزيز العلاقات معها، ناهيك عن التراجع الملموس في مواقف عدد من الدول الأوروبية ممن اعتبروا في الماضي القريب ضمن الدول المتعاطفة مع الجانب الفلسطيني.

٣_ الحرية المشروخة في رسم السياسات الوطنية في مجال التطوير والتنمية في حقل الدبلوماسية، إذ كان القرار في إلغاء إنشاء المعهد الدبلوماسي في وزارة الشؤون الخارجية وشطبه من هيكلية وزارة الشؤون الخارجية سنة ٢٠٠٥غير مفهومة، وقد تكون ذات أبعاد خطيرة على أهم خطوة نحو تأهيل وتكوين سلك دبلوماسي وطني فلسطيني سليم وقادر على تحمل مسؤولياته الدبلوماسية.

الدبلوماسية لا تصنع سياسة

الدبلوماسية لا ترسم سياسات، ولكنها تشكل جزءا له أهميته في منظومة العمل السياسي المتكامل في الدولة. فعندما تكون الدولة تسير صعودا في المجالات السياسية والاقتصادية وغيرها، ترتفع وتيرة العمل الدبلوماسي وتجد الدبلوماسية لنفسها المجالات الرحبة للعمل والإبداع.

وعندما تكون الدولة في حالة هبوط سياسي أو في أكثر من مجال، أو في حالة تقهقر، أو ارتباك، أو تخبط سياسي، لا تستطيع الدبلوماسية أن تجعل من واقع الدولة المتدهور هذا فردوسا أمام العالم الآخر. وللتدليل على ذلك نأخذ الحالة الفلسطينية نفسها مثلا واضحا على ما نقول. كما أنه في الحالة الفلسطينية يكتسي العمل الكفاحي وتضحيات الشعب من أجل حقوقه عاملا حاسما في تعزيز العمل الدبلوماسي لاستقطاب الرأي العام وتأييده ودعمه لنضال الشعب الفلسطيني أو وقوف المجتمع الدولي إلى جانبه من ناحية، واستنهاض قوى التحرر في العالم لتأييد ودعم وتعزيز الكفاح الفلسطيني من ناحية أخرى.

كفاح الشعب ووحدته وتضحياته تشكل الأساس لكل عمل دبلوماسي

في الماضي عندما تصاعد كفاح الشعب الفلسطيني مثلا ضد الانتداب البريطاني، والهجرة اليهودية إلى فلسطين حتى ١٩٤٧ وبدأ العالم يشعر بتضحيات الشعب الفلسطيني وإصراره على الكفاح، اعترف المجتمع الدولي من خلال الجمعية العامة للأمم المتحدة بحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره وإقامة دولته الفلسطينية المستقلة على أرض فلسطين عبر قرارها المعنون (خطة التقسيم) رقم ١٨١ في تشرين الثاني/ نوفمبر سنة ١٩٤٧، ولكن عندما توقف الشعب الفلسطيني عن منهجه النضالي بعد ذلك من سنة ١٩٤٨ إلى ١٩٦٤، بسبب الهجرة وعوامل التشتت، تخلى المجتمع الدولي عنه وحذف المسألة الفلسطينية كقضية سياسية من جدول أعمال الجمعية العامة، وباشر بدراستها كقضية لاجئين عام ١٩٥٢. ولكن عندما استأنف شعبنا كفاحه مع نشوء منظمة التحرير الفلسطينية عام ١٩٦٤، وبدء الكفاح المسلح الذي أطلقته حركة فتح في شهر كانون الثاني/ يناير ١٩٦٥ عاد المجتمع الدولي ليؤكد حقوق شعبنا في تقرير مصيره وحقه في الدولة الفلسطينية المستقلة ذات السيادة ، واكتسبت فلسطين عضويتها الكاملة في جامعة الدول العربية، كما تبوأت مكانة نائب الرئيس في كل من حركة عدم الانحياز ومنظمة المؤتمر الإسلامي على جميع المستويات، ومراقب دائم في منظمة الوحدة الإفريقية التي أصبحت الاتحاد الإفريقي فيما بعد، وكأول سابقة في تاريخها فتحت الأمم المتحدة أبوابها لمنظمة التحرير الفلسطينية كي تتمتع بعضوية المراقب فيها وتأخذ مكانها كطرف فاعل ومباشر في المجتمع الدولي بصفتها حركة تحرير وطني تناضل على جميع المستويات بما فيها المستويين السياسي والدبلوماسي إلى جانب الكفاح المسلح الذي بدأته حركة فتح عام ١٩٦٥، وكان للبدء في الكفاح المسلح مع العدو الصهيوني الأثر الواضح في ولوج الدبلوماسية الفلسطينية مختلف أنحاء العالم لتستقطب قوى التحرر العالمية والقوى المحبة للسلام والجماهير التقدمية المناضلة في كل من أوروبا وآسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية، وقد تعاظم هذا التأييد والاستقطاب، بعد الانتصار المشرف في معركة الكرامة في آذار/ مارس سنة ١٩٦٨ حتى أصبح الشعب الفلسطيني وكوفيته الفلسطينية المميزة رمزا للمناضلين في العالم كله، وقدوة يحتذى بها عند جميع الشعوب وحركات التحرير العالمية حيث تسلمت فلسطين راية التحرر العالمي بعد انتصار الثورة الفيتنامية عام ١٩٧٥. . هكذا وبهذه الطريقة الواضحة كان المجتمع الدولي وقوى التحرر في العالم تتكامل مع شعبنا في حالات القوة والإصرار على انتزاع الحقوق، وترجمة ذلك بمنهج نضالي وكفاحي شعبي يقدم التضحيات من أجل حياة كريمة في وطن حر ومستقل، ويبتعد عنا كما تبتعد عنا قوى التحرر العالمية في حالات الضعف.

الواقع الفلسطيني الآن والعمل الدبلوماسي

إذا نظرنا إلى أنفسنا والى واقعنا السياسي اليوم، نجد أن فرقا شاسعا بين مرحلة البدايات وما تلاها من نجاحات سياسية ودبلوماسية ارتبطت بالمنهج الكفاحي المنظم من ناحية، والواقع الراهن المرتبط باتفاقات أوسلو، وخارطة الطريق الأميركية، ومحاولات إسقاط حقنا في المقاومة، واعتماد منهج المفاوضات غير المجدية منذ عشرين سنة مع إسرائيل قد قادنا إلى ما يلي :

١- انقسم الوطن وخسرنا بذلك أهم عنصر من عناصر القوة والمنعة أمام العالم هو وحدة الوطن وتماسكه، ومع ذلك نحن لم نحرك ساكنا.

٢- الاقتحامات اليهودية اليومية المستمرة والمتكاثرة لباحات المسجد الأقصى، والتهديد بتقسيمه على طريق الاستيلاء عليه بحجة إقامة الهيكل اليهودي المزعوم مكانه دون أن نعمل شيئا لوقف هذا العدوان.

٣- فقدنا مساحات من الأرض باستيلاء إسرائيل عليها من شمال الوطن إلى جنوبه، ثم زرعت فيها مستوطناتها اليهودية، وما زالت تسرق الأرض كل يوم، ونحن عاجزون عن وقف هذه الجريمة.

٤- ما تفعله اسرائيل في القدس ومحاولات تهويدها وما زال التهويد مستمرا لباقي أجزاء الضفة الفلسطينية.

٥- وزيرة القضاء الإسرائيلية أيليت شاكيد تدعو إلى قتل الأطفال الفلسطينيين وتقول " إن الأطفال الفلسطينيين ما هم إلا ثعابين صغيرة يجب قتلهم قبل أن يصبحوا ثعابين كبيرة ". هذه دعوة صريحة وواضحة وموثقة لحرب إبادة جماعية ضد الشعب الفلسطيني أطلقتها وزيرة ومسؤولة في الحكومة الإسرائيلية ومع ذلك نحن لم نحرك ساكنا.

٦- المستوطنون اليهود يقتلون أطفالنا ويحرقونهم أحياء كما حدث مع الطفل محمد أبو خضير في القدس، وذلك في حرب إبادة جماعية.

٧- المستوطنون اليهود وبحراسة الجيش الإسرائيلي يحرقون العائلات الفلسطينية أحياء كما حدث مع عائلة دوابشة بتاريخ ٢٠١٥/٧/٣١، ونحن نعجز عن عمل أي شئ بسبب الضعف والوهن الذي ارتبط بالمنهج السياسي الكامل الذي ثبت فشله مع إسرائيل.

٨- فتحت لنا أبواب المحكمة الجنائية الدولية لكي نستعين بها على جرائم الإسرائيليين بحق شعبنا وأرضنا ولكننا مع الأسف لم نطلب حتى الآن فتح تحقيق بهذه الجرائم من المدعي العام للمحكمة المذكورة، ويتعين علينا أن نتحرك من أجل تفعيل دور المحكة الجنائية الدولية للخروج عن صمتها.

٩- الإحباط بدأ يعم النفوس عند شعبنا ونحن ما زلنا نسير في سياسة الترقب والتعامل مع الإعلام المحلي.

بعد هذا كله، وما يظهره من ضعف، كيف يمكن أن نحظى باحترام العالم الذي لا يحترم إلا القوي، ولا يتعامل إلا مع القوي، ولا يقيم وزنا إلا للقوي.

كما قلنا سابقا فان الدبلوماسية لا تصنع سياسة، وبحكم كونها جزءا من المنظومة السياسية للدولة، ودورها مكمل لسياسة وإستراتيجية الدولة، لا تخرج عنها ولا تتعارض معها، فإذا تقدمت الدولة، تتقدم الدبلوماسية، وإذا تقهقرت الدولة، تتقهقر الدبلوماسية، وهي لا تستطيع أن تعمل بنجاح وشفافية وطنية وإبداع، إلا عندما تتسلح بإرادة الشعب المكافح وترتكز إلى نجاحاته وانجازاته وتضحياته على الأرض من أجل حقوقه الوطنية وسيادته في دولته المستقلة، أما إذا كان العكس هو السائد فذلك ينسحب على العمل الدبلوماسي.

مؤتمر هرتسليا السادس عشر (١٤ - ١٦ حزيران ٢٠١٦)

حلم رفلن في مواجهة اليمين

نظير مجلي*

(مؤتمر هرتسليا لأبحاث الحصانة القومية الإسرائيلية، قام أول مرة في سنة ٢٠٠٠ ليشكل جبهة استراتيجية نخبوية هدفها اسقاط حكومة ايهود باراك "اليسارية" واعادة اليمين الى الحكم. ولكن المؤتمر السادس عشر، يجد نفسه في مواجهة مباشرة مع حكومة اليمين. وإذا كان مؤتمر هرتسليا، حتى في السنة الماضية، قد انتقد حكومة نتنياهو على تخريبها العلاقات مع الولايات المتحدة وامتنع عن توجيه انتقاد لها على سياستها الاقليمية مع المحيط العربي، فإنه يوجه الانتقادات بوضوح لها في هذا المجال ويكاد يقول إنه إذا كان هناك من خطر على الحصانة القومية لإسرائيل فإنه لا يكمن في ايران والعرب بل في سياسة الحكومة الاسرائيلية نفسها.)

نظير مجلي

مقدمة

على الرغم من أن مؤتمر هرتسليا السنوي لبحوث "الحصانة القومية" في اسرائيل فقد الكثير من بريقه، منذ تأسيسه في سنة ٢٠٠٠، إلا أن أبحاثه ما زالت تلقى اهتماما لافتا داخل البلاد وخارجها. والباحثون فيه يسعون باستمرار الى جعله مؤثرا على صانعي القرار في اسرائيل. ويحسب لصالحه انه كان اول جسم في اسرائيل لفت الى المشروع النووي الايراني (سنة ٢٠٠٠)، وجعل منه قضية

* صحافي وباحث في الشأن الإسرائيلي.

عالمية. وأنه أوجد تقليدا للعصف الفكري بمشاركة نخبة من الخبراء الاستراتيجيين العالميين، الذين يحرصون على بث الرسائل والنصائح الى القيادة الاسرائيلية، التي تعمي أبصارها عن رؤية ما يدور حولها وتمتنع عن القراءة المهنية والموضوعية للساحة الدولية والاقليمية بل وحتى المحلية وتضيع البوصلة في كثير من القضايا.

لقد تأسس المؤتمر في حينه بغرضين: الأول هو إعطاء زخم للمؤسسة الأكاديمية الحديثة العهد، التي أرادت أن تكون مؤسسة اكاديمية فخمة ونخبوية (رسوم التعليم في هذه الجامعة يبلغ ثلاثة أضعاف الرسوم في الجامعات الرسمية وضعفي الرسوم في الكليات الأكاديمية الأخرى). والثاني مقارعة حكومة "اليسار" برئاسة ايهود باراك، وخلق جبهة أكاديمية استراتيجية ضدها للمساهمة في اسقاطها واعادة اليمين الى الحكم. وقد بادر الى هذا المؤتمر في ذلك الوقت البروفسور عوزي أراد، أحد أيديولوجيي اليمين، الذي عمل مستشارا لرئيس الوزراء الاسرائيلي بنيامين نتنياهو لعدة سنوات. وقد صُرفت ميزانية دسمة لإشراك شخصيات عالمية فيه، على طريقة مؤتمرات مراكز الأبحاث العالمية. وعندما جاء المؤتمر الثاني في ظل حكم الليكود برئاسة ارئيل شارون، بدأ المؤتمر يتخذ طابعا أكاديميا أكثر بانسجام ملحوظ مع مؤسسة الحكم. ولكن "شهر العسل" هذا لم يطل زمنه، وصارت أبحاث مؤتمر هرتسليا تصطدم مع الحكومة في العديد من المواقف، إذ ان استخدام المنطق العلمي صار يبدو مناقضا أكثر فأكثر لسياسات حكومات اسرائيل، مع ان رؤساء الحكومات والعديد من الوزراء حرصوا على المشاركة فيه بلا توقف، جنبا الى جنب مع ممثلي المعارضة.

ومنذ سنة ٢٠٠٦، بدأت سمعة مؤتمر هرتسليا ودوره في التراجع، عندما تأسس معهد أبحاث الأمن القومي في تل أبيب، الذي اكتسب سمعة محلية وعالمية كمعهد جاد ومهني وبعيد عن الانتماءات الحزبية والسياسية. وبدا ان التنافس بين المنتديين، يميل في غير صالح مؤتمر هرتسليا.

المؤتمر هذه السنة (٢٠١٦)

أمران مهمان وجوهريان ميزا مؤتمر هرتسليا السادس عشر (١٤ – ١٦ حزيران ٢٠١٦)، لكنهما ضاعا بحدثين سياسيين. فكما هو معروف، بدأ تنظيم هذا المؤتمر منذ سنة ٢٠٠٠ للبحث في الأسس اللازمة للحصانة القومية في اسرائيل ومستقبلها. ولكن ما غطى على أبحاثه الجوهرية وأخباره في اسرائيل، كان إعلان موشيه يعلون نيته التنافس على رئاسة الحكومة لإسقاط بنيامين نتنياهو، والانتقادات الشديدة التي وجهها كل من يعلون وسلفه ايهود باراك لنتنياهو والتي وصلت حد القول إنه يدير سياسة هتلرية. وأما في فلسطين وفي العالم العربي، فقد غطى عليهما أمر مشاركة

أحمد مجدلاني، (مع العلم ان هناك مشاركين فلسطينيين آخرين، مثل الياس زنانيري والنائب ايمن عودة رئيس القائمة المشتركة)، وكذلك مشاركة سفيري مصر والأردن في تل ابيب. فمع ان هذه المشاركة كانت تفصيلا صغيرا في المؤتمر، وخطابات أصحابها كانت معبرة عن الموقف الفلسطيني الوطني الراسخ، إلا أن الانتقادات لم تأخذ بالاعتبار هذه الحقيقة وتشبثت بمسألة المشاركة بوصفها تطبيعا. وهكذا، فإن الأمور الجوهرية في المؤتمر غابت عن هؤلاء.

وأما الأمران الأشد أهمية، واللذان يمكن اعتبارهما جوهريين في مؤتمر السنة هذه، فهما:

أولا: النداء الذي خرج به المؤتمر في ضوء أبحاثه المهنية المعمقة، ومضمونه ان هناك فرصة تاريخية لاسرائيل في منطقة الشرق الأوسط ينبغي اقتناصها لعملية سلام.

وثانيا: التوصيات التي خرج بها المؤتمر ووجهت الى رئيس الدولة، رؤوبين رفلين وقادة الأحزاب السياسية والمؤسسات الرسمية وتتعلق بمستقبل اسرائيل، وتطالب بخلق قاسم مشترك بين جميع "الأسباط" التي يتركب منها المجتمع، اليهودية والعربية.

ففي الموضوعين يوجد جديد. والباحثون في المؤتمر بدوا كمن ينظر بقلق بالغ الى مستقبل اسرائيل، بسبب القيادة السياسية الحالية برئاسة نتنياهو وأخطار السياسة التي يديرها، والتي تنطوي على تراجع كبير في القيم الديمقراطية وفي معالجة الصراعات الداخلية وفي قراءة الخريطة السياسية الاقليمية والعالمية. ولذلك لم يكن صدفة أن نتنياهو ألغى مشاركته في المؤتمر، بعدما كان قد أعطى موافقته على إلقاء كلمة الختام فيه. وفقط بعد مداولات ممضة، شارك فيها بعض منظمي المؤتمر الأمريكيين، وافق نتنياهو على ارسال خطاب مصور بالفيديو، حاول فيه الرد على ما قيل ضده في المؤتمر.

وقائع المؤتمر

كالعادة، حرص القيمون على المؤتمر على جعله واسع التمثيل المحلي والدولي. فشارك فيه هنري كيسنجر، الذي وصف بأنه "عميد الدبلوماسيين في العالم" (عمره اليوم ٩٣ سنة)، الذي عاد الى موقفه التقليدي القديم، فشكك في جدوى فكرة المؤتمر الدولي للسلام لتسوية الصراع الاسرائيلي الفلسطيني ودعا الى العودة لسياسته الأصلية "سياسة الخطوة خطوة" المسنودة بضمانات دولية، وانتقد سياسة الرئيس اوباما قائلا: "ينبغي على الأمريكيين ان يتذكروا ان اسرائيل دولة صغيرة وعدد سكانها قليل والمعارك التي تخوضها وتبدو للأمريكيين صغيرة، تعتبر عملاقة بالنسبة للإسرائيليين". ولكنه نصح الاسرائيليين بأن "يدركوا ان الترتيبات الأمنية التي يطلبونها من الفلسطينيين يجب ألا تكون مهينة".

ومن الشخصيات البارزة الأخرى، مايك هاكبي، السياسي الذي رشح نفسه للانتخابات الرئاسية

عن الحزب الجمهوري في الولايات المتحدة، نائب رئيس حكومة بلجيكا وزير الداخلية، جان جمبون، البروفسور سو هاو، وهو دبلوماسي سابق في الصين، يرأس حاليا كلية العلوم السياسية في جامعة بكين، وهياو ليمينغ، السفير الصيني الأسبق في ايران، فيليب غويز، رئيس جمعية الصداقة الاسرائيلية الفرنسية، السفير الأمريكي في تل ابيب، دان شبيرو، نائب وزير الخارجية الأمريكي، انتوني بلينكين، وزير خارجية بولونيا، ويتولد فاجيكوفسكي، سوات كينيليوجلو، دبلوماسي تركي سابق، البروفسور دانئيل كورتسر، السفير الأمريكي الأسبق في تل أبيب، ادوارد لوتووك، نائب وزير الدفاع الأمريكي الأسبق، ايلين بابيت، دبلوماسية امريكية سابقة، الدبلوماسي البريطاني سابقا، نيكولاس موريو، والدبلوماسي الاسباني سابقا، شارللز بويل، والدبلوماسي الألماني السابق، جورجين روتغيرس، والدبلوماسي الأمريكي السابق، بيرنارد سابيلا، ورئيس ناسا الأمريكية، جيرالد جي ساندرس، وممثل عن الجيش السوري الحر، عصام زيتون، وسفير مصر لدى اسرائيل حازم خيرت، سفير الاردن لدى اسرائيل وليد عبيدات، المدير السابق لمركز بروكينغز في العاصمة القطرية، سلمان الشيخ.

عمليا، لا توجد شخصيات دولية أو عربية كبيرة، كما في الماضي.

العنوان الرئيسي للمؤتمر هو: "أمل اسرائيل"، ويقصد به الحلم الذي كان قد طرحه رئيس الدولة رؤوبين رفلين في مؤتمر سنة ٢٠١٥ عن ضرورة ايجاد القاسم المشترك للأسباط الأربعة في اسرائيل (سنتطرق للتفاصيل لاحقا). ولكن أبحاثه تناولت عناصر أخرى من هذا الأمل تتعلق في مسائل الأمن والسياسة الخارجية والقضايا الاستراتيجية.

الجلسة الافتتاحية للمؤتمر، عقدت في مقر رؤساء اسرائيل، تقديرا للرئيس رفلين على طرحه في سنة ٢٠١٥ حول أهمية صياغة نموذج جديد من "الاسرائيلي". وفي اليومين التاليين، أقيمت الأبحاث في قاعة المؤتمرات في الجامعة المتعددة المجالات في هرتسليا، التي أطلقت هذا المؤتمر وأشرفت على ادارته وواكبت أبحاثه التمهيدية والحالية.

مواضيع البحث

بعد جلسة الافتتاح، انقسم المؤتمر الى قسمين: القاعة الكبرى والقاعات الصغرى. في القاعة الكبرى قدمت البيانات المركزية والتلخيصات والحوار مع كسينجر وخطابات الشخصيات المركزية: شمعون بيرس وموشيه يعلون والوزراء يوفال شتاينتس ويسرائيل كاتس وأفيغدور لبرمان ورؤساء الأحزاب والوزراء والخاتمة. فيما تمت الأبحاث في الغرف الصغيرة.

ومن أهم المواضيع التي تناولها مؤتمر هرتسليا الـ ١٦:

- عشر سنوات على حرب لبنان الثانية
- اسرائيل والحروب القادمة
- سنة على الاتفاق النووي مع ايران، فماذا بعد؟
- عملية السلام في ظل الفوضى الاقليمية
- اوروبا بين الهجرة والتطرف
- السياسة الأمريكية تجاه اسرائيل، بعد الانتخابات القادمة
- التغيرات الجيوسياسية في الشرق الأوسط
- سوق الغاز في اسرائيل
- مستقبل الهايتك في اسرائيل
- الجديد في حرب السايبر
- مكافحة نشاطات المقاطعة ضد اسرائيل
- الأمم المتحدة، صديق او عدو
- وضع المسيحيين في الشرق الاوسط
- يهود الولايات المتحدة وسياسة اسرائيل الخارجية

استهل المؤتمر بنشر نتائج استطلاع رأي تم في كل من مصر والعربية السعودية حول الموقف من الانتخابات الرئاسية الأمريكية، أجراه "معهد السياسة والاستراتيجيا" في الجامعة بإشراف ألكس مينتس وايلي مغربي، وهما من لجنة التوجيه في المؤتمر. وقد أجري الاستطلاع خصيصا لهذا المؤتمر، كجزء من دراسة الأوضاع في العالم العربي والى أي مدى تؤثر على المواقف السياسية. وقد بلغ عدد المستطلعين ٤٧١ شخصا في مصر و٤٦٤ شخصا في السعودية يشكلون عينة تمثيلية، وتم استجوابهم خلال الفترة ما بين ١٧ نيسان و٨ حزيران ٢٠١٦.

وكان السؤال الأول: هل يجب على الرئيس الأمريكي القادم ان يدفع بمبادرة سلام بين اسرائيل والفلسطينيين؟ فأجاب المصريون: ٢٥٪ نعم، ٣٢٪ يجب دفع مبادرة سلام اقليمي و٤٢٪ أجابوا بأنه لا ينبغي ابرام سلام مع اسرائيل. وأما في السعودية فالمؤيدون لسلام مع الفلسطينيين كانوا بنسبة ١٨٪ فقط ، فيما حبذ ٤١٪ سلاما مع العالم العربي كله وأبدى ٣٩٪ معارضتهم لأي سلام مع اسرائيل.

وكان السؤال الثاني: هل كان أوباما جيدا للعالم الاسلامي؟ والجواب في مصر: جيد جدا ٢,٥٪، جيد

١٤,٢٪ ، متوسط ٣٨,١٪، سيء ٢٤,٥٪، سيء جدا ٢٠,٧٪. وأما في السعودية فأجابوا: جيد جدا ٢,٦٪، جيد ١٧,٥٪، متوسط ٣٦,١٪، ٢٣,٨٪ سيء و٢٠,١٪ سيء جدا.

وكان السؤال الثالث عن مدى الأمل العربي في الرئيس/ة القادم/ة إن كان يحسن العلاقات مع العالم العربي. فأجاب المصريون لا تغيير ٤٩٪، تغيير للأفضل ٣١٪، تغيير للأسوأ ١٩٪. وأما في السعودية فجاءت النتيجة: لا تغيير ٤٥٪، تغيير للأفضل ٢٧٪ وللأسوأ ٢٧٪.

السؤال الرابع: هل سيغير الرئيس الجديد اتفاق النووي مع ايران؟ فقال المصريون ١٩٪ سيبطله و٨٠٪ لن يبطله، وقال السعوديون ١٢٪ سيبطله و٨٦٪ لن يبطله.

والسؤال الخامس: هل سيرسل قوات برية لمحاربة داعش؟ المصريون: ٤٨٪ لا، ٣٢٪ نعم، ١٩٪ لا أعرف. والسعوديون: ٥٨٪ لا، ١٧٪ نعم، ٢٤٪ لا أعرف.

السؤال السادس: أي مرشح تفضل لرئاسة الولايات المتحدة؟ فاختار المصريون: ٤١٪ كلينتون، ١٠٪ تيد كروز، ٨,٥٪ ساندروس ، ٣,٨٪ ترامب، و٤١٪ لا أحد منهم. وأما السعوديون: ٣٠٪ كلينتون، ٧٪ ساندروس ، ٦٪ ترامب، ٦٪ كروز، ٥٠٪ لا أحد منهم.

السؤال السابع: ما الذي يجعلك تفضل هذا الرئيس أو ذاك؟ مصر: ٤٦٪ أن لا يتدخل في الشرق الأوسط، ٢٧٪ مدى استعداده لمحاربة داعش، ٢٢٪ مدى استعداده للحرب في سورية، ٣٪ مدى تدخله في الموضوع الايراني. وأما في السعودية فأجابوا: ٥٢٪ أن لا يتدخل في الشرق الأوسط، ٢٠٪ يحارب داعش ، ٢٠٪ يحارب في سورية، ٧٪ يتدخل مع ايران.

أبرز المواقف خلال الأبحاث

ما نشر عن مؤتمر هرتسليا من مواقف، بات معروفا. ونلخصه فيما يلي، حتى نتناول القضيتين الأساسيتين فيه:

** رئيس شعبة الاستخبارات العسكرية، الجنرال هرتسي هليفي، قدم التقرير المركزي حول التحديات الأمنية لإسرائيل والرؤيا الاستراتيجية والحروب القادمة، فقال: "المعركة القادمة في الشمال ستكون مختلفة، ايضا عن حرب لبنان الثانية وعن الجرف الصامد، لكنها مختلفة ايضا عن حرب يوم الغفران وما قبلها. في حرب يوم الغفران قتل لدينا مواطن واحد في الجبهة الداخلية جراء اصابته بصاروخ سوري. اليوم واضح ان الحرب تصل الى جبهتنا الداخلية". وأضاف ان "حزب الله يعتبر اليوم القوة الاكبر التي تواجه اسرائيل. وبعد عشر سنوات على حرب لبنان الثانية يمكنني

القول ان الجانبين لا يعارضان عشر سنوات اخرى من الهدوء. نحن لا نريد الحرب، لكننا مستعدون لها اكثر من أي وقت سابق، ونحسن قدراتنا دائما". وبخصوص المعلومات الاستخبارية المتوفرة حول حزب الله قال: "انا اقول بالحذر المطلوب انني اعتقد بأنه لم يحدث ابدا ان عرف جيش ما عن عدوه ما نعرفه نحن عن حزب الله". وقال ان "الحرب القادمة لن تكون بسيطة ولا سهلة. حزب الله يواجه التحدي في سوريا ويتدرب على الحرب الى جانب جيوش ويحقق انتصارات. هنا وهناك يسيطر على وسائل قتالية لم يعرفها من قبل. وفي المقابل يواجه التنظيم عقوبات اقتصادية من قبل العالم العربي والدول السنية. في سورية يصنعون الاسلحة الان لحزب الله وليس للمواجهة في سورية، وانما للمواجهة مع اسرائيل. وحسب رأيه فان نهاية الحرب الاسرائيلية ضد حزب الله واضحة: اذا وقعت حرب اخرى، فان الجبهة الداخلية ستواجه تجربة اكثر قساوة. لكن دولة اسرائيل ستعيد بناء ما تدمر. اما لبنان فسيتحول الى دولة لاجئين، تواجه صعوبة في اعادة اعمارها، وحزب الله سيفقد قاعدة الدعم السياسي في لبنان". وقال ان "احتمال وقوع مواجهة بات اكثر انخفاضا من السابق، ولكن في نظرة الى حجم القوات الشاملة في الشرق الاوسط، نجد، من جهة، ان الوضع تحسن، نحن اكثر قوة من الجهات المحيطة بنا. ومن جهة ثانية، نحن نتواجد في بيئة معقدة واكثر قابلية للانفجار. الشرق الاوسط يواجه عدم الاستقرار منذ عدة سنوات. نحن اقوى من أي وقت مضى بالنسبة لأعدائنا وسنواجه كل تحدٍّ. لكن من المهم ان نعرف بأن الطريق لتحقيق هذا الانجاز لن تكون بسيطة، ولن تكون سهلة. كما يحدث في الحروب، سيكون له ثمنه".

** مايك هاكبي، المرشح الجمهوري، الذي انسحب بعد فشله ومنح تأييده للمرشح ترامب، حاول تفسير موقفه فقال: ستكون هيلاري كلينتون مصيبة تحل بإسرائيل. إن سياستها ستشكل مواصلة لسياسة الرئيس أوباما. وأنا لا أظن بأن أحدا يستطيع القول بأن العلاقات بين إسرائيل والولايات المتحدة كانت جيدة تحت ولاية أوباما، التي امتدت على مر السنوات الثماني الماضية. أنا أظن بأنني كنت المرشح الأكثر ملاءمة، والأكثر استحقاقا، والأكثر موهبة، ولكن بسبب احترامي العملية الديمقراطية وآراء الناخبين، فإنني سأقوم بكل ما بوسعي لكي أساعد ترامب ليصبح الرئيس القادم. إنني أتساءل ما الذي يفكر به الجمهوريون الذين يتنصلون من أقوال ترامب، إن مواقفهم لا تتوافق مع ما يؤمن به أغلبية الأميركيين، إنهم يؤمنون بأنه يترتب على الولايات المتحدة أن تسيطر على حدودها، وبأن على الشعب الأميركي أن يتأكد ممن يدخل إلى الدولة ومن أهداف دخوله إليها. لا أستطيع التفكير بدولة واحدة في العالم تفتح حدودها لكل من يرغب بالدخول إليها، من دون أن يكون لديها أية فكرة عن هدف وصوله . لدينا أحداث إرهابية دائما، كما جرى في ماراثون بوسطون، وإطلاق النار في سان براندينو وأورلاندو. إن العامل المشترك بين هذه الأحداث جميعها

هو أنها قد نفذت بيد مسلمين متطرفين، لعلنا إذا ينبغي أن نكون أكثر حذرا من أولئك الذين يحاولون الدخول، ويعلنون عن كونهم مسلمين. إن هذا لا يعني بأن علينا منع دخول الجميع، بل يعني بأن علينا أن نعرف من هم أولئك، ولماذا هم آتون، وما الذي يرغبون في فعله حين يصلون. وعلى العكس من هيلاري، فإنني أظن بأن ترامب سيؤدي إلى تعزيز حقيقي للعلاقات مع إسرائيل. إن حقيقة كون ابنته متزوجة من يهودي، وكون أحفاده يكبرون كيهود هما أمران هامّان. إنه ليس شخصا بإمكانه الاستخفاف بالعلاقات الهامة بين الولايات المتحدة وإسرائيل".

** ايهود باراك، ألقى خطابا فريدا في حدته ضد سياسة نتنياهو، وقال ان "براعم الفاشية" التصقت بالحكومة، واضاف: "ادعو الحكومة الى الاستيقاظ والعودة فورا الى المسار، واذا لم تفعل ذلك، فسيكون علينا جميعا، نعم جميعا، القيام من مقاعدنا، المريحة والأقل من مريحة، واسقاطها، بواسطة الاحتجاج الشعبي وبطاقة الاقتراع – قبل ان يصبح الوقت متأخر جدا. وقال إن نتنياهو وحكومته يفشلان في توفير الأمن لمواطني اسرائيل ويقوضان نسيج الديموقراطية في اسرائيل. وقال "ان ما يقف حقا في مقدمة جدول اولويات نتنياهو وحكومته ليس امن اسرائيل، وليس الحفاظ على الديموقراطية، وليس وحدة الشعب الداخلية، وانما الدفع الزاحف والمخادع لأجندة "الدولة الواحدة"، من الأردن حتى البحر – الأجندة التي تهدد بشكل مباشر حقيقة هوية ومستقبل اسرائيل والمشروع الصهيوني كله. وقال باراك انه ولكي يبرر اعماله، يعمل نتنياهو وفقا "للحاجة القهرية.. من اجل تتويج تهديد الابادة المرة تلو المرة". وأكد باراك انه من تجربته كرئيس للأركان ووزير للأمن فانه يحدد بأن اسرائيل لا تواجه اليوم أي خطر امني يهدد وجودها. "السلطة، وعلى رأسها نتنياهو تعمل من اجل ترسيخ خطر الوجود الفوري والحقيقي، بين اقواس، في وعي الجمهور. اسلوب الهتلرية الذي يتبعه رئيس الحكومة، للتخويف من تهديدات اقليمية متوالية، مهما كانت صعبة، هو قمة الاستخفاف بالكارثة، وليس شيئاً آخر". واتهم باراك نتنياهو بالمس المتواصل بالديموقراطية، وقال: "يمكن للأعمى او المتظاهر بالحماقة او الجاهل او المتراخي فقط ان لا يرى عملية التآكل التي تصيب الديموقراطية، وبوادر الفاشية التي التصقت بالحكومة.. اذا كان هذا يبدو مثل بوادر الفاشية، ويمشي مثل بوادر الفاشية، وينبح مثل بوادر الفاشية، فهذه هي بوادر الفاشية. هذا هو الوضع. هكذا تماما". واضاف: "التطرف المنغلق، الغطرسة والعمى سيطرا على رئيس الحكومة وعلى حكومة اسرائيل – وباسم اجندة، خفية ظاهرا، مع لمسة تبشيرية، تجرنا جميعا نحو الهاوية الاخلاقية والتنفيذية التي لن نعرف من سينقذنا منها". وحسب اقوال باراك فان تحقيق اجندة الحكومة الحالية "سيقود الى دولة واحدة اما ان تكون دولة ابرتهايد يجري عزلها من قبل العالم كله – ونهايتها الانهيار، او دولة ثنائية القومية مع اقلية يهودية خلال جيل او

جيلين، وتواجه الى حد كبير حربا اهلية متواصلة بين جزئيها". واضاف ان "هاتين الامكانيتين ستأتيان بنهاية المشروع والحلم الصهيوني. ولا توجد امكانية اخرى، الا بالنسبة لمن ينتظرون التدخل الالهي الرؤيوي".

** وزير الأمن السابق، موشيه يعلون، أيضا هاجم نتنياهو، واتهمه بتأجيج مشاعر الخوف في اوساط الجمهور، ودب الصراع والشقاق بين اجزاء الشعب، والمس بالجيش الاسرائيلي وبقيمه، وبتدهور اسرائيل نحو الهاوية. واعلن يعلون انه سينافس نتنياهو على قيادة الدولة في الانتخابات القادمة. وقال انه على الرغم من استقالته من الحكومة والكنيست، الا انه لا ينوي ترك الحياة السياسية. وقال: "انوي المنافسة على قيادة اسرائيل في الانتخابات القادمة – لزام علينا توفير بديل للقيادة الحالية". وأضاف يعلون ان على القيادة "التوقف عن تخويف المدنيين والقول لهم بأننا على حافة كارثة ثانية". وأكد يعلون ان "المشروع النووي الايراني الذي تم تجميده في اعقاب الاتفاق الموقع مع ايران لا يشكل تهديدا وجوديا فوريا على اسرائيل. في هذا الوقت وفي المستقبل الظاهر للعين، لا تواجه إسرائيل أي تهديد وجودي. من المناسب ان تتوقف القيادة الاسرائيلية عن تخويف المدنيين والقول لهم اننا نقف على عتبة كارثة ثانية. هذا مفهوم خاطئ مفاده اننا اذا زرعنا الخوف في نفوس المواطنين فان هذا سينسيهم الفساد والفجوات الاجتماعية وغلاء المعيشة". وقال يعلون ان ما يقض مضجعه هو التآكل في قيم اسرائيل خلال فترة ولاية نتنياهو. محاولة التعرض للجيش بشكل يهدد حصانته، والهجوم على المحكمة العليا ومحاولة رئيس الحكومة "استعباد" وسائل الاعلام. "قيادتنا اصبحت مجرورة ومتطرفة بدلا من قيادة مجتمع رائع هنا. القيادة منشغلة في تأجيج الغرائز والتخويف بين اليهود والعرب، بين اليمين واليسار، وبين الطوائف المختلفة لكي تحافظ على بقائها في السلطة واكتساب شهر او سنة أخرى. وظيفة القيادة هي تجميع الشعب وليس تمزيقه والتحريض".

** وزير الأمن الداخلي، غلعاد اردان، قال في المؤتمر انه "من العبث محاولة القول بأن الارهاب في فلوريدا وكاليفورنيا وباريس وبروكسل وكثير من الدول الأخرى في العالم هو نتاج ايديولوجية اسلامية متطرفة وتحريض وتطرف في الشبكات الاجتماعية والمساجد، بينما الارهاب في تل ابيب هو نتاج الوجود الاسرائيلي في الضفة الغربية. الارهاب هو ذات الارهاب". وحسب اقواله فان "عالم الديموقراطية يخوض الحرب امام مجموعة متطرفة من الناس الذين يحاولون خلق نظام جديد، يقوم على الاسلام المتطرف ويتعارض مع القيم الاساسية للعالم المتنور".

** وزير الطاقة يوفال شتاينتس، كشف ان عمليات الفحص والتنقيب، التي يقوم بها علماء اسرائيليون واميركيّون واوروبيون في البحر الأبيض المتوسط، تقدر ان هناك ما لا يقل عن ٢٢٠٠

مليار متر مكعب من الغاز لم تكتشف بعد في أعماق الأرض، أي ما يعادل اربعة اضعاف المخزون في بئر لفيتان. وأضاف ان احتمالات هذه التقديرات حتى الآن ٥٠٪، لكن عمليات التنقيب ستبدأ في الخريف القادم وعندها نتيقن من النتيجة. فإذا كانت صحيحة، ستصبح اسرائيل واحدة من أهم مصدري الغاز. وستعود علاقات التعاون مع تركيا لتصبح استراتيجية للطرفين وكذلك لأوروبا. وفي هذا السياق، قال يوسي آفو، مدير شركة "ديلك" الاسرائيلية، التي تمتلك سوية مع شركة اميركية امتيازات التنقيب واستخراج النفط في البحر المتوسط، إن الغاز بات اكسجين الحياة للازدهار الاقتصادي في اسرائيل لعقود طويلة جدا. وقال إن استخراج الغاز سيتم حسب الجدول الزمني المخطط. ففي هذه السنة سيتم استثمار نصف مليار دولار في أعمال التمهيد، بما في ذلك اقامة الخزان العملاق في اسدود. وفي سنة ٢٠١٦ سيبدأ الحديث عن غاز اسرائيلي للاستخدام.

** قائد سلاح الجو، الجنرال امير ايشل، كان متحدثا اساسيا في موضوع الحرب القادمة، فقال إن ما حصل من تطور في قدرات الجيش الاسرائيلي خلال السنوات العشر الماضية، هو اقرب الى الحلم. انه يشبه التفوق الاسرائيلي في الهايتك. وقال: لا شك في ان سلاح الجو بات صاحب المسؤولية الأكبر في كل حرب قادمة، أكان ذلك في المعارك الحدودية مع دول الجوار أو مع دول بعيدة. انه ليس الذراع الطويلة الكاسحة للجيش الاسرائيلي فحسب، بل الجسم الذي يبادر ويقود عمليات من اولها الى آخرها. ومهماتنا زادت في السنوات الأخيرة بما لا يمكن قياسه ومقارنته مع مهمات الماضي. ومن ضمن الزيادات اللافتة هي دور استخبارات سلاح الجو. طائرات الاستطلاع التابعة لنا ومعها طائرات الشحن الخفيفة والطائرات بلا طيار، تضرب أرقاما قياسية في الطيران. نحن يوميا نجمع المعلومات عن ألوف الأهداف. وأنا أتحدث عن طائرات ومروحيات ووسائل اخرى تطير بعيدا جدا وفيها بشر يعملون وأتحدث في الوقت نفسه عن السايبر. ومن النتائج العملية لهذه المهمات ما حصل في عملية "الجرف الصامد"، فقد ألقينا عشرات ألوف الأطنان من المتفجرات من الجو على ألوف الأهداف التي كانت دقيقة، ما يدل على جودة نشاطنا الاستخباري، الذي تعاون بالطبع مع "أمان" (شعبة الاستخبارات العسكرية).

** رئيس الدائرة السياسية الأمنية في وزارة الدفاع، اللواء عاموس جلعاد، قال إن ايران كانت وستبقى التهديد الأمني الأساسي لإسرائيل. وان هناك احتمالا حقيقيا لأن يتحول هذا التهديد الى تهديد وجودي، على الأقل طالما بقي علي خامنئي حيا يرزق. وقال ان التهديد لا يقتصر على التسلح النووي، بل على الدور الذي تقوم به في المنطقة، بدءا بتسليح حزب الله وحتى دورها في سورية ومحاولتها جعل الجولان نقطة انطلاق لعمليات.

** المدير العام لوزارة الخارجية، د. دوري غولد، حاول الدفاع عن سياسة الحكومة والرد على

بيان وتوصيات المؤتمر قبل صدورها، فراح يتحدث عن العلاقات السرية التي تقيمها اسرائيل مع الدول العربية التي لا تقيم معها علاقات دبلوماسية. وقال: "من تحت الجليد تتدفق كميات كبيرة من المياه الساخنة". وادعى ان الخوف من ايران هو الذي يقرب الدول العربية من اسرائيل وليس مفاوضات السلام مع الفلسطينيين. وقال: الموضوع الفلسطيني لم يعد مطروحا على رأس سلم الاهتمام العربي، لا بل انه في قاع السلم. ومع ذلك، اسرائيل تحاول ايجاد مخرج لإطلاق المفاوضات. وتحاول الاستفادة من علاقاتها الجديدة مع العالم العربي لتحسين العلاقات بيننا وبين الفلسطينيين. فهذه هي رؤيا نتنياهو. قبل ٢٠ سنة قيل لنا ان تسوية القضية الفلسطينية ستحقق لنا السلام مع العالم العربي، لكن الأمر بات عكسيا. اننا نفتش بسراج وفتيل عن نقاط الضوء ونلاحظ حقبة تاريخية استراتيجية لإقامة شرق اوسط جديد تكون فيه اسرائيل آمنة أكثر.

النداء والتوصيات

أصدر مؤتمر هرتسيليا بيانا ختاميا تضمن عددا من التوصيات الاستراتيجية في عدة مجالات، بينها الدعوة لإدخال أربعة تعديلات على العقيدة الأمنية والعسكرية الإسرائيلية هي: تأكيد اهمية التحالف مع الولايات المتحدة الأميركية والامتناع عن المساس به، إنشاء ثلاثة مسارات تعاون استراتيجي لإسرائيل مع دول الخليج ودول الشرق المتوسط (الأردن وتركيا واليونان وقبرص ودول البلقان) وشرق افريقيا (أوغندا، أثيوبيا، جنوب السودان، كينيا)، منع وإحباط التهديدات العسكرية المحتملة، وأخيراً أنشاء آلية داخلية للتكيف مع المتغيرات المتلاحقة في المنطقة.

ويوصي المؤتمر بقيام حكومة اسرائيل بواجبها في توفير الظروف المناسبة لهذه الأهداف، من خلال تغيير الموقف من مبادرة السلام العربية واعتبارها ركيزة أساسية في توجه إسرائيل نحو الدول العربية. فمن دون هذه الخطوة لن يتم تشكيل مجال استراتيجي مشترك.

ويوصي المؤتمر في الناحية الأمنية بمواصلة العمل على إحباط التهديدات المحتملة الموجهة ضد اسرائيل، من خلال الضربات العسكرية الوقائية خارج الحدود.

ويوصي المؤتمر بإنشاء آليات مختلفة واضحة وحازمة لصناعة القرارات في اسرائيل، بما يلائم المتغيرات السريعة في المنطقة، حيث أن التغيرات العاصفة التي شملت المنطقة منذ اندلاع أحداث "الربيع العربي" وحتى اليوم، لا تلقى ردا اسرائيليا مناسبا. وقد تميز الرد بالتخبط والسير ببطء شديد والاخفاقات. ويوصي بإبداع منظومة لصناعة قرارات تعتمد السرعة والدقة للتكيف مع المستجدات في المحيط العربي لإسرائيل وتقليل الأضرار الناجمة عن هذه التغييرات.

وفي موضوع التحالف مع الولايات المتحدة، يوصي المؤتمر بعدم الاكتفاء بالمقولة المعروفة عن العلاقة العضوية المتينة والعمل على أن تكون إسرائيل شريكا وضلعا أساسيا في الرؤية الاستراتيجية الأميركية، خصوصا في قضايا مكافحة الإرهاب والملف النووي الإيراني، والالتزام بهذه الرؤية الأميركية والتعاطي معها والعمل على توثيق العلاقات العسكرية والأمنية بينهم.

أسباط اسرائيل

في هذا الموضوع الداخلي، بدا ان المؤتمر يكرس جل أبحاثه له. وهو يعتمد على تصريحات رئيس الدولة، روبي رفلين، خلال مؤتمر هرتسليا الخامس عشر (٢٠١٥)، التي حذر فيها يومها من تفشي العنصرية ودعا الى تنفيذ سياسة تسامح وتآخ حقيقية محذرا من ان السياسات الحالية تدمر اسرائيل والمشروع الصهيوني. ومما قاله رفلين في حينه: "وجه المجتمع الاسرائيلي يختلف عما ينظر اليه الجمهور الاسرائيلي، إذ ان عدد المتدينين والعرب يتزايد بشكل ملموس في السنوات الأخيرة ويقترب من عدد العلمانيين وجمهور المتدينين القوميين، بحيث اصبحت إسرائيل تقترب من وضع لا توجد فيه اغلبية واضحة او اقلية واضحة". واعتبر الخطوات الديموغرافية التي تعيد صياغة وجه المجتمع الاسرائيلي تخلق عمليا "ترتيبا اسرائيليا جديدا". وقال ريفلين ان "الاسباط" الاربعة (اليهود العلمانيون واليهود الحريديم واليهود من التيار القومي الديني والعرب) ستتقارب في السنوات القريبة من بعضها وستحتم نظرة اخرى الى المجتمع الاسرائيلي، مشيرا الى ان المجتمع الاسرائيلي في التسعينات كان مجتمعا يقوم على غالبية واضحة وراسخة، والى جانبها اقلية واضحة. غالبية للصهيونية الرسمية الى جانب ثلاث اقليات: اقلية دينية قومية، اقلية عربية، واقلية دينية متشددة. وحسب رأيه فان هذه الصورة قد تكون رسخت في ذهن غالبية الجمهور ووسائل الاعلام والجهاز السياسي لكنها تختلف في الواقع جوهريا. وقال ريفلين: "علينا ان نسأل بصدق عن المشترك بين هذه القطاعات. فهل هناك لغة مشتركة او روح مشتركة؟ وهل لدينا عامل قيم مشترك يمكنه الربط بين كافة القطاعات سوية مع دولة اسرائيل اليهودية والديموقراطية؟ وحسب رأيه فقد شكل الجيش في السابق الادارة الرئيسية لصياغة الإسرائيلية، ولكن في الواقع الاسرائيلي الحالي، لا يخدم نصف الجمهور تقريبا في الجيش (العرب والحريديم). وتساءل ريفلين: "هل يمكننا، نحن ابناء الجمهور الصهيوني، اليوم، التسليم بحقيقة ان مجموعتين اساسيتين في المجتمع الاسرائيلي، تشكلان نصف الجمهور، لا تعرفان نفسيهما كإسرائيليتين؟ ولا تشاهدان مراسم ايقاد الشعل على جبل هرتسل في يوم الاستقلال؟ ولا تؤديان النشيد القومي بأعين مشعة؟ هل يمكننا التنازل عن الخدمة في الجيش "كبطاقة دخول الى الاسرائيلية" والاقتصاد الاسرائيلي؟ وهل يمكن الاكتفاء بأدائها للخدمة

المدنية او المجتمعية؟ وفي المقابل هل يؤدي الوسطان العربي والمتدين المتشدد مساهمتهما في بلورة هذه الإسرائيلية والاقتصاد الاسرائيلي والخدمة المدنية والمجتمعية، من خلال الشعور بالمسؤولية والالتزام؟" وحسب رأي ريفلين فان غير المستعدين لطرح هذه التساؤلات اليوم ليسوا صهاينة أكثر ولا وطنيين اكثر، وانما يتجاهلون التحدي الكبير الذي يواجه المشروع الصهيوني اليوم. وقال: "اذا شئنا الحياة، واذا كانت رؤية الدولة اليهودية الديموقراطية هي حلم حياتنا وطموحنا فان المطلوب منا اليوم هو توجيه نظرة شجاعة الى هذا الواقع، من خلال الالتزام العميق بالعثور معا على اجوبة لهذه التساؤلات من خلال الاستعداد لرسم كل اسباط اسرائيل، ورؤية مشتركة للأمل الاسرائيلي". وانهى ريفلين خطابه قائلا: اقف اليوم امامكم بشعور عميق بان المجتمع الاسرائيلي يحتاج الى يقظة. وانا ادعو الجميع للتجند معا من اجل هذا التحدي. انا شريك لكل من يبدي استعدادا لتقديم مساهمته في هذه المهمة. انا هنا في خدمتكم، وفي خدمة المجتمع الاسرائيلي كله، فهكذا فقط يمكننا تجديد الامل الاسرائيلي".

بعد هذا الخطاب، قررت ادارة مؤتمر هرتسليا قبول التحدي وتبني رؤيا رفلين وتحويل حلمه الى برنامج عمل. فأقامت لجنة توجيه من مجموعة باحثين برئاسة البروفسور الكس مينتس، تضم عددا من الباحثين اليهود والعرب والأجانب، عملت طيلة السنة على اجراء الابحاث لإطلاق البرنامج. وتعبيرا عن الاحترام لوجهة نظر رفلين، تقرر عقد الجلسة الافتتاحية للمؤتمر في مقر الرئاسة في القدس الغربية. وجلس على المنصة ممثلون عن الأسباط الأربعة: النائب العربي ايمن عودة، رئيس القائمة المشتركة، ووزير التعليم نفتالي بنيت، رئيس حزب المستوطنين "البيت اليهودي" بوصفه ممثلا عن التيار الديني القومي الصهيوني، وزير الداخلية وتطوير النقب والجليل، أريه درعي بوصفه ممثلا عن أحد تيارات الحريديم (الشرقيين)، ورئيس حزب المعسكر الصهيوني المعارض، يتسحاق هيرتسوغ، ورئيسة حزب ميرتس اليساري الصهيوني، بوصفهما ممثلين للتيار العلماني. وألقى كل منهم كلمة مقتضبة أكد فيها على أهمية البحث عن قواسم مشتركة وضرورة تصفية هوة التمييز وتحقيق المساواة وتثبيت الهوية القومية او الدينية او الثقافية لكل سبط.

استطلاع رأي

وطرحت في البداية نتائج استطلاع رأي شارك فيه ١٢٣١ مواطنا يمثلون عينات من الأسباط الأربعة: ٢٩٧ علمانيا، ٣٢٠ متدينا قوميا، ٣١١ حريديا و٣٠٣ عرب. نصف العرب عرفوا انفسهم على انهم من جناح الوسط و٤٦٪ من اليسار و٣٪ من اليمين. أما الحريديم فعرف غالبيتهم (٧٢٪) أنفسهم

يمين و٢٤٪ وسط و٤٪ يسار والمتدينون القوميون ٨٨٪ يمين و١٠٪ وسط و٢٪ يسار. وأما العلمانيون فقد اعتبر ٤٦٪ أنفسهم وسطا و٣٥٪ يمينا و١٩٪ يسارا.

حسب الدراسة التي اجريت قبيل الاستطلاع يتضح انه في سنة ٢٠١٨ سيكون تقسيم الأسباط على النحو التالي: ٣٨٪ علمانيون، ٢٥٪ عرب، ٢٢٪ حريديم، ١٥٪ متيدنون قوميون. عندما سئلوا عن رؤيا رئيس الدولة حول القواسم المشتركة قال ٧٠٪ من العلمانيين انهم يؤيدون هذه الرؤيا وقال ٥٤٪ من المتدينين انهم يؤيدونها، بينما بلغت نسبة تأييد العرب لها ٦٦٪ والحريديم ٥٦٪.

وسئل المستطلعة آراؤهم ما هي أهم ثلاثة مواضيع بالنسبة اليهم، فأجاب العلمانيون أولا تصفية الفقر (٢٥٪) وثانيا الخدمة العسكرية في الجيش (٢٣٪) وثالثا تعلم اللغات والعلوم (١١٪). وأجاب المتدينون: الحفاظ على قدسية يوم السبت (٢٠٪) ثم الخدمة العسكرية (١٨٪) ثم تصفية الفقر (١٧٪). وأما الحريديم فاختاروا أولا تعلم التوراة (٣٧٪) ثم الحفاظ على قدسية السبت (٢٠٪) ثم تصفية الفقر (١٧٪). وأما العرب فاختاروا أولا تصفية ظاهرة العنف داخل المجتمع (٢٨٪) ثم تعلم اللغات والعلوم (١٩٪) ثم وقف سياسة التمييز العنصري وانهاء الاحتلال الاسرائيلي للأراضي الفلسطينية (١٥٪ - ١٦٪).

وعندما سئلوا: عما لا يمكنك ان تتنازل وما الذي يمكن ان يكون لديك الاستعداد للمرونة فيه لكي يتم بناء معسكر مشترك؟ فجاءت الاجابات على النحو التالي: العرب – لا تنازل عن تصفية العنف (٤٣٪)، لا تنازل عن دراسة اللغات والعلوم (٣٥٪) ولا عن انهاء الاحتلال (٣٢٪). ومستعد للمرونة في قضية الخدمة العسكرية او المدنية (٤٠٪) وعن موضوع الاستيطان (تبادل أراض) وفي مسألة عدم تفعيل المواصلات العامة ايام السبت. أما العلمانيون فرفضوا التنازل عن الخدمة العسكرية (٥٩٪) وتصفية الفقر (٤٤٪) وأبدوا مرونة في منع سفر المواصلات العامة ايام السبت وفي موضوع ازالة الاستيطان. وأما المتدينون فلا يتنازلون عن قدسية السبت (٥٨٪) والخدمة العسكرية (٤٦٪) وتعلم التوراة (٤٤٪) ومشروع الاستيطان (٤٠٪)، ومستعدون للمرونة في دراسة اللغات والعلوم (٣٣٪) وفي التمييز ضد المرأة (٢٩٪) وفي المواصلات الشعبية ايام السبت والتمييز العنصري وتصفية الفقر (٢٢٪- ٢٤٪). وأما الحريديم فلا يتنازلون عن قدسية السبت (٨٢٪) وتعلم التوراة (٨١,٥٪). ومستعدون للمرونة في كل شيء آخر.

وسئلوا إن كانوا راضين عن أحوالهم، فأجابوا: العرب – ١٦٪ راضون بدرجة عالية، ٣٠٪ بدرجة متوسطة و٥٤٪ غير راضين. الحريديم – ١٣٪ راضون جداً و٤٧٪ متوسط و٤٠٪ غير راضين. والمتدينون ٣٨٪ راضون جدا و٤٢٪ متوسط وفقط ٢٠٪ غير راضين. وأما العلمانيون فأجابوا: ١٠٪ راضون جدا،

و٣٢٪ متوسط و٥٨٪ غير راضين.

وسئلوا إن كانوا يرون امكانية لانشاء شراكة حقيقية في المجتمع الاسرائيلي. فتبين ان العرب هم أكثر المقتنعين بهذا. وأجابوا: العرب ٤٩٪ والحريديم ٢٣٪ والمتدينون ٤٢٪ والعلمانيون ٤٧٪.

وسئلوا إن كانوا يرون ضرورة في توحيد منهاج التعليم في حال تحقيق حلم الشراكة، فأيد العرب ذلك أكثر من الجميع (٦٥٪) يليهم العلمانيون (٤٠٪) ثم المتدينون (١١٪) وأما الحريديم فـ ٣٪ منهم فقط يؤيدون التوحيد.

العرب أيضا كانوا أكثر من يؤيد الاعلان عن عيد اسرائيلي مشترك في حال نجاح فكرة الشراكة المجتمعية (بلغت نسبة التأييد ٤٥٪)، يليهم العلمانيون ٣١٪ ثم المتدينون ١٦٪ فالحريديم ٦٪.

كذلك كان العرب أكثر المتحمسين للتعرف على ثقافة الآخر (٦٣٪)/ مقابل ٣١٪ العلمانيين، ٢٠٪ المتدينين و١٠٪ الحريديم.

وسئلوا: هل تؤيد أن تفرض المساواة فرضا على وبين الأسباط، فأجابوا: ٦٨٪ من العرب، ٤٧٪ العلمانيين و١٨,٥ من المتدينين و٧٪ من الحريديم.

وسئلوا: هل توجد ضرورة في اجراء لقاءات تعارف تهدف الى انشاء قيم مشتركة في التربية. فأجاب العرب ٨٤٪، والعلمانيون ٦٦٪ والمتدينون ٤١٪ والحريدديم ١٨٪.

توصيات

بعد الجلسة الخاصة بهذا الشأن، أقرت التوصيات التالية:

- ان يقيم رئيس الدولة سلطة لتطبيق الحلم الاسرائيلي بإقامة مجتمع شراكة كاملة هدفها رفع مستوى الحوار بين الأسباط الأربعة لتفادي خطر تمزق هذا المجتمع.
- إنشاء آليات ومناهج للشراكة، بشرط ان لا يشعر أي سبط بأي تهديد لثقافته وميزاته
- الاعلان عن عيد رسمي يحتفل به جميع المواطنين في اسرائيل، يكون مناسبة لتقييم مدى التقدم في تحقيق المساواة ويتم فيه عرض التميز لكل سبط باعتزاز.
- تقوية مكانة اللغة العربية والسعي لتعليمها في جميع المدارس في البلاد.
- العمل على تحقيق المساواة في جميع المجالات لجميع المواطنين، وذلك عن طريق التمييز الايجابي لكل الفئات المظلومة، بما في ذلك تخفيض الضرائب وزيادة الميزانيات.

خاتمة

مؤتمر هرتسليا هذه السنة، ورغم الطابع العسكري الاستراتيجي الذي يميزه، خطا خطوتين كبيرتين في نهجه التقليدي. الأولى في مجابهته للسياسة الحكومية وانتقاداته الشديدة لها، وطرح البدائل عنها، خصوصا في تبنيه مبادرة السلام العربية ودعوته الى استغلال فرصة الأوضاع الاقليمية لتحقيق السلام واقامة علاقات جديدة مع المحيط العربي. فقد أثار هذا التوجه غضب نتنياهو، فألغى مشاركته فيه وأرسل خطابه مسجلا.

والثانية، في دعوته الى المساواة الكاملة للمواطنين العرب وغيرهم من المظلومين والتعلم كيف تقبل الآخر ومكافحته السياسة العنصرية.

فإذا أخذنا بالاعتبار ان المشاركين الاسرائيليين في المؤتمر هم مجموعة كبيرة من العلماء والخبراء الاستراتيجيين وهم مجموعة من السياسيين والعسكريين، الفاعلين والمتقاعدين، الذين ما زالوا يؤثرون على الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فإن أبحاثهم هذه المرة علامة مميزة وربما فارقة. فمؤتمر هرتسليا قام أول مرة في سنة ٢٠٠٠، كما أشرنا آنفا، ليشكل جبهة استراتيجية نخبوية هدفها اسقاط حكومة ايهود باراك "اليسارية" واعادة اليمين الى الحكم، وها هو اليوم يجد نفسه في مواجهة مباشرة مع حكومة اليمين. وإذا كان مؤتمر هرتسليا، حتى في السنة الماضية، قد انتقد حكومة نتنياهو على تخريبها العلاقات مع الولايات المتحدة وامتنع عن توجيه انتقاد لها على سياستها الاقليمية مع المحيط العربي، فإنه يوجه الانتقادات بوضوح لها في هذا المجال ويكاد يقول إنه إذا كان هناك من خطر على الحصانة القومية لاسرائيل فإنه لا يكمن في ايران والعرب فحسب، بل في سياسة الحكومة الاسرائيلية نفسها.

واقع النساء وحقوقهن أثناء العدوان الإسرائيلي على قطاع غزة

دنيا الأمل إسماعيل*

على الرغم من الخبرات السابقة التي اكتسبتها النساء الفلسطينيات خلال تجربتي حرب ٢٠٠٨، ٢٠١١، إلاّ أنّ حرب تموز/ يوليو كانت الأشد قسوةً ومرارةً على الفتيات والنساء اللواتي وجدن أنفسهنّ في صراعٍ مريرٍ من أجل البقاء والحفاظ على أطفالهنّ المروّعين في ظل استمرار انعدام الأمن والشعور المتكرر بالخوف والمعاناة اليومية، وما يزيد الأمر سوءاً أنّ الدمار الشامل جعل أكثر من (٥٠٠) ألف شخص، أي ما يعادل ٢٨٪ من مجمل السكان[١]، نزحوا من بيوتهم إلى مدارس وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين (الأونروا) والمدارس الحكومية، إضافة إلى الملاجئ غير الرسمية كالمساجد والكنائس والمباني غير المأهولة والعائلات المستضيفة، قضوا خلالها أياماً قاسية، مليئة بالمعاناة والحرمان والشعور المستمر بالخوف والتهديد وانعدام الأمان وسبل الحماية، الأمر الذي يضاعف من الأعباء الملقاة على كاهل النساء، في مراكز تفتقر إلى العديد من مقومات الحياة، وغير مهيأة تماماً لتكون مراكز إيواء من المفترض أن تتوافر فيها مقومات الحد الأدنى للبقاء.

وقد استهدف العدوان الذي شنته إسرائيل على قطاع غزة خلال عام ٢٠١٤ المدنيين/ات بشكلٍ كبيرٍ للغاية، وأدى إلى انهيار كامل لمقومات حياتهم اليومية، بشكلٍ لم يسبق له مثيل، ومارست إسرائيل خلاله جرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية، وقد طالت الآثار الاجتماعية للعدوان/ الحرب الأسر الفلسطينية جمعاء في جوانب متعددة ومتشابكة في كثيرٍ من الأحيان، تمثلت في التهجير واللجوء وتفكك العائلات والقضاء على شبكات الأمان والاتصال بسبب التفكك الجغرافي، كما أجبر واقع التهجير والنزوح على انقسام العائلات والأسر في أكثر من مكان، ما أدى في كثير من الأحيان إلى تبدل

* كاتبة وباحثة فلسطينية.

الأدوار التقليدية للنساء والرجال، خاصة في حال عدم قدرة الأب على القيام بدوره التقليدي في توفير الحماية لعائلته وإعالتها، وفي كل الأحوال فإنّ انتزاع المرأة من محيطها الطبيعي، الذي نشأت فيه وتأقلمت مع كل مقوماته، أثر بشكلٍ سلبي كبير على واقع المرأة وعلى إمكانيات قيامها بدورها في الاهتمام بعائلتها وتحقيق ذاتها.

فقد أدى العدوان الإسرائيلي على قطاع غزة إلى تجدد العنف الأسري والعنف الموّجه ضد النساء بشكلٍ كبير لأسباب مركبة ومتشابكة منها أنّ عملية التهجير الواسعة التي تعرض لها سكان القطاع، أدت إلى أن أصبح (٢٨٪) من السكان بلا مأوى، فاضطروا إلى اللجوء إلى مراكز الإيواء الطارئ في مدارس وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين (الأونروا) والتي استقبلت (٢٩٣,٠٠٠) نازح/ـــــة والمدارس الحكومية التي استقبلت (٤٩,٠٠٠) ، إضافة إلى الملاجئ غير الرسمية كالمباني غير المأهولة والكنائس والمساجد والعائلات المستضيفة ويقدر عدد النازحين إليها بـــ (١٧٠,٠٠٠)[٢]. «ويقدّر أنّ (١٠٨,٠٠٠) شخص سيظلون مهجرين على الأمد الطويل نظراً لأنّ منازلهم أصبحت غير قابلة للسكن بسبب تدميرها أو تعرضها لأضرار جسيمة»[٣].

وقد أدى التهجير إلى شيوع مشاعر الخوف والإحباط والضغط النفسي وجميعها قاد إلى وقوع العنف، خاصة تجاه الفئات الأكثر هشاشة كالفتيات والنساء والأطفال وكبار السن والمعاقين/ات في ظل إعاقة -وفي كثير من الأحيان- تعطيل قدرة المؤسسات الإنسانية على العمل ورصد الأوضاع بطريقة آمنة. خاصة في ظل النظر إلى النساء والفتيات كحاملات لثقافة معينة فيعُتبرن مدخلاً للحفاظ على الهوية أمام العدو بانتهاكاته المتعددة للنساء والرجال على حد سواء وبالتالي يصبحن أهدافًا رئيسة للثقافة الأبوية المهيمنة التي تفرض توجهاتها وشروطها بقوة أثناء الحرب. ارتباطاً بذاك التوجه السائد في أيام السلم والذي يشتد التمسك به أثناء الحروب تُستغل النساء بسبب مسؤولياتهن وارتباطاتهن الأمومية، مما يضاعف من تعرضهنّ لأخطار سوء المعاملة[٤].

خلال الحرب تعرضت الفتيات والنساء لأشكال ومستويات مختلفة من العنف نتيجة الأجواء المشحونة بالغضب والخوف والقلق، واكتظاظ المكان بالعائلات من مناطق جغرافية وخلفيات ثقافية متنوعة، وعدم الخصوصية وخوف الأزواج على زوجاتهم وأبنائهم بسبب الاختلاط بين الذكور والإناث في المدارس وقد تراوح العنف الممارس ضد الفتيات والنساء في مراكز الإيواء والأسر المستضيفة بين العنف اللفظي والجسدي والعنف الجنسي، وغالباً ما يكون الزوج هو الذي يمارس العنف ضد زوجته من خلال: " التلفظ بألفاظ مسيئة ومهينة وأمام الجميع ، إضافة إلى الصراخ والنظرات التي تحمل معنى الغضب، ما يضع النساء في حالة ارتباك وخوف وترقب وقلق إضافة

إلى أنها تولد مشاعر الغضب والكره من الزوجة تجاه زوجها.

لقد أثبتت الحروب المتتالية التي تعرض لها قطاع غزة أنّ النساء هنّ الأكثر معاناة وتحملاً للأعباء الجديدة التي تفرضها الحرب وحالات التهجير الناتجة عنها، التي أدت إلى ارتفاع وتيرة العنف الأسري والمشاكل المرتبطة بالحمل والولادة وانعدام الخصوصية وعدم القدرة على الوصول إلى الخدمات الأساسية، ومن ثم تعريض سلامتهنّ الجسدية والنفسية للخطر.

إنّ التمييز والتعرض المستمر لضغوطات مختلفة بفعل هيمنة النظام الأبوي، تؤدي جميعاً إلى تفاقم أوضاع الفتيات والنساء في السلم والحرب على حد سواء وإن ازدادت حدتها وتعمقت في أوقات الحرب، بحيث أصبح العنف ضد النساء ملحوظاً بشكلٍ كبير في أماكن اللجوء المختلفة، وقد عبرت العديد من النساء المبحوثات بأنهنّ تعرضّن لأشكال متعددة من العنف جسدياً كالضرب ونفسياً كالسب والإهانة أمام الغير والقيود على الحركة داخل تجمعات الإيواء سواء في مدارس الوكالة أو في الأسر المستضيفة.

وقد أشارت النساء في مقابلات مع العديد منهنّ إلى تعرضهنّ للعنف في مراكز الإيواء، نتيجة التدافع عند التسجيل واستلام المساعدات واكتظاظ الغرف، وأضفن أنّ أكثر حالات العنف تقع بين الأزواج؛ نتيجة الضغط النفسي والقلق والخوف الناتج عن الاكتظاظ وأفدن إلى وجود التحرش الجنسي بنسب متفاوتة، فيما أشارت أكثر من واحدة إلى أنّ النساء يعانين من حرمان جنسي لعدم الاقتراب من الأزواج وعدم وجود أماكن مخصصة للأزواج في معظم مراكز الإيواء. وصعوبة ذلك في الأسر المستضيفة.

وقد تبين أنّ الخدمات المقدمة من قبل المؤسسات المختلفة تتشابه إلى حد كبير وتنحصر في تقديم الدعم المادي والعيني المحدود والدعم النفسي/ الاجتماعي لفئات وشرائح اجتماعية محددة ، وهي خدمات علاجية أكثر منها وقائية وغالباً ما تتم في أماكن اللجوء وبشكل جماعي قد يحول في بعض الأوقات دون الاستجابة الفعالة لدى بعض الحالات الخاصة التي تحتاج إلى الدعم النفسي الفردي والمستمر. هذا على الرغم من إحجام عدد كبير من الفتيات والنساء عن اللجوء لطلب المساعدة من أحد خارج نطاق الحيز الخاص وهو سلوك مبرر إذا نظرنا إليه في إطار الثقافة السائدة التي تنظر للفتيات والنساء اللواتي يطلبن دعماً ومساندة وحماية من العنف متمردات على الأعراف والتقاليد ينبغي أن يعاقبن.

كما تبين أنّ الغالبية العظمى من هذه الخدمات تركزت حول الإرشاد والدعم النفسي وقد تم تقديمه بعد انتهاء الحرب وليس أثناءها باستثناء عدد محدود من الأنشطة غير المنتظمة.

المقابلة كمصدر للمعلومات عن العدوان الإسرائيلي:

تعد المقابلة مصدراً مهماً للحصول على المعلومات، خاصة في الدراسات الميدانية التي تستمد معلوماتها من الواقع والناس مباشرة

وقد اعتمدت في هذه الدراسة بشكل كبير على المعلومات الميدانية المستقاة من جهات مختلفة على صلة مباشرة بموضوع الدراسة ، كإجراء مقابلات مهيكلة مسبقاً (structured Interviews)، لقدرتها على أن تقود إلى فهم أعمق للعوامل المؤثرة في المشكلة المطروحة، وقد بينت المقابلات النتائج التالية:

١- استوعبت مراكز الإيواء العائلات المهجرة بنسبة (٢٦٪)، فيما كان نصيب العائلات المستضيفة نسبة (٢١٪) والأقارب (١٨٪)، ما يعني أنّ ما يقرب من (٣٩٪) من العائلات المهجّرة لجأت إلى عائلات مستضيفة من الأقارب، الأمر الذي يتوافق بشدة مع الثقافة السائدة في قطاع غزة ،الذي يرفض الخروج من عباءة العائلة الممتدة انطلاقاً من مبدأ الحفاظ على أفراد العائلة خاصة الفتيات والنساء، وعدم القبول بانكشافهن على غرباء مهما صعبت الظروف والتحدّيات، وحتى لو تعلق الأمر بالحفاظ على الحياة. بينما لجأت بعض العائلات بنسبة (٧٪) إلى الجيران من أصحاب البيوت الأكثر أمناً قياساً بغيرها في المنطقة نفسها، خاصة في المخيمات التي تتمتع بعلاقات اجتماعية قوية إلى حد كبير، فيما تدل نسبة العائلات المهجرة ،التي لجأت إلى مناطق عشوائية مختلفة (٦٪) على انعدام الخيارات المتاحة أمامها لأسباب مختلفة.

٢- تبين أنّ وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين استحوذت على النسبة الأكبر (٤٤٪) من إدارة مراكز الإيواء بفارق كبير عن النسبة التي حصلت عليها الحكومة من إدارة مراكز الإيواء وهي (٢٦٪) ما يدل على: أولاً وجود فجوة كبيرة بين حجم ونوعية الخدمات التي تقدمها كلٍ من الجهتين، وثانياً أنّ هذه النسب تتوافق مع التركيبة السكانية لقطاع غزة الذي يستحوذ اللاجئون فيه على النسبة الأعلى من السكان (٦٧٪) أي أنه من بين كل (١٠) أفراد هناك (٧) أفراد لاجئين[٥]، وثالثاً أن سكان القطاع كان لديهم اعتقاد بأن مراكز الإيواء التابعة لوكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين (UNROW) تعد أكثر أمنًا على حياتهم من تلك التابعة للحكومة في غزة. فيما كانت هناك نسبة (١٥٪) أدارتها لجان محلية من المجتمع المحلي كلجان الإصلاح ولجان الأحياء ولجان الزكاة.

٣- على الرغم من أنّ توفير المساعدات الغذائية كان أكثر الخدمات بروزاً في مراكز الإيواء، واستأثر بتقديم هذه الخدمة -كما أظهرت نتائج المقابلات -وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين، وبرنامج الغذاء العالمي، بينما ساهمت بعض الجهات الطوعية الأخرى في توفير هذه المساعدات

بين وقت وآخر حسب قدرة كل جهة على حدة، ولكن بشكلٍ غير منتظم أو مستمر، إلاّ أنّه لم يتم توفير الكميات الملائمة من الغذاء لكل أسرة، والتي اقتربت من الحد الأدنى اللازم لإطعام الأسرة، ، كما تركزت على أنواع معينة من الغذاء كالمعلبات وخلو الوجبات من الخضروات والفواكه وطعام وحليب الأطفال، وغالباً ما يتوقع من النساء تدبير الاحتياجات الغذائية لأسرهنّ وهو سلوك لم يتغير كثيراً أثناء العملية العسكرية الإسرائيلية.

وقد بينت النتائج أنّ المساعدات الغذائية كانت متوفرة في مراكز الإيواء، للنساء بنسبة(١٨٪) وهي نسبة ضئيلة تعكس انعدام الشعور بالأمن الغذائي، ويعود هذا لأسباب متنوعة ، بعضها متعلق بانعدام الشعور العام بالأمان والحماية نتيجة الاحتلال وعملياته العسكرية المكثفة في القطاع، وبعضها متعلق بأسباب من قبيل إعطاء الأولوية للرجال أو لتوزيع المساعدات في أوقات غير مناسبة كتوزيعها في ساعات الفجر الأولى أو ساعات متأخرة من الليل، أو بسبب الاكتظاظ والتدافع والتزاحم على أماكن التوزيع، إضافة إلى أنّ الفتيات والنساء في كثيرٍ من الأحيان، كنّ غير قادرات على السيطرة والتصرف في غذائهن وغذاء عائلاتهنّ كما يرغبن. وقد أدّى التدافع أثناء توزيع المساعدات الغذائية إلى وقوع عنف مركب لفظي جسدي، من الرجال ضد النساء ومن النساء ضد النساء، ووصل في بعض الحالات إلى استخدام أدوات حادّة كالسكين والمشرط بين الرجال والشباب خاصة، نتيجة انعدام التنظيم وعدم وجود الإشراف الكافي.

إضافة إلى ما سبق كان هناك هيمنة من قبل مقدمي خدمة العون الغذائي داخل مراكز الإيواء على المهجرين وطريقة ووقت التوزيع، كما تعرضوا لأشكال متعددة من سوء معاملة من إدارة المراكز والعاملين/ات فيها، ما عكس شعوراً حاداً لديهم، خاصة الفتيات والنساء منهنّ بانعدام العدالة في التوزيع وأن يحظوا بالتقدير وعدم التعرض للإهانة ، وقد تبين من خلال ملاحظات الباحثين الميدانيين/ات غياب مقدمي خدمات العون الغذائي عن (١٢) مركز إيواء من أصل (١٣) مركز إيواء استهدفتهم الدراسة، الأمر الذي يشير إلى غياب تفعيل الرقابة على أداء مقدمي هذه الخدمة داخل المراكز وبالتالي إفلاتهم من العقاب والسماح بتكرار هذا السلوك في كل مرة.

٤- تبين أنّ خدمة الإيواء مثلت الخدمة الأولى التي تلقاها النازحون/ات ، وكانت متوفرة بشكلٍ كبير مع بداية النزوح من الأماكن الحدودية، لكن سرعان ما اشتد الطلب عليها بعد تعرض مناطق كاملة للإبادة ليس في مدينة غزة فقط وإنما في كل محافظات القطاع، حتى وصل الأمر في النهاية إلى عدم قدرة مراكز الإيواء على استيعاب مهجرين/ات جدد. وقد اضطلعت وكالة الغوث بتوفير خدمة الإيواء بشكل منتظم ومستمر، بينما قدمت هذه الخدمة في وقت لاحق بعض المدارس الحكومية وبعض المدارس الخاصة وبعض المؤسسات ولكن بشكلٍ غير منتظم . وعلى الرغم من

ذلك أيضاً فقد مارست بعض مراكز الإيواء التابعة للوكالة تعسفاً في المعاملة مع عدد من النساء والعائلات المهجرّة وقامت بطردهم أكثر من مرة لازدحام المكان أو بسبب هيمنة وتسلط أفراد من إدارة المركز على طالبي اللجوء والحماية.

وأظهرت نتائج المقابلات أنّ خدمة المأوى توفرت بنسبة (٢٠٪) فقط وهي نسبة تعكس مؤشرات مختلفة لانعدام شعور الفتيات بالأمان، في مراكز الإيواء وفي العائلات المستضيفة، منها على سبيل المثال أنّ انخفاض النسبة قد يعود إلى شعور الفتيات بعدم قدرة عائلاتهنّ على توفير الأمن والحماية لهنّ، أو بسبب عدم القدرة على التكيف مع الغرباء وانعدام الخصوصية.

٥- كانت الرعاية الصحية بما فيها الصحة الإنجابية أقل الخدمات التي تم تقديمها للفتيات والنساء، بنسبة (٦٪) فقط ما يدل على غياب خدمات الرعاية الصحية عامة والصحة الإنجابية خاصة عن أجندة مقدمي الخدمات خلال العدوان الإسرائيلي على القطاع، وهو الأمر الذي تكرر حدوثه سابقاً خلال عدواني (٢٠٠٨، ٢٠١٢) كما تدل أيضاً على عدم أخذ الاحتياجات الصحية للفتيات؛ خاصة تلك المتعلقة بالصحة الإنجابية بعين الاعتبار في تخطيط وتنفيذ للخدمات أثناء العدوان . ومن المعروف أنّ الصحة الإنجابية تتأثر بمكانة المرأة في المجتمع ففي كثير من أنحاء العالم تتعرض الإناث للتمييز فيما يتعلق بتوزيع الموارد العائلية والحصول على الرعاية الصحية، خاصة في أوقات عدم الاستقرار والحروب، وللأسف أنّ ذلك تعمّق بشكل كبير أثناء العدوان، وغالباً ما كانت النساء تصمت عن احتياجاتها المتعلقة بالصحة الإنجابية إما لاعتقادها الخاطئ بقلة أهميتها مقارنة بالوضع العام أو لخجلها من الإفصاح عنها أو لعدم معرفتها بالطرق المتوفرة أثناء العدوان لتلبي هذه الاحتياجات الصحية. بشكلٍ عام، أعطيت الأولوية أثناء العدوان للمساعدات الطبية الأساسية اللازمة لكفالة البقاء، وليس لرعاية الصحة الإنجابية، ومن ثم لابد من تأكيد الحاجة إلى رعاية الصحة الإنجابية بوجه عام بما يكفل إدراجها في جميع عمليات تقييم الاحتياجات.

٦- عانى المهجرون /ات من نقص المياه ، ما جعلهم يستخدمون مصادر أقل أمناً، ما سبب لهم أمراضاً مختلفة، وهناك أكثر من (٥٠٠) ألف مواطن، واجهوا مشكلة عدم توفر المياه لأغراض النظافة الشخصية، وعدم وجود إجراءات الوقاية والنظافة الشخصية، فيما كان هناك أكثر من (٦٠٠) ألف مواطن لا تصلهم إمدادات المياه في قطاع غزة، والباقي تصلهم بشكل متقطع، بسبب تعرض خطوط المياه إلى تدمير واسع أثناء العدوان، ما أثر بشكل مباشر على توفر مياه الشرب والاستحمام بشكل يومي ومنتظم، لتوقف أعمال الصيانة أثناء العدوان ، وعدم توفر الكهرباء لتشغيل المحطات[٦].

ارتباطاً بهذا السياق، أظهرت النتائج أنّ النساء حصلنّ على المياه النظيفة بنسبة (١٥٪) فقط وهي نسبة ضئيلة للغاية لا تعكس الاحتياجات الحقيقية ولا تساعد على الشعور بالراحة والنظافة الشخصية والمحافظة على الصحة العامة والصحة الإنجابية.

أنواع العنف التي تعرضت لها النساء أثناء العدوان الإسرائيلي:

كانت أكثر أشكال العنف الذي تعرضت له النساء في مراكز الإيواء كما عبرت عنه المقابلات هو العنف النفسي/ الجسدي، نظراً لغياب الخصوصية وتقييد حريتهن وسوء المعاملة التي تعرضنّ لها من قبل إدارة مراكز الإيواء وتعرضهنّ للإهمال، وعدم التكيف مع المكان وكانت هناك إفادات غير قليلة حول عنف النساء للنساء نتيجة النزاع على الطرود الغذائية والمشكلات العائلية. وكان اللجوء إلى أحد أفراد الأسرة في حال تعرضهن للعنف المكانة الأولى بنسبة (٢٨٪) وبنسبة (١٥٪) لكل من الشرطة والمعلم/ـة، و(١١٪) منهنّ لجأن إلى صديق/ـة ، (٧٪) منهنّ لجأن إلى عاملات في مجال المساعدة الإنسانية، (٢٪) منهنّ لجأنّ إلى وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين، (٩٪) منهنّ لجأن إلى جهات أخرى مختلفة كلجان الإصلاح ومديرة مركز الإيواء وعاملات النظافة.

مدى توفر آليات الحماية للنساء أثناء العدوان على القطاع:

لقد أرغمت النساء الفلسطينيات على ترك بيوتهن وتشريد أسرهنّ وتحمل مخاطر القتل والإصابة، إضافة إلى المشاعر المؤلمة التي شعرن بها نتيجة خوفهنّ على أنفسهنّ وأطفالهنّ، على الرغم من تمتعهنّ بالحماية بموجب القانون الدولي الإنساني، الذي يحمي الأشخاص المهجرّين بصفتهم مدنيين من آثار الأعمال العدائية[٧].

على المستوى الفلسطيني يشكل البيت المكان المركزي في الحياة الفلسطينية ، والحاضن للعائلة والأسرة، وهو بالنسبة لهم مصدر الأمان والحماية والاستقرار والارتباط بالأرض ، والبيت هو مكان المرأة الأول في الثقافة الشعبية الفلسطينية وعند المرأة الفلسطينية تحديداً، لذا فإنّ خسارة البيت تؤثر بشكل كبير على المرأة ، وتجعلها تخسر الكثير جداً من شعورها بالأمان وقدرتها على توفيره لأسرتها في الوقت الذي تتحمل فيه المزيد من الأعباء الإضافية الناتجة عن غياب المنزل و ما يوفره من جهد في الوفاء بالتزامات المعيشة اليومية من مأكل ومشرب وملبس وشعور بالراحة وقدرة على التواصل والاستمرار .

لقد جعلت (العدوان) /الحرب الأخيرة على قطاع غزة أكثر من نصف السكان خارج بيوتهم،

عدد كبير منهم اضطر للعيش في مدارس الأونروا حتى امتلأت تماماً ولم يعد هناك مجال لاستقبال المزيد والبعض الآخر لجأ إلى أقاربه وجلهم من متوسطي الحال اقتصادياً، فيما لم يجد جزء كبير مكاناً سوى الساحات العامة والحدائق مكاناً يلجأون إليه في هذه الحرب القاسية فتوزعوا في ساحة مستشفى الشفاء والكنيسة الكاثوليكية وحديقة ساحة الجندي المجهول وحديقة جامعة الأزهر وغيرها من الأماكن العامة.

لقد أصبحت النساء بين ليلة وضحاها في العراء ، بلا مأوى ، بلا رعاية، بلا أمان على أنفسهنّ وأسرهنّ، في انتظار المجهول والموت والضياع، في ظروف أقل ما توصف أنها بالغة الصعوبة.

لقد فقدن الشعور بالحماية والأمان بفقد بيوتهنّ، واضطررن للعيش في ظل ظروف الحد الأدنى من العيش سواء كان ذلك في مدارس الوكالة، والتي أصبحت تعرف بمراكز الإيواء، أو في الأسر المستضيفة التي كانت هي أيضاً تعاني من ظروف الحرب بطريقة أخرى ناتجة عن استقبالها أعداداً كبيرة من النازحين في قنوط من العيش والاقتصاد المدمر الذي ترك آثاره السيئة على مجمل تفاصيل حياتنا اليومية.

لقد عبرت النساء بشكل عميق عن عدم شعورهن بالأمان والحماية في ظل بيئات غريبة عن بيئاتهنّ الأصلية، ما اضطرهنّ إلى القبول بأنماط من العيش لم يعتدنها . ففي مراكز الإيواء كان الاكتظاظ الشديد يفقد بعضهن الشعور بالإنسانية ويفقدهنّ أيضاً الشعور بالأمان في ظل العيش مع أناس لا يعرفنهم ، وكان الاختلاط بين الجنسين واحدة من الهواجس التي ظلت تشغل بال كثير من الأسر وشعورهن بالخوف على بناتهم وإمكانية تعرضهنّ لاعتداء ما. كما أن ضعف وجود شروط السلامة والحماية داخل المدارس ضاعف من الشعور بالخوف والقلق وانعدام الحماية خاصة في ظل غياب رقابة منظّمة وفاعلة وسوء تعامل الإدارة وكان عدم توفر الخدمات بشكل عام سبباً في عدم شعورهن بالأمان كانقطاع الكهرباء أو بعد المراحيض وعدم وجود أقفال محكمة لها وعدم وجود سواتر بين الأسر داخل الغرف ، ووجود أكثر من أسرة غريبة في غرفة واحدة. كما أنّ غياب وجود المؤسسات الرسمية الضابطة عن المشهد اليومي أثناء الحرب، أشاع أجواء من الشعور بالفوضى وإمكانية التعرض للأذى في أي وقت .

إن قراءة متأنية في واقع وأحوال الأسر الفلسطينية بمن فيها النساء والفتيات اللواتي تحملنّ الكثير من المعاناة الناتجة عن استمرار وتعميق النظرة التقليدية للمرأة أثناء الحرب فكانت الفتيات والنساء مطالبات دائماً بالطاعة العمياء والبقاء في الغرف أو ارتداء الحجاب في أوقات طويلة جداً نهاراً وليلاً وعند النوم وهنّ دائماً ما يوجب عليهنّ أن يتحملنّ الضغط والشعور بالقهر الذي يشعر به الرجال ما

فاقم من شعورهنّ بالاغتراب والوحدة والشعور بالاضطراب النفسي والحاجة إلى العزلة.

إنّ كل يوم جديد في الحرب هو يوم مؤلم للنساء الفلسطينيات يحمل مزيداً من التعب والجهد والأزمات المعيشية والنفسية، هو يوم آخر من أيام عدم الأمان التي ستتحايل عليها بطريقتها لمواصلة الحياة بأقل الإمكانيات وبصمت وشعور دائم بالقهر ربما يلازمها لسنوات طويلة ما بقيت العودة إلى البيت حلماً بات بعيد المنال.

المصادر:

١- أوتشا، تلخيص للتقييم الأولي العاجل متعدد القطاعات في غزة.

٢- المصدر نفسه.

٣- المصدر نفسه.

٤- اللجنة الدولية للصليب الأحمر ٢٠٠١ (ICRC ٢٠٠١)، و(صندوق الأمم المتحدة الإنمائي للمرأة ٢٠٠٢ (UNIFEM ٢٠٠٢)

٥- الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني، بيان صادر بمناسبة يوم اللاجىء الفلسطيني

6- http://www1.wafa.ps/arabic/index.php?action=detail&id=180024

٧- البروتوكول الثاني الإضافي لاتفاقيات جنيف الأربعة.

المراجع:

١- برنامج عمل وإعلان بكين، المؤتمر العالمي الرابع للمرأة، بكين، الصين، ٤-١٥ سبتمبر/ أيلول ١٩٩٥، شعبة الأمم المتحدة للإعلام العام، ١٩٩٦.

٢- القرار ١٣٢٥ الصادر عن مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة بعنوان" النساء والسلام والأمن" ٣١ أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠٠.

٣- أوتشا، تلخيص للتقييم الأولي العاجل متعدد القطاعات في غزة؛

٤- المرأة العربية واقع وتطلعات، ١٩٩٥

٥- الصليب الأحمر الدولي، نساء يواجهن الحرب، شباط/ فبراير ٢٠٠٩.؛

٦- الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني، مسح العنف ٢٠١١؛

٧- www.wafa.ps

٨- البروتوكول الثاني الإضافي لاتفاقيات جنيف الرابعة؛

٩- اتفاقيات جنيف الأربعة لعام ١٩٤٩؛

١٠- المؤتمر العالمي لحقوق الإنسان لعام ١٩٩٣؛

فلسطين: أشواق الزيارة المغربية الثانية

أحمد المديني*

وأنا أجلس الآن، بنية كتابة فصل جديد، ليلحق بكتاب سابق" الرحلة إلى بلاد الله، تليها الرحلة إلى رام الله، دار الأمان، الرباط، ٢٠١٥"، تتنازعني خواطر وأفكار شتى. أولاها أني أتساءل: هل من الضروري أن أكتب هذا الفصل؟ وأي إضافة يمكن أن يحملها، خاصة لكتاب صدر وحقق غرضه، وانتشر، وأحدث صداه المطلوب لدى القراء، مما يبتغيه كل ناشر، ويطمح له الكاتب. ثم أعود فأرى أن هذا التساؤل ينطوي على ما يُزكِّي، بل يحفز بقوة، على الإضافة ومزيد الإضاءة والقول القصد، المفيد في الموضوع المخصص له.

أعني ما دوّنت في الكتاب المشار إليه. كنت كتبت تلك الرحلة ساخنة، حية، بمجرد الانتهاء منها والعودة إلى بيتي، فيما ملايين الفلسطينيين ما زالوا بعد انصرام عقود، ينتظرون بشبه يأس، وإن لم يفقدوا الأمل بتاتا، حق العودة إلى ديارهم. غادرت رام الله، عبورا في طريق الإياب من أريحا، ومكاتب العبور الإسرائيلية عند جسر اللّنبي، ومنه إلى عمان مباشرة، وأنا شبه محموم، وأقرب إلى حالة المخاض(كناية لما تعيشه المرأة جسديا، طبعا)، عليّ أن أضع حملي، ثم أرتاح، هو أثقل من الاستمرار في التنقل به إلى أن يخرج وحده، وفي الوقت عينه أرفض له الولادة القيصرية، قد أحببت أن يأتي مستويا، حسن الخلقة، لا تشوبه شائبة، أحسب هكذا جاء، واحتفت به عيون ونفوس. إنما لا بد أن أعترف بأني كنت مغمورا بالحماس، قلبي ونفسي في غليان، ومشاعري معلقة بزمان ومكان كنت فيهما، ما غادرتهما إلا مضطرا، بينما عقلي في عطلة مؤقتة، ما لي حيلة في المشاعر التي جرفتني وملّا ينطفئ أوارها، أنا ابن أمتي، من رضع من ضروعها الأصلية لغةً وحَسَبا وتاريخا وعقيدةً، وتربى بين أحضان محبتها والإخلاص لها بغير حساب ولا بحثا عن ثواب. أنا ابن النزعة العربية القومية في فطرة وجودها، ثم نضج وعيها، حتى ولا

* كاتب وروائي مغربي.

وزر لي في خسارتها ، تبرعمت منذ نُكبت الأمة بضياع فلسطين في ١٩٤٨ ومضت تكبر وتتفتح في نمو وغليان، بثورة الضباط الأحرار في مصر سنة ١٩٥٢، قد أرست قواعدها، وأعلنت شعاراتِها وبرامجَها، سواء راسخة أو فضفاضة، فقد شخّصت وتمثّلت هياكلَ ومؤسساتٍ وإيمانَ شعوب وتصميمَ أجيال، رغم أنها صُفعت صفعة قوية في النكبة والنكسة الثانية(حزيران١٩٦٧)، ورغم تكالب الاستعمار الجديد وسماسرته على أوطاننا، صرنا نُمنَى خسارة بعد أخرى، يتحالف ضدنا حكامنا قد وضعوا يدا بيد مع مستعمري أمس وصاروا أعضاء في بورصة تجارة واستغلال شعوبهم لا حُماةً لها ومحررين. بينما ظلت فلسطين بأرواح شهدائها، وبإرادة أبنائها المخلصين تكافح من أجل حقوقها، قضية شعبها، فوق ترابها وفي كل الآفاق تسمع صوتها وفي محافل الدنيا لتنتزع شرعيتها، بينما هي متجذرة في وجدان الأمة، بالرغم من كل من وما تكالب عليها، حتى إن البعض حولها خصما لا مطلبا، يراد لها أن تصبح نسيا منسيا، متقاذفة إما بين الوعود وإما المؤامرات، كلتاهما من ضرب واحد، حتى لأضحت حلما في الكرى، من ينادي باسترجاعهما، ولو بقصيد شعري أو بيان حزبي، قبل خراب الأمة وضياع الأحزاب، عُدَّ مثاليا قل الأدهى، أصيب ـ يا للويل ـ بمَسٍّ من جنون!. وإذن، فأنا وكثير من أبناء جيلي من المثاليين المؤمنين بحقوق أمتهم، وخاصة بعدم التنازل عن شبر واحد من ترابها المغتصب، أحببنا ونحب فلسطين، وحين أتيحت لي فرصة زيارتها كدت أخرج عن طوري فرحا، أما وأنا قبالة مسجد الصخرة، يعلم الله صرت في طور آخر لا إسم له، أنظر حولي للمكان، للناس، بمنتهى الذهول،، وما أزال!

* * *

في الزيارة الأولى، كانت المناسبة الحضور مع وفد مغربي للمشاركة في معرض الكتاب الدولي لفلسطين، المنتظم في مدينة رام الله، وقد اختيرت دولة المغرب ضيف شرف لدورة المعرض الجديدة، مما يقف القارئ على تفاصيله في كتابنا الأول. فيما الرحلة الثانية، أنعتها بالأجدّ والأوْكد، فهي التي أتاحتها لي وزارة الثقافة الفلسطينية بدعوة ضيافة لحضور المعرض العاشر للكتاب في رام الله(٧ ـ ١٧/ ٠٥/ ٢٠١٦)، مع كتاب وشعراء عرب غيري. والسؤال الآن، ما الذي يا ترى استجدّ بين زيارتين، لأخصّ الثانية، الأخيرة بوقفة مستقلة، تأملا وإحساسا وكتابة، لا سيما ولا جهة تطلب مني تقديم تقرير أو وصف لهذه الزيارة؟ أليس الاحتلال الإسرائيلي هو ذاته، لا بل يستفحل ويتسع في غرس مزيد المستوطنات ، ويستشرس في عمليات أكبر لقمع الفلسطينيين وانتهاك أبسط حقوقهم؟!. أليس وضع السلطة الفلسطينية الحاكمة في ما لا يزيد عن ٢٢ في المائة من مجموع التراب ذاته كما كان، صامدة في وجه الاحتلال، متصدية لأطماعه المتزايدة، متشبثة بحقوق الشعب الفلسطيني ما وسعها الأمر، فيما هذا الأخير متعنتٌ في موقفه، ويمينه المتطرف يمنع أي تطور يسمح بالدولة الفلسطينية بحقوقها المشروعة، في مقدمها حق العودة؟ ولكن، في الوقت نفسه، ألسنا نرى بأن هذه السلطة والشعب

بقواه الحية وجماهيره في الداخل الفلسطيني تحديدا، بين المدن والمخيمات، عنوانها وعنفوانها تشبثها بالأرض رغم كل أشكال التنكيل والتضييق التي تمارسها سلطات الاحتلال الإسرائيلية، قد حولت الضفة الغربية إلى سجن كبير، تتحكم في مداخله ومخارجه؟ بلى حدث هذا وأكثر، نرى الشباب يمنحون أنفسهم فداء للوطن، يقدمون أجسادهم، وحدها آخر ما يملكون، سلاحهم السكاكين وحدها، بعد أن عزّ الكفاح المسلح، يُقتلون،، يموتون فُرادى، ليأتي الصهاينة بعد سحق جثامينهم ليدكّوا بيوت أهلهم دكّا، وازعُهم، كالعادة، الانتقام ومحو الأثر العربي. بيد أن الأهول من كل ما حدث ويستفحل، هو أن قضية فلسطين، تبدو اليوم، وكأنها في آخر كل منازعات وقضايا الاحتلال في المحافل العربية والدولية. ففي مساحة الخراب العربي الهائل والمثير، بأشكاله كافة، سقطت فيه أنظمةٌ وتهشّمت دولٌ وتتداعى خلاله مؤسساتٌ وتتشرد شعوبٌ بأكملها، وتفنى أجيالٌ، طفولات وشبيبة، أمةٌ كلها تتحول تقريبا إلى قوافل للاجئين، ومن ينجو من هذا الخراب كأنه مؤجل لميقات، وحتما إلى وبال وزوال؛ وما فلسطين، إذن، كانت، وتبقى اليوم، قضية صغيرة، همٌّ من بين هموم في المساحة الشاسعة للخراب العربي، ولا ما ينبئ غدا ببشارة؛ أي فلسطين؟! يقول الواقعيون الجدد، كل ما في الأمر أن باقي الأنظمة والشعوب العربية تلتحق بماضيها، أي بنكبة ١٩٤٨، وتتجرع مزيد هوان، وقد برق بسرعة شهاب أمل، تسمّى الربيع العربي، فرحتم به، وحسبتم أنكم تزفون الثورة إلى بلدانكم، والديموقراطية ستطلق لها النساء الزغاريد، و، و، لا شيء، هي مجرد خيبة أخرى، تضاف إلى خيبة ضياع فلسطين، وشعوب أخرى تشرد كما تشرد الذين من قبلهم. هذا كل ما هنالك، أم أنه منتهى المقت والسخرية ؟!

* * *

لا يفوتني، بعد هذا، أن أذكر سببين إضافيين لا يقلان عندي وجاهة مما أسلفت، لكتابة فصل جديد عن رحلتي الجديدة إلى الأرض الفلسطينية المباركة. أولهما، قلت لنفسي، إني أريد أن أقوم بزيارة ثانية، بعد أن تخفّفت في الأولى من ضغط التوقعات والوساوس بأنواع، فذا من طبعي، وأن أنظر إلى الواقع بمنظار ما هو أمامي بتقدير معقول، لا مبالغة ولا تهويل. أذكر أني كنت مشتعلا حماسا ونحن نخوض الطريق إلى فلسطين، ينبغي أن نسميها، ونكرر التسمية دائما ونكف عن إسم الضفة، حتى ولو لم يبق لنا منها غير شبر، فهي فلسطين، التراب، والوطن، عند بابها جسر الملك حسين، تدور برأسي، ربما في رؤوس صحبتي في الطريق، أيضا،عشرات السيناريوهات من التوقعات والاحتمالات، مطبوعة كلها بالسوداوية والثبور، فليس لك أن تتوقع من مغتصب أرضك أن يستقبلك بالأحضان ولا الورود؛ توقعات من قبيل إمكانية العبور من عدمه، وعلى أي صورة سنجتاز الحدود المفروضة، حدود يتحكم في المرور منها الإسرائيليون بمفردهم، رغم أنها تفضي مباشرة إلى تراب(territory) السلطة الوطنية، الحق والعدل والقانون أن يكون الفلسطينيون هم شرطة حدودها وأفراد

جمركها، هم وحدهم من يسمح ويجيز الدخول والخروج، العبور والمنع؛ سيناريو آخر عن ما هي سحنات هؤلاء اليهود الذين نصبتهم القوة جندا وحرساً، من سيستقبلوننا، لكدت أتخيل لهم هيئات غير آدمية، استقيها من أفلام الخيال العلمي(science fiction) وأدير في رأسي وسمعي ما لا أذكر عددا من اللغات وما يخرج من أفواههم من عبارات أو ينطبع على وجوههم من تقطيبات وشكوك، فنحن العرب عندهم مشبوهون سلفا وإرهابيون بقوة احتمال صاعقة؛ ثم بعد هذا وذاك، ماذا لو منعني هذا الرهط من العبور، لأي سبب، إذن سأعود خائبا، لا، ماذا لو حبسوني، بوسعهم أن يجدوا أي مبرر، هو لا يعدمهم، وهم على صلة بمخابرات العالم كلها، وعندهم جهاز الموساد يعد من بين أقواها، وبإمكانهم تلفيق أي تهمة وادعاء، وغيره كثير خامرني من أسوأ توقع واحتمال، فبيدهم الحل والعقد، لذلك لا عجب أن رأسي وأعضائي تغلي على مرجل، وأقول ويوصي مرافقنا الفلسطيني، السّمح، الصبور، المدرب على المكان والموقف والمتعاملين؛ يوصينا ويعيد بأن نلزم أكبر قدر من الهدوء والحكمة والتعقل، وكأنه استحى أن يضيف: والخنوع، إن اقتضى الأمر، لأجل قضاء الحاجة، لم يقلها لكنه همس: هكذا هم اليهود، وزدت: وهكذا نحن العرب، لا نملك إلا أن نستسلم، أليس كذلك؟!

أما السبب الثاني للإقدام على كتابة الفصل الجديد، كما أسلفت،، فرأيته في نوع وثيقة السفر، ظهر لي أنها، كما تتوفر لديّ، هي بطبيعتها امتياز لا يحظى به رفقة سفري. ذلك أن العبور من الأردن إلى التراب الفلسطيني يحتاج فيه العرب، أصحاب الجنسيات العربية تحديدا، إلى وثيقة ترخيص، والسلطة الإسرائيلية هي التي تمنحها أو تمتنع، بعد أن تقدم جهة التنسيق أو مصالح الارتباط الفلسطينية طلبا بذلك. وكبير عديد الفلسطينيين وغيرهم لم يحصلوا على هذه الورقة الذهبية، أو يقضون سنوات في انتظارها لينتقلوا إلى الداخل الفلسطيني لزيارة ذويهم فقط، لا للإقامة بتاتا، إذ هي محدودة زمنيا بدقة. كنت في زيارتي الأولى شاهدا على هذه الحالة ساعةً بساعة، عندما وصل وفد المغاربة إلى العاصمة الأردنية، حيث نزلنا في فندق غران مارك، ومنه يُفترض أن ينطلق موكبنا، بعد أن تصل التصريحات، طبعا. لم أكن، من ناحيتي، أحس بأي قلق، لا يشغلني أدنى همّ، قال مرافقنا الفلسطيني أنت معفى من التصريح، وستمر مثل النسمة، بناء على الجواز الأوروبي الذي أتوفر عليه، ثم نظر إلى الآخرين، ممن لم يصل تصريحهم بعد، أما أنتم فستنتظرون، ونحن على اتصال مستمر لهذا الغرض. في مساء اليوم نفسه تقرر أن تنطلق المجموعة الأولى، مكونة إضافة إلى المغاربة من مصريين وعُمانيين وتونسي. كنا نحن الغادين مبتهجين، قد أخذنا حقائبنا إلى مخرج الفندق استعدادا للانطلاق، وبغبطة ظاهرة، يمتزج معها أننا، نعيش في الحقيقة لحظة حرجة. رفاقنا الآخرون، نرنو إليهم جالسين، هناك، في زاوية من بهو الفندق الواسع، قد تجمعوا

ينظرون إلينا، كأنهم ليسوا منا، أو نحن غرباء عنهم ،لا شك الحسرة تأكلهم، ونحن الأسف يعصرنا، أيضا، ولا حيلة لنا في الأمر. لم يكن موقفا مريحا بتاتا، أيّ فرز غريب هذا يقوم به الإسرائيليون، وما هي معاييرهم لقبول هذا ورفض ذاك أو تلك، هذه الغربلة. ثلاث أديبات كُنّ بدورهن ينتظرن على أحرّ من جمر، ورغم ما حاولن إبداءه من بِشر على وجوههن ما استطعن إخفاء خيبة تفضحها ملامحهن، لم يخفف منها سوى أنهن ثلاثتهن ما زلن، وربما يبقين، متساويات في مصيرهن، محرومات من التصريح، وكذلك كان. وصلنا إلى مجمع / معسكر العبور- سبق أن وصفته في كتابي من قبل ـ فرأينا العجب، مررنا جميعا أخيرا وبتفاوت في الوقت والمعاملة والمقت وحتى التنكيل النفسي؛ ما همّ. أنت إذ تعبر تعتبر أنك فُزت، وتنسى ما كنت فيه قبل دقائق، تحس بك محظوظا قياسا بسواك؛ هي فلسطين، ومن أجلها كل شيء يهون.

قلت لمخاطبي، وقد تلقيت الدعوة الثانية، الشخصية هذه المرة، لحضور معرض الكتاب الدولي الفلسطيني في رام الله، إني سأستخدم جوازي المغربي، وهو ما يقتضي عندئذ طلب التصريح، قلت هذا أعلم بأني أغامر، إنما بيقين أني، سواء تمكنت منه أو مُنعت، فسأتساوى مع بني جلدتي، ولا أحس بأي فرق أو امتياز مغشوش إزاءهم لحملي المفتاح السحري، الجواز الأوروبي. أريد أن أجرب المجازفة هنا، معه احتمال المنع بأثره على النفس، وأرى كيف تجدك مقصوص الجناح وأنت في وطنك، فبلاد العرب أوطاني(كما زعم الشاعر)، الفلسطيني الذي يعيش في أرض الضفة الغربية، حيث تسود السلطة الوطنية، ولو سيادة ناقصة، ممنوع، مثلا، من زيارة القدس، وهي على مرمى حجر، تسمع أكثر من واحد يعلنها ويعيد بتفجُّع لا طاقة بتحمله، بينما الأوروبي، أو حامل جوازه، تراه يصول ويجول في هذه الأرض التي اغتصبها بنو صهيون حيثما وكيفما يشاء. وأعترف أني وقد حصلت على التصريح وركبت الباص من مدخل الفندق في ظهيرة يوم ٨ أيار(مايو) ٢٠١٦، مع إخوة مغاربة وعرب باتجاه جسر اللنبي، ومنه إلى الوجهة المقصودة، بدأت رحلة مختلفة عن سابقتها، ربما قررت أن أجعلها تختلف، كي لا أحس فيها بأي ملل، حالة من سيعيد مشاهدة ما فات. وهذا بعض ما سأحاول نقل مجمله، صورا ومواقف وخطرات في هذا الفصل الإضافي، أتمنى أن يغتني به كتابي السابق عن رام الله، ويتجدد، وأنا أهتدي بالحكمة اليونانية القائلة عند هراقليطس (٥١٣ ق م):" إنك لا تسبح في النهر مرتين لأن مياها جديدة جرت فيه".

* * *

في ظهيرة اليوم الموعود، ها أنذا أصل إلى النقطة الإسرائيلية للعبور. عند الاقتراب منها، صرت أهوِّن على رفقتي الأمر. أقول لهم هي جملة إجراءات، على ويلها وفظاظتها، وتنتهي، ونحن إثرها نمر. لم أتوقع مفاجآت، اللهم أن تكون المعاملة قد زادت سوءاً عن ذي قبل، عن ما رأيت في الزيارة الأولى.

وخاب تقديري، وجدنا أمامنا، أولا، بعد نزولنا من الباص، وجررنا أمتعتنا، لا طابورا فحسب، بل حشدا مُتجمعا باكتظاظ شديد أمام شباك وحيد، ينبغي أن يتسلم منه كل مسافر، عبر شق كجحر فأر بطاقة مرقمة، حسب عدد حقائبه، بطاقتان، ثلاثة. إنما، كيف الوصول إليه، حتى ولو مُسختَ فأرا، وربه، كإله، منتصب فوق كرسي مرتفع خلف شباك دونه أسلاك، شاب أشقر بشعر كثٍّ، كثيف بجدائل، ضوضاء عالية، وأجساد تعجن بعضها بين تدافع وتداخل، وهو ينظر إلى الجمع ـ الكتلة المعجونة من عليائه، بأي تعالٍ، كنخّاس يسوم عبيده وإماءه، المحظوظ من وصل أمامه يدفع إليه الجواز ويعلن عدد متاعه، ليمد له البطاقة أو زيادة، أو كما رأيت يستنكف ويزورُّ عنه، وعن الجمع الضوضائي كله، متشنجا ورافعا كلتا يديه في الوجوه، معبرا عن اشمئزازه بتقطيب وتجعيد جبينه ووجهه، لم أر من قبل امتعاضا مماثلا، وحين تنتهي هذه الوجبة يستأنف تسليم البطائق بتقتير شديد، تراه يحب أن يتلذذ وهو يرى الجمهور العربي ينبطح ويتعثر وحتى يتباكى لا فرق عنده بين الرجال والنساء، والأطفال الرُّضّع، وكبار السن، تضيع المراعاة واللياقة، وحسن التربية، أيضا، في هذا الجمع الهجين، من هذا اليهودي القادم رسولا، قيل، من أصقاع تزعم الحضارة والرقي والتهذيب، ومن تبقى من العالم بعده، بعدهم، وحوش وسقْط بشر، كأنما خرجوا سهوا من أرحام أمهاتهم إلى الوجود!

حتى إذا ربطت البطاقة الممنوحة بمنة شديدة بحقيبتك، وسلمتها إلى عمال عرب، يتكلفون بأخذها، وأنت محاصر بينهم،ـ بعد أن تنفحهم ـ إلى جهاز مراقبة إلكتروني، يصبح عليك أن تلج قاعة تشبه بأبوابها وشبابيكها وحراسها ومفتشيها ما تراه في الأفلام الأمريكية من قاعات مداخل السجون ـ فتحس بمغص في جوفك، وصدأ في حلقك، تزيغ عيناك منك لحظة لترتدا إليك كي تواجه العاجل، أي أن تلقي ما تبقى بيدك، حقيبة يدوية هي أو أي حمل آخر، إلى الحزام الدائري لفحص إلكتروني، وتمر، كما في سائر المطارات اليوم من باب المراقبة، وأنت وحظك كذلك. عبرت بلا أي مشكل. بعدي مباشرة، من ورائي، علقت فتاتان في الممر. أوقفتهما شرطية إسرائيلية من عمرهما،ـ كل شرطتهم وحراسهم على الأغلب شباب ـ وطلبت منهما ابقيا هنا، بعد أن أزاحتهما جانبا كأنهما جانيات أو إرهابيات، تقع عليهن نظرات الواقفين والعابرين، بين سياط وتشكيك وشفقة ومخاوف، وهما أيضا امتلأتا كما حكين لي لاحقا بالخوف والقلق، صرن يتساءلن هل فيهن أو عملن ما يثير أي شُبهة في حياتهن، أو ما شاكل. بعد وقت، أخذتهن الشرطية اليافعة، وأدخلتهن مخدعا خفيا عن الأنظار، وأمرتهن بنزع ثيابهن كاملة، وطفقت تتحسّس بآلة بيدها لحمهن، لم يبق جسدا بل تحول تحت آلتها إلى عجين يتمطط ويتقلص حسب إرادتها ووازع الشك والشُّبهة عندها، حتى إنها جلبت قفازا ودفعت أصبعها في أماكن حساسة، ونحن، تقولان، نتلقى معاملتها بصبر ندرك أنها يمكن أن تتذرّع بأي شيء لتطردنا إلى حيث جئنا، فينجح بهذا مخططها.

بعد أن وضعت حقيبتي اليدوية لتنزلق في حزام المراقبة، مررت تحت الباب لأتلقفها من الجهة الأخرى، من حسن حظي لم يرن الباب، لسبب من الأسباب. هنا كان شرطي أو حارس، فارع الطول، يقف في مخرج الحزام، وإذ أمدّ يدي لسحب الحقيبة يقذفني بنظرة احتقار كاملة، قد استبشعَ وجهه، وتكلم أو نبح، لا فرق، ميزت بصعوبة من ثقب هو فمُه ما يعني تقزُّزُه بدعوة لي أن أتحرك أو أبتعد أو أسحب شيئي وأختفي، هو ما جعلني أنقلب إلى كتلة صماء خرساء، لا أفهم، لا أسمع، لا أتكلم، كل ما أفعل هو مواجهته عنادا بالنظر، وتوقع أي احتمال، لا أبالي بأي عاقبة، قد فهمت اللعبة، واللعبة هنا لدى هؤلاء الحراس المتحرشين، والشرطة الإسرائيلية عموما هو أن تشعرك إلى أقصى حد بالقرف، الندم، وتغيظك بأقصى درجة، تنال فيها الاحتقار وتشعر بالصغار، لكي تندم على قدومك، وتقسم بأغلظ الأيمان، مؤمنا كنت أو كافرا، أنك لن تعيد الكرّة، لن تعود إلى زيارة هذه الأرض مطلقا. فإن شئت أن توقن بأنك لم تخطئ التقدير، وتتأكد من نوايا هي في الحقيقة لا تحتاج إلى تأكيد، تعال معي، وقد انتهت مواجهتي مع الحارس المقرف، واجلِس إلى جانبي تؤانسني وأنا آخذ دوري لكي أتقدم نحو شباك آخر، لشرطة الحدود، كي تراقب جوازي، لا أضمن لك مدة الانتظار: دقائق، ساعة، ساعتان، رغم أن فضاء المكاتب شبه فارغ، وها رؤوس العاملين، العاملات، ناتئة من خلف الزجاج، أمامي عربي، فلسطيني، واقف كالصنم، رأسه مُنكّس، بهيئة الذليل، وسيما المهزوم، المستسلم لقدر لا قِبل له بردّه ولا منازعته، والشرطي أمامه، ينقل بصره بين الجواز أو الوثيقة أمامه، من خلف نظارتيه، عيناه ثابتتان، ووجهُه أصمّ بلا تعبير، لا يكلم " المتهم" قبالته، هو متهم حتى تثبت إدانته، يزرع الشك وألف سؤال في نفسه، سيتجاوز الموقف هل يسمح له بعد أن قضى ما لا يذكر من وقت ومكابدة كي يحصل على التصريح، ويقيم الأعراس في قلبه بأنه أخيرا ها هو سيرى الوطن الذي ُطرد منه جدُّه أو أبوه في نكبة ٤٨؛ الموقف الأعظم الآن، هو أن يفلت بجلده، ما يدريه أن تُلفَّقَ له تهمة، أن هناك من جمع معلومات، أو وشى به لدى هذه السلطة المحتلة، بأي فعل لا يَذكر أو يعلم أصلا أنه اقترفه، من الخلف أتصور أن جبينه ووجهه ابتلّ عرقا، وأنا من الخلف أرى قميصه فعلا صار بليلا، واختبارُه الأصعب أن يظل مغروسا في وقفته كالرمح، لا ينبغي لوجهه أن يشيَ بأي خوف أو قلق، سيتيح بهما لمواجِهه أن يتمتع أكثر بإطالة أمَد وقوفه وتساؤلاته الحارقة، أن يبلغ به ذروة نشوة التنكيل!

كنت هو، ولم أكن أنا في آن، وقد حان دوري. استنفدت قلقي قبل الوصول عند الشباك، بحساب أن ليس لي ما أخسره مع القوم. أعاد الشرطي، وهو بلباس مدني، التمثيليةَ عينَها، بتغيير طفيف، حين قدمت له جوازي مرفقا بالتصريح، استغرق ينظر أو يقرأ فيهما، وأصابعُه كما أقدّر ترقن على أزرار الحاسوب، لعلها تسعفه بمعلومات(خطيرة)عني، تحبط مخطط دخولي(تسللي) المشروع والعلني

إلى التراب الفلسطيني، فأعود خائبا ألعق أصابع الندم، قد أضعت مالي، ووقتي، وخصوصا أهينت كرامتي، إن بقيت منها فضلة، ها ! زاد في الطين بِلّةً، إذ التفتَ إلى زميلته بجانبه وهي تعالج ملفا مثله، تهامس وإياها، متظاهرا أنه يُطلعها على ورقتي، شيءٌ من هذا القبيل، وهي بدورها تشاركه اللعبة المقيتة، تظاهرت بأنها تستجيب لما يطلب فتُمعن النظر في الملف، وتستأنس بالهمس، ولكي تتقن الدور جيدا رسمت، كبهار وملح، ابتسامةً مصطنعة، انتهى معها السكتش الملفق، وأنا مغروس كالرمح في وقفتي، إنما ولأغيظ مواجهي قطعت نفَسي، وأشحت عنه تماما، يحاول أن يتصيّد عينيّ أو أي نظرة عابرة مني إليه، ولا يظفر بها، ثم يتظاهر بنسياني مُسقطا بصره على ملفي ، أو أي شيء من هذا القبيل، ليعود يرفع وجهه تجاهي كمن يرغب في التثبت من سحنتي يقارنها بالصورة في الجواز، يفعل ويكرر، وأنا ثابتٌ كجبل، متسلحٌ بقوة لا مبالاة، آليت على نفسي أن أتصدى له بها، مهما كلفتني، بل إني أخذت أراوغ عينيّ بنظرات أبعثرها يمينا وشمالا في المكان، أُفهمه أن لي رباطة جأش لن أتخلى عنها، ولن يحقق نشوته بالبلوغ معي ذروة متعة الإهانة والتنكيل المطلوبتين من هذه المعاملة، قبل أن يضع، أسمع الختم يطبع فوق ورقة بيد تهتز عاليا وتسقط عيناه لا تبرحانني كأنهما مقصلة، هو تصريحي أخيرا، وهذا هو المهم، لا الوقت أذكر كم قضيت، ولا الحقد كم راكمت، ولا الكراهية المُصوّبة من نظرات رشّاش صامت الطلق تلقيت؛ تصريحي أخيرا يمده إليّ من فجوة الشباك مع جوازي، وأنا أُبدي له أني لا أبالي، لا، لن أنسى ولا أبالي حتى إني أشكره بهدوء وأنصرف، ها!

* * *

دخلنا رام الله في أول الليل، وإذ بها من أشعة أضوائها، وقوة مصابيحها، وحركة سياراتها، وتنقل البشر فيها، نهارٌ في نهار. كأنما تعمّد سائق باصنا أن يولِّد عندنا هذا الانطباع. أدخلنا إلى المدينة من طريق الجنوب الغربي، الطويل، والذي يخترق مخيم قلنديا وموقعها الخانق المؤدي إلى معبره الشهير، ومنه إلى مدينة القدس. تجاوزت الساعة التاسعة، والمحلات التجارية مفتوحة، وصخب الباعة والعابرين إلى عنان السماء، خُضنا في الأزقة الداخلية، ووقعنا في مأزق الزحام، سيارات على مدِّ البصر، سألنا هل من حدث أو احتفال، فسمعنا لا، المدينة هذا حالها ليل نهار، ياه،عدا القاهرة، فالمدن العربية تنام بتوقيت الدجاج، وتدفعك للتثاؤب مع أول المغيب. لولا حقيبتي لنزلت في منتصف المرور. قلت لراكبٍ إلى جانبي، إني ظمآن يا صاح، وطقس الليلة دافئ، ثم تنبهت لأهمية الانضباط، فأنا ضيف، ينبغي أن أبلغ الفندق أولا، وأسلم على من سيستقبلنا، ويحمد لنا السلامة، وبعدها لي أن أفعل بنفسي ما أشاء، أقصد، حسب الإمكان، كما كنت أفعل مع رفقتي المغاربة في الزيارة السابقة، نقوم كل ليلة بغزوة إلى عنوان، ونكتشف أن عاصمة السلطة الفلسطينية فيها

من لا ينام، يُقبل على الحياة، بالحماس نفسه الذي يُقدم فيه شباب ومقاتلون على الاستشهاد، من أجل الوطن.

من زيارتي الأولى، أحسست أنك لا تحتاج إلى إقامة طويلة هنا لتقترب من رائحة الناس وتقيم علاقة بالمكان، إنها مدينة تُؤلف، وما يؤلف يطيب العيش فيه والعين تقرّ به والبقاء أوكد وأنسب من التنقل إلى سواه. هذه أرضٌ لا تُستبدل بأي شبر آخر، فكيف وهي اليوم رمز، عاصمة مؤقتة لوطن، وطنٌ جله محتل، وهي عامرة فيه، مزدهرة، هامتُها عالية، وسكانُها يذهبون إلى شؤون أعمالهم، كالتلاميذ والطلاب إلى مدارسهم وكلياتهم، وكلٌّ إلى شأنه يسير كقوم جادين، قد يحسبهم القادم إليهم من خارج أن أوضاعهم طبيعية، وليسوا تحت عنَت احتلال غشيم، لذلك وإذ يمكث هذا الوافد قليلا ليرى ما ينبغي ويصحّ أن يرى، سيندم إن كان تطاول على هؤلاء القوم، أو تفلسف بالشعارات والكلمات التي لا تكلف شيئا أكثر من لسان يلوكها بتنطّع ورتابة مملة. الواقع، سواء أحببته أو نفرت منه هو الحقيقة الوحيدة تواجهك، تشمّها، تفركها كل لحظة بين يديك في انتظار أن تقبض على الحقيقة كاملة، لو أمكن وجودها. ذا بعضُ ما ظهر لي وأنا أتنقل في الأرض الفلسطينية المتاحة أن الفلسطيني يقبله ويتعامل معه صامدا فيه بفكرته وحقوقه المشروعة التي لا تقبل التنازل، ويعطي في كل ساعة للمحتل الغاصب، وللعالم أجمع، صورة الشعب الذي يعرف ويستحق أن يعيش، ويُقبل على الحياة، إذا ما استطاع إليها سبيلا، كما جاء على لسان شاعره وشاعر العرب أجمعين محمود درويش. في رام الله تتحقق من صدق وعمق، وأيضا من فطرة هذا القول. من الصباح إلى أن تنطبق آخر الجفون، الحياة في رام الله ضاجّةٌ، مُفعمة بالحيوي، تنساب في الكلام الودود والرأي السديد، في الكدح، في الحب والصبر، بين الشعر والنثر، الشدّ والجذب، وتبقى الإرادة ثابتة لا تخنع، يموت المحتل غيظا تقول نموت هنا ولن نركع.

والحياة التي جئنا من أجلها في هذه الزيارة، وأنا أسميها صلة رحم، وأنزِّهُها عن أي صفة من الصفات التي ينعتها بها العُمي، البُكم، الذين لا يعقلون، أو يعقلون فقط ما توسوس لهم به أفكارهم السياسية المريضة، فيما هم المتقاعسون ـ هذه الحياة لها من بين عناوين كثيرة وكبيرة، الكتاب، هذا الذي تحتفل رام الله بعيده، كل عامين. من حاجتها، ونقصها، وطعامها ونومها واللائحة الطويلة لمطالب أهلها، فوق تربتها وتراب فلسطين كلها، تجتزئه منها، أثَرةً، لتخصصه لإقامة معرض للكتاب، أُسوةً بباقي العواصم العربية، أو ما تبقى منها على الأقل. يُفترض أن تتحول في هذه المناسبة إلى قطب جاذبية، أن تتسابق بلدان العرب إلى المشاركة الفعالة في هذه المناسبة الفريدة وأن يكون حضورها دعما لقضية الشعب الفلسطيني، بأبعد من حسابات السياسة ومناورات الكواليس والولاءات الظرفية، لكن هذا من أسف لا يحدث، أو من جهات قليلة، ومنها

المغرب الذي حلّ في المعرض السابق ضيفَ شرف، والكويت التي خلفته عامنا هذا، وهي مبادرة محمودة، يشعر بها الفلسطيني ويحتفي رمزيا أنه غير معزول، أن هناك من يكسر قضبان الزنزانة الكبيرة التي حبستها فيه إسرائيل، ويمعن عرب متعصبون بحشرهم فيها بزعم محاربة التطبيع(مع العدو الصهيوني، يقولون، وحكامهم معه جهارا وسرا يفاوضون، ومثقفوهم ومناضلوهم (الكبار) على أمريكا حاميها الأكبر يتهافتون. فأي بهجة وبشاشة على وجوه مضيفينا، من مدخل الاستقبال في أريحا، وامتدادا إلى حيثما حللنا، أحضانا وترحيبا وعناية، ما لا تلقاه في البلدان المرسخة سيادة، المتمكنة مالا وشوكة.

ولجت معرض الكتاب، الواقع عامنا هذا في مساحة شاسعة، عند سفح التلال الغربية للمدينة، يتكون من أربع فضاءات، ثلاث منها لدور النشر، والرابع للقاءات الثقافية. وهو ما لا يعد هينا على الأطلاق، إذا علمنا أن الدور المشاركة تنتظر طويلا إلى أن تحصل على التصريح(الإسرائيلي) لإرسال كتبها وممثليها، وهي تصاريح تصدر ب(التقطير) أو تمنع ببساطة، دون أي تفسير، أضف إلى هذا التكاليف. لذلك فإن الدور التي تشارك تجني من حضورها الرمزي والتضامني أكثر من أي شيء آخر، علما من أن حقها البيع والربح أولا. وبوضعيتها الصعبة استطاعت أن تحمل وتعرض كمّا لا بأس به من العناوين والإصدارات الحديثة جدا، تجاوبا مع حاجة وتعطّش قراء متوفرين، يحجّون إلى المعرض من المدن والبقاع الفلسطينية، قريبة وبعيدة، ومن غزة أيضا، كلما أسعفهم المحتل بترخيص المرور. هكذا، وبفضل هذا المعرض، بوُسعك أن ترى كيف يصبح الكتاب، ليس خير جليس في الزمان كتاب، على قول المتنبي، فحسب، بل زد عليه، مناسبة للقاء أبناء الوطن الواحد، فرّق بينهم المحتل، وباعدت بينهم الجدران الأمنية، العالية، الواقية لأمنه. فمن يافا وحيفا والناصرة والجليل وكل البلدات المقيدة اليوم في ما يسمى دولة إسرائيل، توافد الزوار، الرجال والنساء وكثير من الفتيان، سكنوا عند أهلهم أو في الفنادق، أكثر من يملأ قاعة المحاضرات، ويسأل ويناقش متعطشا لأي جواب، ما نسوا ثقافتهم، هم المحسوبون في عداد عرب ٤٨، أي من حاملي الجنسية الإسرائيلية، ولم أر دليلا قاطعا لفشل المشروع الصهيوني كما عندهم وبحماسهم، وصمودهم، والدليل الذي يقدمونه كل فرصة على حُر فلسطينيتهم. حين تطوف بأروقة وأجنحة معرض الكتاب، وتقابل العارضين، أغلبهم أصحاب دور النشر أنفسهم، وتختلط بالزوار، صباحا وظهيرة وعصرا ومساء، يتوافدون، وبما تيسّر يقتنون، وتنتبه للندوات واللقاءات المنظمة بموازاة هذا، يحضر فيها المدعوون من خارج الضفة ومن أبناء المكان، باحثون وأدباء وحتى فتية وشباب ناشئون؛ حينئذ تقتنع أن الثقافة سلاح قوي في معركة الفلسطيني بالداخل، لا تقل نجاعة عن الأسلحة الأخرى، وهي تشحذ مزيد صمود وتشبث بالأرض وحقوق أبنائها، أمس واليوم. لكم فاجأني عدد دور النشر الفلسطينية

في الداخل، بين مدن الضفة الغربية وفي يافا وحيفا، بأفخم طباعة وأجود مادة، مثلما اغتبطت لعدد المواهب يزحَم بعضها بعضا في سائر فنون الأدب، من أسف يبقى حضورها على الأغلب محصورا في الداخل، كجزء من الحصار الشامل المفروض على الفلسطينيين. حصار يكسره الراميون والحيفاويون واليافاويون بكل الوسائل، لا تعجب إذ ترى نوادي الثقافة ومجالس الأدب والسمر والطرب تنتظم هنا وهناك، والمواهب وسطها تتفتق، ستحتاج أن تضبط إيقاع وقتك وميولك كي تحسم أين تسهر ليلتك في رام الله، تستمتع وتستفيد وتنهل من معين محبة وجَوْد دافقين بلا حساب، فإنك هنا فعلا في حضن الأحباب.

* * *

بيد أن رام الله، مهما أعطت وبذخت، مهما جادت وتبرجت، شمسها دافئةٌ وأشجارها وارفة، تحبها وتحس أنك تتأرجح صعودا، هبوطا، بين تلالها وسفوحها، لا يؤذيك قبح أو ينفّرك منها نفاية، النظافة طبعٌ في أهلها، مثل الحديث الهامس والابتسامة المفروشة تستقبل الزائر؛ أقول رام الله تبقى كأنها مدينة حدودية، لأن المقيم فيها، والوافد إليها، همُّه وشوقه وأمله، أن يعبر إلى الجهة الأخرى، القريب الذي جعله الإسرائيليون بعيدا، أقاموا جدار الفصل العنصري بارتفاع تسعة أمتار، ادّعوا أنهم يحمون أنفسهم وأرضهم (التي اغتصبوا، طبعا) من الإرهاب، ليظهر تعريف جديد للإرهابي معناه من يطالب بأرضه، مثل الفيتنامي أمس في وجه الأميركان، والجزائري في وجه فرنسا الاستعمار، وأي احتلال كان لأرض الغير. الجهة الأخرى، هي القدس، والقدس عند المسلمين عامة هي المسجد الأقصى وقبة الصخرة كما الكعبة عند الحاج، الطواف حولها أول المناسك وجوهرها، رؤيتها تخشع لها الأبصار وتضطرب الأفئدة ويطير العقل حتى لثمة من يحب أن يبقى ملتصقا عندها بأستارها، لا منطق هنا إلا ما تراه، ولن تفهمه إذ تذهل النفس عن نفسها، وإلى الصخرة القبة، تُرى في الطريق السّيار، وأنت ذاهب من رام الله إلى بيت لحم، مشعشعة، تخطف البصر، وبمجرد رؤيتها تفيض معها الخواطر، الديني والموروث والمكبوت والإحساس بغبن المحتل وبؤس الحاضر، والإلهي المقدس يجلل هذا كله، وتراك من حيثما امتدت الطريق تطوف بها، أو إن البصر يرتدّ إليها، وهي لن تغيب عن ناظرك لأنها سكنته، لن تزول، ستلاحقك وتلاحقها إلى أن تصل إليها وتصبح قبالتها، وتنضوي تحتها أخيرا، وتبقى لا تصدق، أهي أم هي أم؟!

هل أحتاج إلى القول بأن الشوق يكون على قدر المشوق إليه، وبقدر الجهد المطلوب للوصول إليه. وكذلك القدس. هي المبتغى الأصعب بالنسبة للفلسطيني المبعد. ممنوعٌ عليه زيارتها، أصبحت جزءا من أرض إسرائيل بعد احتلالها سنة ١٩٦٧، في النكبة الثانية، إلا بترخيص، الحصول عليه، بالنسبة للبعض، ضرب من المستحيل. يسري المنع على العرب الزائرين لأراضي السلطة الفلسطينية،

لم يُسمح لهم بالدخول إليها، بالعبور، كما أسلفنا، إلا بتصريح من السلطة الإسرائيلية، وهذا الزائر العربي، لا يقرّ له قرار ولا يهدأ له بال، مذ يعبر، إلا بزيارة القدس، وبحث السبل والحيل وأي إمكانية لتحقيق هدف هو كحج البيت الحرام، إن لم أقل أكثر، ما دام الحج على تكاليفه وقرعته اليوم متاح وممكن، في ما يجيب المضيف الفلسطيني كل راغب، متوسل، متلهف من ضيوفه، أنه شبه محال. يخفف منه حتى لا يحس الضيف بالقنوط، وتَسوَدّ في عينيه الإقامة، سيحسب إقامته هنا بمقياس الربح والخسارة، الروحية طبعا، بينما ليس للمضيف حيلة، أيّ حيلة له مع عنت الاحتلال؟!

في زيارتي الأولى لم (أحمل)هذا الهمّ، إذ عبرت بجوازي الأوروبي، يسمح لي ـ بثمن استنطاق طويل ومجهري في(المعبر الحدودي الإسرائيلي) بالتنقل حيث أشاء، من الأرض التي تحكمها إسرائيل، من ضمنها القدس، غيرَ معنيٍّ سلفا بحديث السفسطة عن(التطبيع) من عدمه، تاركا هذا الترف لهؤلاء(الشجعان) ممن يعيشون في الوقت الضائع برفاهية أكبر، لا أملكها ولا طاقة لي بتبعاتها. فضلا عن أني لا حق لي بالمزايدة على أصحاب الأرض، هم من يملكون الحق المطلق، أولا وأخيرا، في خوض أي طريق وبأي وسيلة لاسترجاع حقوقهم، وأنا معهم ولهم نصير. جئت هنا، ولبّيت الدعوة مرة ثانية، لأعبر عن هذه النُّصرة وسأواصل كلما استدعى الأمر ذلك، وأسعفتني صحتي وإيمان لا يتزعزع بمناصرة أشقائي. أما وأني عبرت بجوازي المغربي، العربي، فالأمر اختلف، والقدس، ما أبعدها الآن، تظهر دونها شوك القتاد. قلت في نفسي، وفي اليوم التالي، وأنا أتحايل على نفسي، قد اعتراني الندم، يا أنت ما لك وجواز العرب، بينما جواز الغرب كمصباح علاء الدين، الآن هيت لك. التفتُّ يمينا وشمالا، أرى الشاعر الشاب ياسين عدنان مثلي متحير، وإلى جانبه صنوُه التونسي سامي الذيبي، معا يضربان أخماسا في أسداس، يسألان، في حيرتهما يتساءلان، كيف الوصول إلى القدس وما لهما في الأمر حيلة، أقترب منهما أحاول أن أهوِّن عليهما ما يشبه (المصاب) يا الأصدقاء لنغنم أولا من حاضرنا في رام الله ما يتيسر والقدس لها إن شاء الله مدبر حكيم. وتفرقنا على خطة أن يناور كل من جانبه ليتيسر المرام. ومن جهتي، قلت أتمسك بالسيدة البتول، من الفريق المسؤول عن إقامتنا وتنقلنا، دائمة الحضور في فندق (غران بارك)، وهبها الله حسنا أخّاذا، لم أر في أي منتدى إنسانا أكثر منها بِشرا وسماحةً ورحابةَ صدر وتهذيب لسان، يفيض بالكرم ويعد بكل خير، لا تقلق، وأنا متربص بها حيثما تحركت، حاجتك مقضية بإذن الله، وهي تتصل بمن يعنيهم الأمر في إدارة المعرض، وخارجهم، وفي نهاية اليوم الثالث من الزيارة تزفّ لي البشرى، غداً تصبح جاهزا في العاشرة صباحا، فأخِفّ إلى الشاعرين الشابين أبشرا يا متيميْن، هي القدس غدا في الإمكان.

* * *

قبل العاشرة حضرت جاهزا إلى الموعد. وجدت البتول قبلي مستنفرة، أخبرتها أننا سنكون في مغامرتنا ثلاثة: ياسين عدنان، وعبد الغني نسيم، وعبد ربه، أما الشاعر التونسي فقد تدبّر أمره لغير جهة، ولم أستغرب منه ذلك، لاحظت أنه مبتلى بالتخفي والأسرار كأننا هنا في إقامة سرية، وللناس مذاهب. عبد الغني مسؤول دار الأمان المغربية للنشر فاجأني صباح يومه، إذ قال، أنا أيضا سأصاحبكم، فاستغربت، أعلم حرصه للإشراف على رواقه في المعرض، لا يغادره من أول افتتاحه حتى أوان الإغلاق في التاسعة ليلا إلا ليقتات لُقيمات في الثانية ظهرا ويؤوب إليه في الحين، كأنه في معرض فرانكفورت أو مونريال! قال إنها القدس يا أخي تستحق كل التضحيات، صحيح أني زرتها مرة، ولو تأتّى أزورها مرات" أولى القبلتين وثالث الحرمين"، صادقاً لهج بها الرجل، أعرف إيمانه ليس له حدود. نادت بتول، قد افترش محياها ابتسامة بطعم يوم مشرق جديد، هيا يا شباب، ضحكنا طبعا بامتنان لهذه المجاملة، وتبعناها نغادر بهو الفندق ونقف ببابه مستنفرين مثل تلاميذ سيأتي الباص المدرسي لينقلهم، وفي الحين وقفت سيارة صغيرة من نوع رونو، نزلت منها سيدة متوسطة الطول، أميل إلى السِّمنة، حنطية البشرة، شعرها منفوش قليلا، وصوتها غطى سريعا على أي صوت، كنت قد علمت أنها صحافية من طاقم المعرض، ومناضلة أباً عن جد(سأسميها ن) جلس ياسين إلى جانبها يناسبه الكرسي الأمامي ليمد فيه ساقيه الطويلتين، جلسنا عبد الغني وأنا في الخلف قانعين. وهوب، انطلقت السيارة، ومعها نون كأنها تذيع نشرة أخبار عاجلة ومنذرة واستثنائية، لها موضوع واحد، وحيد، كيف ستتدبر أمر الدخول بنا إلى القدس، ونحن بلا تصريح، كيف لهؤلاء اليهود أن تعمى لهم الأبصار؟ كيف وكيف؟؟ كان سلاحها و(سحرها) أنها من ساكنة حيفا، وبالتالي ترقيم سيارتها في إسرائيل، ولكن هذا لا يكفي. إنما أول الاحتياط هو تجنب معبر قلنديا ومحاولة العبور إلى زهرة المدائن من المعبر الآخر الخاص بساكنتها، أكثر سيولة وهي من هذه الساكنة أيضا، لا ننبس بنت شفة مع إخبارها وحدوسها ووسواسها، وهي تضرب الحسابات، أخذنا نقترب من (اليهود) كما تسميهم، وهي تلعن هذا الزمان الذي يحتاج فيه الفلسطيني أن يلعب الغمّيضة ويتخفّى بألف طريقة ويناور لكي يدخل إلى مدينته ويلتقي أهله، ويزور مقدساته، و، و،

وما رأيكم يا شباب لو قرأنا الآية:" وجعلنا بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون"، لم يكن لديّ أي اعتراض على هذا الاقتراح، فالقرآن يسري في صدورنا نحن المسلمين من المهد إلى اللحد، ما لم يمنعني من تنبيهها وهي تصادق في الحين بأن الطريق وكل موقف هنا مُفخّخٌ بكاميرات المراقبة، وهذه لا تنفع معها الطلاسم ولا التعاويذ، ناهيك عن يافعين، من فصيلة مراهقات يهوديات شقراوات، مجلوبات من السويد والنرويج، أصابعهن وأصابعهم سبّابتها على الزناد، لكل من تُسوِّل له نفسه العبث بالأمن والنظام لدى العبور، لا أريد أن أخيفكم، تضيف نون،

ولكن هذا هو الحال هنا مع اليهود، لا نأمنهم ولا يأمنوننا، نحن محقون لأنهم محتلون، أما هم فلا حق لهم في ما يفعلون، وتشتم، تشتم، لا كلمة منا، هي امرأة لسان، صوتها الرعد والهزيم، وشدّوا يا شباب أحزمتكم، لن نوفر لهم أي فرصة لإيقاف السيارة، واظهَروا طبيعيين، ياسين إلى جوارها رفع عينيه إلى السقف في لا مبالاة، كأي مراكشي يمشي متباهيا في شارع جيليز، عبد الغني وأنا أخذنا نتجاذب أطراف الحديث، كاثنين لا يعنيهما الخارج، فيما السيارة في الطابور تقترب من دورها، واحدة وراء الأخرى، فما بعدها، فجأة، صدفة، يقفز الجندي أبعد من حاجزنا ليتدخل لأمر ما في حاجز الخروج، ويشير بيده إلي اتجاهنا نحن الذين في حاجز الدخول بإشارة الموافقة على المرور، بتزامن مع حركة نون قد ضغطت على الدواسة ترافقها شتائم أرسلتها بكرم حاتمي أغدقتها خلفها متسارعة كطلقات رشاش أو كلاشنكوف!

ما أجمل أن تزور مكانا بحس وشروط المغامرة، منهوشا، متقاسما بين المحاذير والتوقعات. في زيارتي الأولى إلى القدس لم أكن أخشى شيئا عدا كيفية ووضع معبر قلنديا الذي مررت فيه راجلا بسلاسة منقطعة النظير، ولما خرجت وجدت باصا صغيرا ركبته مع غيري بثمن بخس أوصلنا إلى محطة النقل في القدس الشرقية، غادرتها ومضيت أمشي رفقة فتاة مقدسية كانت تنتظرني لتعرّفني على المعالم الكبرى للمدينة، زرتها على عجل، الأقصى والقبة والأسواق، دخولا وخروجا من باب العامود، وعدت إلى رام الله كأنما بخُفي حنين. أما الآن، رفقة نون، فإني قررت أن أقتص لنفسي من اختصار الزيارة الأولى التي مرت في ظرف غير مناسب كان الجنود الإسرائيليون يطاردون فيه الواصلين إلى الأقصى، بينهم يهود متطرفون يعادون المصلين المسلمين، أنا بينهم والبنت المرافقة خافت عليّ من بطشهم، فاستعجلتني كثيرا، وصرت أنا من يخاف عليها، ونحن نركض بعد لأي في أزقة ملتوية، وحوانيت التجار نعبر أمامها تغلق أبوابها تباعا اتّقاء شر المهاجمين. قررت أن أقتص هذه المرة، فأزور الأقصى والقدس العربية كاملة بنفَس هادئ، وعين فاحصة، وذاكرة تسجل، وقلب بارد، أكاد أقول، إذ حقدي على هؤلاء المحتلين في المرة السابقة أعمى بصري، وزاد مع فورة ذهولي بالوصول إلى هذه الأرض المقدسة، غلا الدم في شراييني سمعت معه نبض قلبي يكاد يشق صدري، وكنت أمشي كمن يتحرك بين الأرض والسماء، لا الأولى أطأُها ، خاصة وأنا أمشي حافٍ ضاع حذائي، ولا أنا ينبت لي جناحان فألتحق بمحمد صلى الله عليه وسلم في إسرائه والمعراج. رفقتي كذلك رأيتهم، أحسست بهم متلهفين، الحاج عبد الغني أولنا لو استطاع لطار رأسا إلى المسجد الأقصى، وقبة الصخرة أولا، عندها وقفنا في البداية بعد أن أذِن لنا الجنود الإسرائيليون المراقبون للزقاق بالعبور نحو المسجد، تسمعهم يرطنون بلهجات شتى، ويبدون ودا سمجا، لا بد أن تمسك أعصابك كي لا تنفجر في واحد منهم، ذاته من يرفض أو يسمح لك بالمرور لزيارة مقدساتك، ينظر في عينيك

وأوراقك بصفاقة بلا مزيد، ولا تملك إلا أن تصابر وتكابر، كي تفوز بخير الدارين.

مرة، وفي إحدى شطحاته اللا تُحصى، صرح العقيد معمر القذافي، وهو في ذروة سلطته الجماهيرية، معلقا على تشبث الفلسطينيين بالقدس عاصمة للدولة الفلسطينية؛ صرح بأن المسجد الأقصى وقبة الصخرة ليسا أكثر من حجر، فإن ذهبا يمكن تعويضهما بالبناء في مكان آخر، هكذا يمكن حل جزء من النزاع الفلسطيني ـ العربي الإسرائيلي. لم ينتبه، لم يفطن العقيد بالأحرى لمعنى الرمز وقيمته في ثقافة الشعوب ومخيالها، وما كان لأحد من مقربيه أن يعترض على هذه الفتوى المجنونة، من شخص، كيف، يعتبر نفسه فوق الرسل، وكتابه الأخضر في مرتبة الكتب السماوية. لم يفكر هو نفسه لماذا لم يعتبر أن إصراره على البقاء في ثكنة العزيزية، إنما مبعثه، على حد زعمه، تحدٍّ للأمريكيين الذين هاجموها وحولوها قاعا صفصفا؛ وبأن عناده لاستقبال ضيوفه تحت الخباء ونصب خيمته حيثما حل وارتحل، إنما أراد به رمزية التشبث بأصلة وبداوة ما، في مواجهة الحداثة الغربية، التي يعاديها زعما، لم. أقول هذا، وأنا أتطلع لقبة الصخرة، ولا أريد أن أتزحزح بعيدا عنها، أحب أن تبقى في مرمى بصري تشعشع بلونها الذهبي، كأنني إن أشحت عنها، والتفتُّ ستختفي إلى الأبد، ويزول الرمز، نظرتي المبجلة بالإجلال والقداسة هي كل شيء، ولم يكن بوسعي أن أشرح هذا المعنى حينه للمناضلة نون، رغم كل حماسها لوطنها وما يزخر به من تراث مقدس. مثلي، ربما أكثر، وجدت الحاج عبد الغني، واسمه لا بد أن يقترن بهذا اللقب، إذ عدا حجّاتِه، فهو يعتمر كل عام، وفي مكة والمدينة يحلو له أن يقضي عطلته السنوية، طوبى له. أبى الحاج إلا أن ننزل إلى جوف الصخرة ونصلي ركعات، وقد فعلت، لكنه أطال، ولم أستطع أن أقطع عليه صلاته وتهجّداته، وكذلك في المسجد الأقصى، وكأنه يعاتبني لاستعجالي له، تحدث قائلا، من يدري متى سيتاح لي الصلاة مرة أخرى في هذا المكان الطاهر، وأغمض عينيه وهو يتلو الآية:" سبحان الذي أسرى بعبده..". كنت من رأيه وفي صميم شعوره، لولا أن أمامنا أماكن مقدسة أخرى لا بد من زيارتها، وهي مجتمعة متجاورة هنا، وفاتني في رحلتي الأولى الوصول إليها، بعد أن داهمنا الجنود واليهود المتعصبون، فتبعثرنا هاربين !

* * *

تقدمت الزعيمة نون أمامنا، ياسين عدنان متلهف للوصول إلى باب المغاربة، خففت من حماسه، دا كان زمان، طبعا، ففي الهجوم الإسرائيلي سنة١٩٦٧ سوّى اليهود الحي المغربي أرضا، ولم يبق إلا الباب شاهدا ورمزا لزمن فات. لم يفتر هذا من حماسنا، مشينا مسرعين لنقف أمام الباب ونأخذ خاصة صورا تذكارية تحت الإسم المنحوت على بلاطة من فخار أصفر، وبخط رقعي:" باب المغاربة"، وهذا موقف لم يكن العقيد القذافي الذي لم يكمل شارعا واحدا بمعنى الكلمة في جماهيريته الغوغائية،

فأنّى له أن يفهم قيمة ودلالة الرموز. في هذه اللحظة، وتحت هذا الباب القوس، التهبت في النفوس المشاعر، وامتزج الحزن بالضيم، بالفخر والاعتزاز، أيضا، أننا نحن المغاربة كنا هنا، وهذا بابُنا، وحبنا وإخلاصنا للقدس ليس طارئا، أقواه التزامنا القومي بقضية فلسطين، مثل أي فلسطيني، وربما أكثر.

عبرنا باب المغاربة، وتذكرت يهود المغرب الذين عاشوا معنا قرونا، أهل الحضر والمَضر، في السهل والجبل، كانوا جميعا مغاربة بلا قيد أو شرط، يبيعون ويشرون، ويمارسون طقوس ديانتهم كما يحبون، وخلال الحرب العالمية الثانية، والحملة النازية ضد اليهود، وجدوا في الدولة المغربية، وملكها، رغم تواطؤ المارشال بيتان، حماية لهم من الاضطهاد، لكن الصهيونية كانت بالمرصاد، فتعبّأت لترحيلهم بعد استقلال المغرب، وفي نهاية ومطلع الستينات بدأت هجرتهم الكبرى إلى أرض ميعادهم إسرائيل، أو إلى فرنسا ومنها إلى دولة صهيون، وعن هذه المرحلة كتب الشاعر المغربي الراحل أحمد المجاطي قصيدته التراجيدية" إكزوديس" كناية عن السفينة الشهيرة بهذا الإسم وتسخيرها لترحيل اليهود سنة ١٩٤٧. توقفنا عند بوابة إلكترونية تفحص المارة القادمين إلى الرمز اليهودي الأكبر، "حائط المبكى". مشينا خطوات، وإذ هنا خليط من سياح أوروبيين، ونحن في موطئ أرض مرتفع، تحته سلسلة درج طويلة تنزلق إلى فسحة أرض واسعة تنتهي عند سور كبير وطويل، مرتفع، هذا هو حائط المبكى، قلت لعبد الغني، هل يغريك النزول إليه ويدي بيده. وقفت نون خلفنا غير معنية، فهي تعرف هذا المكان وأصحابه حتى التخمة وأزيد، فبدت لا تبالي، تضرب شمس قوية وجهها تعرضه لها كأنها في حاجة إلى هذا اللفح بينما وضعت نظارتين كبيرتين على عينيها وبشعرها الكثيف، ببعض خصلاته المنفوشة، بدت مثل ممثلة ستؤدي وشيكا دورا وهي على ساحل جزيرة كريت، وقد تعجبت أنها لزمت الصمت تقريبا في هذا المكان، إلا لمعلومة أو إشارة، ثم اختفينا عنها صرنا ننزل الدرج، ياسين يتقدمنا بشبابه الغضّ وحبه الجارف للتعرف، وفجأة ها نحن نراه في ما يشبه ورطة. أنهى النزول في الدرج المؤدي إلى الحائط، مباشرة أمامه حاجز خشبي هناك حارسات يقفن خلفه، وهن يمددن الزوار، كل زائر، بطاقية، الكيباه، ليضعها على رأسه، صغيرة، بيضاء، تحفزت والحاج، ننتظر كيف سيتصرف ياسين إزاء هذا الموقف، وبالطبع، فإننا استبعدنا حقا أن يقبل بوضع الكيباه جوازا للمرور، وفي الوقت تساءلنا ماذا ترانا سنفعل بدورنا إن رغبنا أن لا يفوتنا الاطلاع عن كثب على هذا الحائط الذي يتباكى أمامه اليهود منذ ما لا أدري، ونحن في الحقيقة لا نخفي نفورنا، مخافة إن فعلنا كأننا سنرتد عن ديننا، أو نعتنق مذهب آل صهيون، وإذن، فنحن من المارقين، الضالين. فجأة ما أحسسنا إلا مثل مدٍّ يدفعنا ها هو فوج سياح أوروبي، من الشمال، يتقدم إلى الحاجز الخشبي، ووجدنا أننا حُشرنا فيه، معه، انصرف أغلبه يتناول الطاقية ونحن صرنا في الفسحة ونتملّى المتدينين يرتلون صلوات وتعاويذ التوبة وطلب الغفران،

وتنقلنا في زوايا هذا الفضاء المؤسطر بأسباب وجوده، ننظر كما لو إلى تماثيل وأيقونات في متحف بدائي قديم جدا، لا نحس، ولا ننفعل، ولا يثير فينا ما نرى أي شعور، هذا اعتقادي شخصيا، عدا قيمة التعرف والاكتشاف، ومرد هذا بطبيعة الحال إلى افتقاد أي قيمة رمزية بالنسبة إلينا، نحن المسلمين، أولا، وثانيا، لأننا منفعلون بقضيتنا، وامتلأنا غيظا ونحن نرى أن اليهود صنعوا جسرا خشبيا عاليا يرتفع فوق الباحة والحائط، منه يعبر اليهود مباشرة إلى باحة المسجد الأقصى لاستفزاز المسلمين.

* * *

لن تنسوا السيد المسيح، قالت نون، مكتسية قميصا وتنورة أسودين، كأني أراها للمرة الأولى، ونظارتها السوداء تأكل نصف وجهها، أي نعم، يسمرّ أو يحمرّ من أثر أشعة الشمس التي تعرضت لها، تركناها في أعلى سور الطريق العام تنتظرنا وهي تتفرج على المارة بتراخ، كأنها في يوم عطلة. أجبنا وبصوت رجل واحد، وهل يُنسى ابن مريم عليه السلام؟! سرنا، ياسين وعبد الغني وظلي خلفها تقودنا باتجاه كنيسة القيامة، حيث يُفترض أن المسيح صُلِب إلى جانبها ثم نُقل إلى موقعها وسُجي ودُفن في النهاية، وفي القرن الرابع الميلادي أشرفت الملكة هيلانة والدة الإمبراطور قسطنطين على بنائها الذي استغرق من ٣٢٥ م إلى ٣٣٦م. طفقنا نمشي من زقاق إلى زقاق تمتد فيها حوانيت صغيرة للتجارة وأرضها مسفلتة بحجارة صخرية ملساء، تنفذ الشمس تتقاطع أشعتُها مع الظلال في مساحات متفرقة ومتناسبة حسب أماكن البناء، وكان الوقت منتصف الظهيرة والطقس حار ولكن جاف، لا يعرق الجسد، والدليل هؤلاء الإخوة من الرهبان الفرنسيسكان يمشون في موكب مستقيم حاملين الصليب ويهزجون بتراتيلهم، آتين من " طريق الآلام" الذي مشى فيه يسوع حاملا صليبه وهم يقتادونه إلى الصلب، قاصدين الكنيسة، صرت في ذنَب الموكب، غناؤهم وحده يكسر صمتا استقر في الجو رهبة وخشوعا واحتراما لمرورهم، بينما كثير من مناسباتنا الإسلامية يصحبها الضجيج والهرج، لا عجب دعوة المصلين يوم الجمعة قبل الأذان وخطبتها المصلين إلى التزام الصمت، ترد بصيغتها المحفوظة، في الحديث النبوي:" إذا قلت لصاحبك أنصت والإمام يخطب يوم الجمعة فقد لغوت" وفي حديث آخر: " ومن لغا فلا جمعة له، أنصتوا رحمكم الله، أنصتوا يغفر لي ولكم الله". نسيت صحبي، إلى أن التقيت بهم داخل الكنيسة الباهرة ببنائها الضخم، وعمارتها الفخمة، وزخرفة قبابها وأسوارها العالية، أعجبني أن الديانة المسيحية ممثلة فيها بكامل مذاهبها وفروعها، لها محارب ورموز، لذا يحجّ إليها الجميع، ويقصدها آلاف الحجيج كل عام، ما عدا حين يستشرس الإسرائيليون في المواجهات التي تحدث مع السكان العرب، فيظهرون عندئذ حنّة يد الاحتلال، وأنهم من يحكم المكان، منذ أن استلوا عليه سنة ١٩٦٧، بينما هي أرض الله لا حق لهم فيها ولا

سلطان. عندئذ تنطق على عصيهم وبنادقهم لغة العنف والدم، يغلقون الشوارع وكل المنافذ المؤدية إلى المزارات المقدسة، ويُسرفون في منع الصلوات، بأمّ العين رأيت هذا في زيارتي الأولى حين انتقلت إلى مدينة الخليل، قد حاصروا مقام النبي إبراهيم وخنقوا الممرات المؤدية إليه، تصل إليه من مسلك ضيق يشبه دهاليز السجون، بعد أن تنحني وتخضع للمراقبة في الأبواب الإلكترونية وعدسات الكاميرات، دعك من العيون المسلطة للحراس وحارسات في سن المراهقة يرمين الحجيج بشرر، بينما تمّ انتزاع الجزء الجنوبي والشرقي من المزار، القسم الأوسع منه، خُصص لليهود براحة وارتياح، يدخلون بدون مراقب ولا حسيب، يعي سكان الخليل ما يعني هذا العسف والشطط، لذا يصمدون، لن نترك لهم الأرض مهما فعلوا، هي أرضنا من أول التاريخ، هبة من رب العالمين.

امتلأنا حتى التخمة بالأماكن المقدسة، واحتجنا إلى الهواء الطلق، خارج المحارب والزوايا المعتمة، والبناء المصمت للكنيسة، وطقوس الرهبة الربانية المهيمنة، ترفعك إلى السماء وتفطنك بها اكثر من أن تربطك بالأرض ومتاعها متاعبها، لكنها تشحنك أيضا بعتاقة الزمن، القرون التليدة، البعيدة، التي عبرت على هذه الأرض، وحسب أهلها أنهم امتلكوا القوة والمجد، وأنهم خالدون، تساءلت إن كان بنو صهيون يفكرون في الزمن قليلا، أم أن امتلاكهم اليوم للقوة وتحولهم إلى مجتمع مدجّج بالسلاح، قائم على اغتصاب أرض الآخرين والبطش بهم والاستيلاء على أملاكهم ومقدراتهم، يكفيهم هذه المؤونة وأي اعتبار آخر، وكأن الحكمة وعِبَرَ التاريخ خاصةٌ ومتروكةٌ للمهزومين ، طبعا، ما دام التاريخ يكتبه دائما المنتصرون. تعبت من هذا الوجع. لماذا لا أكتفي بالنظر وأكفّ عن التفلسف والحسرة؛ إنه طبع سيّءٌ حقا يصاحبني ولا يجعلني صالحا لسفرة جماعية، وأنا أفضل فعلا التنقل بمفردي، أتدبر أمري قدر المستطاع، وأجنّب غيري عكر مزاجي، وشطط أنانيتي، يا لي!

بلغت الساعة الواحدة ظهرا، غادرنا كنيسة القيامة عطاشا، فقادنا زعيمنا المناضلة نون إلى محل عصير بادر ياسين فدفع عنا أربعتنا غُرّافا من عصير الرمان لكل واحد، لم أذق ألذّ منه، عبّرت عن التذاذي بعذوبته، وكل الخيرات التي تعطيها هذه البلاد من خضر وفواكه بأكوام، تفتن العين قبل المذاق، رغم ما يواصل الاحتلال مصادرته من أجود الأراضي. كأنها كانت تقرأ أفكاري، علقت نون مباشرة، ماذا تظن، إنها أرض مقدسة فلماذا تستغرب؟! وهي محقة، هذه أرض الأنبياء، ورغم عدم ميلي إلى التفسير السحري للظواهر وجدتني أميل إلى كلامها، نحتاج أحيانا إلى أي تأويل لتفسير المعنى المغلق والرمز المتسامي. ربما هذا ما جعلني ونحن نواصل جولتنا، ننتقل إلى سوق خان الزيت العامر والحافل بالأثواب والحلويات والبهارات، المرصع بالألوان والأضواء، تمشي في ظلاله كما تمشي في سويقة السباط بالرباط أو أسواق فاس العتيقة، أمعن في النظر إلى الوجوه، مثل باحث آثار أو عالم أنتروبولوجي ينقّب عن جذور الإنسان، وأستحضر وجوها أخرى من كل المدن

العربية التي عشت فيها وزرت، وصارت تقريبا ممسوحة عندي كأنها بلا ملامح، أريد أن أستنبتها هنا من هذه الوجوه، من هؤلاء العرب، من الفلسطينيين الباقين في مدينتهم، وأنا أحمّلهم ما لا طاقة لهم به، أُضفي عليهم من الصفات والخصال أكثر مما يحتملون، أعود وأعترف أن هذا من سيء طباعي، المبالغة في تقدير المشاهد والأمور لتنسجم مع مخيلتي المريضة، وهواجسي الكابوسية، ووساوسي المقلقلة، وإلا فهؤلاء الناس بشر عاديون، هنا في القدس كما في رام الله، يأكلون ويشربون ويمشون في الأسواق ويتزوجون ويخرجون من بيوتهم صباحا هم وأبناؤهم يذهبون إلى المدارس والمكاتب والمعامل، ومنهم من يخبئ في جيبه خنجرا ويترصد جنديا إسرائيليا في زاوية من الشارع ويطعنه، قد فاض به حال الاحتلال!

إنما هنا في القدس، يكتسب وجود السوق معنى أبلغَ، يغدو مفعما بالدلالة والإحساس، جالبا للذكرى، ومثيرا أيضا للأشجان، لما كان عليه وما هو الآن. السوق العربي المقدسي، أكثر من فضاء للبيع والشراء، سواء للمقيمين أو العابرين. هو عندي مركز آخر للمقاومة. كل تاجر يقف هنا ليبيع ما يقيم به أوَده وأسرته مقاوم. كل من يقتني أقل بضاعة من هنا مقاوم. أي بضاعة معروضة هنا للبيع هي سلاح في وجه المحتل. هنا ستبقى تسمع اللغة العربية، وستفرضها على الغاصبين، وجنودهم يستعملونها بركاكة كي يظهروا تقرُّبا مريبا ومصطنعا مع أهل البيت الحقيقيين، وإلا أي تقارب ومودة يمكن أن تجمعك بأشخاص يسألونك صباح، مساء، إلى أين أنت ذاهب، بينما أنت في بيتك، وهم اقتحموه عُنوة وتملكوه غصبا ويسألون! لم تبق خواطر حارقة تجيش في نفسي، إذ سرعان ما فاضت على لسان نون، بقوة كظمت غيظها مؤقتا ونحن ننتهي من خان الزيت يُفضي بنا مرة أخرى إلى باب العامود من حيث بدأنا جولتنا، ثم وقد تركنا الباب وراءنا عنده الجنود الرشاشات معلقة على أكتافهم، ودائما أصبع على الزناد، طفح كيلُ غضبها من جديد وفاضت الحِمم، يا أولاد، ويلعن ..وانظروا من يومين طخُّوا شاب هنا قرب الباب.. انتظرت أن يهدأ البركان حبة، ولم يهدأ، قلت سأركب الموجة وهي جائحة، خذينا يا العزيزة إلى القدس الأخرى، خارج الأسوار والأبواب، هذه زيارة قد لا تتكرر، أنظري إلى بشرتي السمراء، غدا قد يُمنع السُّمر من الوصول إلى هذا التراب، وأنت نفسك رأيتِ بأي مشقة وصلنا، فهيا بنا إذن إلى أعالي المدينة، كنا قد عدنا إلى السيارة المركونة في مرآبها وخضنا في شارع سليمان، نصعد إلى الحي الفوقي باتجاه القدس الأخرى التي طلبت، صرخت نون فجأة ونحن المغاربة الثلاثة نغترف ما يتقدم أمامنا عبر زجاج السيارة من مشاهد، أناسي ومبانٍ، كأننا نكتشف الوجود للمرة الأولى، أو نبغي رؤية استثنائية لا يكفينا المعطى للعين، وهذا ما أدركته نون حين غادرت الشارع الرئيس وانعطفت يسارا إلى حي مكون أساسا من فيللات مستقلة، على أرصفته أشجار ظليلة، ويسبح في خضرة شبه كاملة. حي منسق، نظيف،

والبيوت فيه مكونة من أرضية وطابق أو طابقين لا أكثر. أبوابها من قضبان حديدية مشبكة تسمح برؤية المدخل، يرتفع درجات تؤدي إلى الباب الكبير الخشبي، هو مدخل البيت، زليج فسيفسائي ظاهر القدم، هل ترون هذه البيوت الجميلة، التليدة يا إخوان، هي لكبريات العائلات الفلسطينية، وشرعت تتلو أسماءها: الحسيني، النشاشيبي، اسطمبولي، عويضة،، العلمي، وهذا أنظروا حتى لا تفوتكم هذه، إنه بيت عائلة إدوار سعيد، و، تنزل نون خبطا في المحتلين، يدّعون أن هذه بيوتهم، هل تعلمون أن غولدا مايير استولت على أحد هذه البيوت، وكان منحوتا أعلى بابه عبارة "ما شاء الله" فجلبت منشارا حديديا كهربائيا وانتزعت العبارة لتمحو أي أثر للماضي، ومثلها فعل يهود كثيرون جلبتهم الحملة الصهيونية من كل الأصقاع، وهم يواصلون اليوم في عديد مدن فلسطينية احتلال البيوت في الأحياء القديمة، القدس والخليل وبيت لحم، يهجّرون ساكنتها ويضعون على مدخلها العلم الإسرائيلي وكاميرا مراقبة، المهم عندهم أن يحتلوا.

تجاوزت الساعة الثانية زوالا، وآن لزيارتنا للقدس أن تصبح، تؤول معها إلى الزوال. لا خيار لنا. ليس للعربي خيار، للفلسطيني خاصة. أطلالٌ في داخلنا، وما في الخارج، نمشي فيه، وننظر إليه كأطلال. حين وصلت لعمّان، قابلت المنفيَّ بها، صديقي الشاعر العراقي الكبير حميد سعيد، قلت له لما سألني ما انطباعي عن رحلتي الفلسطينية، أجبت: إنني عائد من الأندلس، مع الفرق أن الأندلس كانت أرض الآخرين، ولما ضعفت شوكتنا، وتهتّك أمراؤنا استعادها أصحابها، بينما فلسطين أرضنا، أخشى رغم إصرار ومقاومة أهلها، أن لا يبقى منها سوى باقة مراثي وحفنة ذكريات نستوحيها ونصوغها شعرا كما فعلت أنت في ديوانك" أوراق الموريسكي". التزمنا نحن موكب الزعيمة نون صمتا كالحِداد ونحن نغادر، صرنا في نهايات المباني الجنوبية للقدس، المترامية يمينا ويسارا، عُمرانٌ تزايد في السنوات الأخيرة لتكثيف الاستيطان وترسيخ احتلال المدينة، التي يصر القادة الفلسطينيون على أنها ستكون عاصمة الدولة الفلسطينية، ويمعن الإسرائيليون في تهويدها لنقض هذا الحلم. حدست نون ولا شك حزننا، فرمت حجرا في بركته ،أطلعتنا ونحن في طريق العودة على بيت عائلتها في القدس، في شبه مفاجأة، لأنها أعلمتنا في البداية أنها من حيفا، اطمئنوا، بيت كبير فعلا بشبابيك خضراء في منعطف الطريق المؤدي إلى القدس القديمة، لن نترك لهم هذه الأرض، وبأي ثمن لن نبيعه، حدثتنا عن الإغراءات المالية لليهود كي يتملكوا البيوت المقدسية، عن التحرشات، أيضا. لن يتكرر ما حدث في ال ٤٨. هي آخر عبارة حاسمة، جازمة، قالتها والسيارة تعبر، وهذه المرة، بالحاجز الإسرائيلي المؤدي إلى رام الله، وهي تسوق بسرعة ملحوظة، فقد كان عليها أن تلتحق بمعرض الكتاب لتستأنف عملها التطوعي مع عشرات من الشباب، صحافيين وطلبة وأدباء، في فريق عتيد يعمل بروح رفاقية تحت إشراف مدير المعرض ومسؤوليه الأستاذين عبد

السلام العطاري ومحمد الأسمر، ولا أتحدث عن الجنود المجهولين، هم كثر. مساء اليوم نفسه عدنا التقينا في ليل رام الله، في نادي الشباك، مشرب، وملتقى الأدباء والفنانين، حيث ابتهجنا وطربنا بالشعر والموسيقى، ورحب بنا صاحبه الشاعر، رجال ونساء في فضاء واحد وفي تمام الجمال والود والحق في الحياة. في الغداة كان مسك الختام بلقاء الرئيس محمود عباس في إقامته بالمقاطعة، حيث كان يقيم قبله الشهيد أبو عمار. حدثنا أبو مازن حديثاً صريحاً، وشرح الموقف المأزوم والجامد للمفاوضات، واستمرار الطرف الإسرائيلي في رفض قيام الدولة الفلسطينية، بينما نحن ماضون ـ يقول، ويتعهد ـ لإقامة هذه الدولة مهما كلف. أقوى ما سمعنا منه مساء تلك الليلة هو أن الفلسطينيين هنا باقون، ولن يتكرر خطأ نكبة ١٩٤٨، إشارة إلى تركهم وهجرتهم أرضهم، وتفرقهم في المخيمات ثم الشتات. أبدا، إننا هنا باقون!

ليس لهذا الفصل من ختام، وإلا هل تختم الأشواق، وينفذ الحنين، خاصة إلى أرض ما تزال أظافر الاحتلال منشوبة فيها حتى العظم: أرض العرب، أرضي ووطني؟ لا وكلا، أبدا. سيغادرنا جسدي ذات يوم، سيموت الحالم، يفنى جسد المشتاق، يختفي العاشق، لكن الحلم باق، والعاشق وراءه، روحه تتبعه، تمشي بخطاه، ولذلك انظروا إلى السماوات والأرض وما بينهما كيف تزدحم بالأطياف، بأرواح الشهداء، بنا نحن جميعا أمواتا وأحياء، لنا عبارة واحدة ومتحدة: لن نتخلى عن فلسطين، هي دنيانا وآخرتنا، وهذا عهد الله والشوق بيننا.

باريس في ٢٢ـ ٠٦ ـ ٢٠١٦

ذاكرة البدايات
شهادة الأخ سليم الزعنون (أبو الأديب)

جمع وتحرير يحيى يخلف

أعود الى سنة ١٩٤٨، كواحد من الجيل الذي عاش النكبة.

كنت آنذاك في الصف الثالث الثانوي، وعندما بدأت المعركة، كنا قد منعنا من انشاء اتحاد للطلاب، وكان ناظر المدرسة بأمر من الانتداب البريطاني الذي كان يحكم فلسطين يمنع أيضاً أي نشاط طلابي في المدرسة، ولكننا كوّنا سراً مثل هذا الاتحاد، وخرجنا رغماً عن ناظر المدرسة الى (تل المنطار) حيث نقطة التماس هناك مع العدو الصهيوني، وشاركنا مع رجال المقاومة الفلسطينية آنذاك في حفر الخنادق، رغم اننا كنا عملياً صغاراً في ذلك الوقت.

انتهت الحرب، وتم توقيع الهدنة، الاولى ، والثانية، بين الدول العربية واسرائيل وعادت الدراسة، وعدنا الى مقاعد الدراسة، وتغير الوضع السياسي ، فقد أصبح الحكم المصري هو الذي يدير قطاع غزة، وصار بامكاننا ان نتحرك سياسياً، أفضل مما كنا في العهد البريطاني، ولا بد من أن اذكر، احدى مآثر الحكومة المصرية لقد فتحت أمامنا آفاق التعليم، وبدلاً من أن يذهب الطلبة المتفوقون من غزة الى مدرسة الرشيدية في القدس، اصبح امام الجميع ممن ينجحون في الثانوية العامة الذهاب الى مصر لإكمال دراستهم.

لم نتوقف عن التفكير في موضوع اتحاد الطلاب، إلى أن ذهبنا إلى مصر سنة ١٩٥١.

وكانت الدفعة التي كنت فيها مكونة من ٥٤ طالباً، ومن الطرائف أن الصديق الذي ذهبت معه الى مصر (ماجد المزيني)، كان والده تاجراً ومن المجاهدين في سنة ١٩٤٧، الذين كانوا يذهبون الى مصر، لإحضار السلاح للمقاومين الفلسطينيين.

فقال لابنه ماجد: انتم لا تعرفون القاهرة وشوارعها وأحياءها ، ولا كيف ستدبرون اموركم هناك، خذوا هذا الكتاب مني ، الى شخص اسمه ياسر عرفات، هذا الرجل كان يرافقنا في سنة ١٩٤٧ الى الصعيد، والصحراء الغربية من اجل شراء السلاح، وكان أصغرنا سناً، لكنه يمتلك قدرات متميزة غير موجودة في أحد.

وصلنا القاهرة، وسكنا، واتصلنا بياسر عرفات، الذي سارع الى زيارتنا ، عارضاً مساعدته لنا، وسرعان ما قال لي: ان والدي يعرف والدك، وانني سمعت أنك رئيس اتحاد الطلاب في غزة.

وسألني: كم عدد الطلاب الذين جاؤا معك؟

قلت: ٥٤ طالباً.

قال : إذن كسبنا ٥٤ صوتاً، انا الان في معركة مع بعض الحزبيين الذين استولوا على رابطة الطلاب الفلسطينيين، والانتخابات بعد شهر من الآن، وانا مُصّر أن يكون المسؤول عن الرابطة يعمل باتجاه وطني فلسطيني وليس بعمل حزبي.

قلت له: ان شاء الله، سأضمن لك هذه الاصوات، وسنتعاون منذ اليوم.

وقلت له: إني اعرف طالباً هنا، موجود في الأزهر الشريف، وهو شخصية جذابة، اسمه صلاح خلف.

قال لي: انزل ، سنركب تكسي، ونذهب الى صلاح خلف فوراً.

ركبنا السيارة الى الأزهر، وكان ذلك أول لقاء بين ياسرعرفات وصلاح خلف(أبو إياد)، فلم يكن يعرفه من قبل، وسأل صلاح خلف نفس السؤال: كم لديك من الطلاب؟

قال له: ١٥٠ طالباً.

فرد عليه ابو عمار: يجب ان نضمن ١٥٠ صوتاً.

فقال صلاح خلف: لكن يا ابو عمار هؤلاء الطلاب الذين لدي (عميان).

فقال: (العميان) أهم من المبصرين، لأني سأحضر لهم أناس يأتون بهم الى الانتخابات، ويضمنوهم.

هكذا كانت الحيوية والبديهة عند هذا الرجل الذي تعرفنا عليه، وأصبحنا الثلاثة نخوض معركة رابطة الطلاب الفلسطينيين، ثم انضم الينا، عبد الفتاح حمود، الذي كان في نفس الدفعة التي حضرت انا فيها. ثم زهير العلمي، ومعاذ عابد وعدد لا بأس به، فشكلنا مجموعة، خاضت معركة الرابطة، ونجح ياسر عرفات كرئيس للرابطة، وانا السكرتير العام بعده، والاخوان صلاح خلف

وعبد الفتاح حمود، وزهير العلمي، ووضعنا للاخوان المسلمين طالباً معنا اسمه هاني بسيسو.

كان هذا أول تجمع، بدأت فيه فكرة الوحدة الوطنية، وعدم الحزبية، أي الابتعاد عن الاحزاب، والبدء في البحث عن الهم الوطني، كان هذا سنة ١٩٥٣ في رابطة الطلاب الفلسطينيين في القاهرة، هذه الرابطة التي أخذت شأناً كبيراً واصبح بها اعتراف خارج مصر.

واستطاعت ان تحل محل حكومة عموم فلسطين التي كانت تتلاشى بالتدريج، واصبحت في حالة شلل، عاجزة عن فعل أي شيء، ولكن للامانة، لم نتنكر لمن قبلنا ، كانت هذه نظرية الاخ ياسر عرفات، قال لنا، فور انتهاء الانتخابات يجب علينا ان نذهب لزيارة الحاج أمين الحسيني، ونقول له: ان مكانتك لا تزال موجودة، ونحن ابناؤك الصغار.

وفعلاً ذهبنا الى (حلمية الزيتون) حيث تم اللقاء بيننا وبين الحاج أمين الحسيني وكان لقاءً ودوداً، ولم نقطع لقاءاتنا معه، كنا دائماً في الاحتفالات التي كانت تقيمها الرابطة، ندعو الحاج أمين في أغلبها، ويلقي كلمة فيها، وخاصة في ذكرى استشهاد عبد القادر الحسيني، التي كنا نعتبرها ذكرى لكل الشهداء، وكنا نقيم لها احتفالاً مميزاً.

ما أريد أن أقوله أن الاخ ياسر عرفات (رحمة الله عليه) وفي تلك الفترة، انه كان دائماً يأخذ وحده ثلاثة أرباع جدول الأعمال، وهو الذي ينفذ، وجميعنا نأخذ الربع الباقي، واذكر حادثة طريفة لي معه، انني اعترضت مرة على (الكرت) الذي عمله كرئيس لرابطة الطلاب الفلسطينيين، وقلت له: هذا حب ظهور، بالطبع استاء ابو عمار من ملاحظتي، وبدأنا في مناقشة جدول الاعمال، وكانت لدينا مشكلة كبيرة وهي الرسوم الاضافية المفروضة على الطلبة ومقدارها (جنيهان ونصف الجنيه) وكان الطلاب الفلسطينيون يعجزون بحكم أوضاعهم المادية السيئة عن دفعها.

كان الاستاذ احمد الشقيري في الجامعة العربية آنذاك، وكانت الجامعة العربية، تدفع هذه الاضافات بصعوبة، وبمراجعات كثيرة.

انسحب ابو عمار غاضباً من تلك الجلسة، وقال: اذهبوا انتم، وانا اعتبروني في اجازة، أو استراحة.

فقلت له: انا اذهب الى الجامعة العربية.

وذهبت مع بعض الطلبة الى الجامعة العربية، وعند الباب أوقفنا شرطي وسألني، من انت؟ قلت: انا فلان، السكرتير العام لرابطة طلبة فلسطين.

فقال لي: نحن لا نعرف إلاّ ياسر عرفات، أين ياسر عرفات؟ ورفضوا ادخالنا، وعدنا بلا فائدة.

في الجلسة التي تلت، عرف ياسر عرفات بما حصل معنا ، ابتسم .

وقال : لو أخذتم هذا (الكرت) معكم، لاستطعتم الدخول، انتم لا تعرفون سّر (الصنعة)، انا اعرف سر (الصنعة) هنا.

ثم حدثنا فقال: أنا بيتي في مصر الجديدة، وعندما أذهب الى الجامعة، اركب المواصلات العامة، لكن قبل أن أصل الجامعة العربية، بمسافة كليومترين اركب تكسي، وأطلب من السائق أن يقف عند باب الجامعة، وانزل من التكسي، فيشاهدني الحرس، وكنت بين الحين والآخر ادفع لكل واحد منهم خمسة قروش، ولذلك استطيع ان أدبر امري، انتم لا تعرفون (سر الصنعة) .

وتأخذني الذاكرة إلى موقف آخر مرتبط بأمور الرابطة، حين أردنا أن نستأجر مقراً للرابطة، وهو المقر الذي لا يزال حتى الآن، ولكنه اصبح قنصلية لفلسطين.

ذهبت انا الى وكيل الشقة التي نريد أن نستأجرها ، وهو طبيب مشهور، ورفض.

وقال: انتم طلاب، وستخربون (المصعد) والبناية، فعدنا خائبين.

فقال ياسر عرفات: تعالوا معي

ذهبنا الى عيادة الطبيب، فأخرج ابو عمار (كرت) من جيبه، وأرسله مع الممرضة فإذا الطبيب يأتينا مندفعاً، ويهجم على ابو عمار ويقبله، ودخلنا بمعية ابو عمار وفوراً قال: طلبكم مقبول، ووقع العقد بسهولة.

وقبل أن نخرج قال له: أخ ياسر، يبدو انك نسيت (الكرت) هذا ، وأعطيتني (كرت) آخر، واذ به قد أعطاه متعمداً (كرت) آخر يدل على علاقته مع احد كبار رجالات الثورة، الاخ زكريا محي الدين.

وبالطبع اهتم الطبيب به لهذا السبب، وقال أبو عمار: أنا اعتذر، واعطاه (كرت) آخر. اذكرها كمواقف تدل على عبقرية وبديهة هذا الرجل.

في سنة ١٩٥٥ انا تخرجت، وعينت وكيلاً للنيابة في قطاع غزة، واصبح الاخ صلاح خلف رئيساً لرابطة طلاب فلسطين بعد أن تخرج الاخ ياسر عرفات، الذي عمل لجنة، اسمها (لجنة الخريجين) يديرها هو والاخ أمين الآغا، وشيخ من آل شراب، كانت نوعاً من انواع اثبات الوجود، وبأنه لا يزال موجوداً في الساحة.

في سنة ١٩٥٥ كانت الاحزاب موجودة في غزة، كان هناك الحزب الشيوعي، وكان مضطهداً ، وأحد زعمائه في السجن وهو الاخ معين بسيسو، وكان هناك حزب الاخوان المسلمين، الذين كانوا كثرة في

الساحة، ثم حزب البعث ولكن بشكل ضعيف، وكان القوميون العرب ولكن ايضا بشكل ضعيف.

عندما حصل العدوان سنة ١٩٥٦، وبعد اسبوع من الاختفاء، تداعينا، وتلاقى عدد من الشباب من كافة الاحزاب، وقالوا: نريد ان نشكل هيئة تقاوم العدو الصهيوني أي تقوم بنشاطات ضد العدو المحتل، وقد اخترناك رئيساً لهذه الهيئة.

فقلت لهم: نحن جربنا الاحزاب، ولم تصل بنا الى أية نتيجة، وانتم هنا (كوكتيل) الجميع ينتمي للاحزاب، وأنا أطرح رأياً ، اننا لسنا في دولة مستقلة، لتكون لنا احزاب فيها ، لذلك يجب ان ننصهر في بوتقة العمل الوطني، ويجب ان نخلع اردیتنا الحزبية، ونرتبط في رداء الوطن، طيلة الفترة التي سنقاوم فيها هذا العدوان، والذي لا نعرف الى متى سيطول.

وبعد ان ننتهي من هذه المرحلة، اذا إرتأتيم ان تعودوا الى احزابكم فعودوا لكن بعد الانتهاء والنجاح في هذه المرحلة ، التي تقتضي وحدة وطنية واحدة، وانا أول من اتجرد من حزبيتي السابقة كأخ مسلم، واطلب من اخواني الذين هم معي في حركة الاخوان المسلمين، ان يفعلوا نفس الشيء، ويؤمنوا بهذا الكلام الذي أقوله، وكان معاذ عابد ومحمد حربي عليان في الجلسة.

وفعلاً تجاوبوا وعملوا بهذا الالتزام، وايضاً اثنان من البعثيين منهما وفا الصايغ، الذي يعيش الان في غزة، وايضاً احد القوميين العرب، وبعض المستقلين واتفقنا على ذلك ووضعنا نظاماً، وتعاهدنا فيه على هذا الامر، وبدأنا في عملية المقاومة التي بدأت بكتابة بعض المنشورات ، ووصل العنف في تلك المرحلة، الى قتل أحد الجواسيس اسمه (العرايشي) في وسط قطاع غزة، ثم بدأنا اول اتصالاتنا. شكلنا وفداً، ذهب على رأسه وفا الصايغ الى القاهرة، ليلتقي بكمال الدين رفعت، والاخ ياسر عرفات، كرئيس للخريجين، ولم يجده آنذاك، فقد كان قد تطوع للقتال في الجيش المصري، ووصل الى درجة ملازم اول، وايضاً الالتقاء بصلاح خلف، باعتباره رئيساً لرابطة طلاب فلسطين.

ثم أرسلنا وفداً آخر، برئاسة كمال عدوان، وكان كمال من أهم عناصرنا المتحمسة الموجودة في غزة، أرسلناه أيضا إلى القاهرة.

وزعنا منشورات أكثر من مرة، دون أن تستطيع السلطة ضبطها، أذكر كان يعمل معي في النيابة العامة، عسكريان برتبة (امباشي) وهما يوسف اسبيته، ويوسف مهنا، هذان كانا في القوة الفلسطينية التي تعمل على حفظ النظام، والتي دمرتها اسرائيل.

كانت ورديتهما تنتهي في الساعة السادسة صباحاً، فكانا يوزعان المنشورات الساعة الخامسة، ويقومان بالتبليغ عنها، الساعة السادسة، وبقيت هذه الحقيقة سراً الى أن انتهى الاحتلال الاسرائيلي.

الاخ ابو جهاد لم يكن معنا في ذلك الوقت ، فقد كان خارج غزة، كان مبعداً، وانا اعتبر الشهيد أبو جهاد، من الناحية القانونية، أول فلسطيني يبعد عن وطنه.

في سنة ١٩٥٤ أي قبل عامين من الاحتلال، نظم ابو جهاد خلية سّرية، وكان لها امتداد في الاردن عبر الاخ حمد العايدي (ابو رمزي)، الذي رحل من غزة الى الاردن، وبدأ يشرف على هذه الخلية في الاردن.

وأبو جهاد ايضاً له قصته مع الحزبية، فقد كان محسوباً على حركة الاخوان المسلمين، وتدرب معهم على دورة متفجرات في العريش، وكان على رأس هذه الدورات صحافي كبير اسمه (محمود الشريف) رحمه الله، وبعد انتهاء دورة التدريب، راجع ابو جهاد المسؤولين في الاخوان، وقال لهم: نريد أن نطبق ما أخذناه، ان نقوم بعمليات تفجير داخل اسرائيل تنطلق من قطاع غزة.

فرفضوا وكانت ردة فعله بأن انفصل هو ومجموعته عن جماعة الاخوان المسلمين، وانشأوا مجموعة جديدة تقوم بعمليات عسكرية، داخل الاراضي المحتلة، وفعلاً بوسائل بدائية، استطاعوا ان يخترقوا الحدود، وان يضربوا باصاً صغيراً داخل اسرائيل، أحدثت العملية ردة فعل عنيفة، وبدأت المخابرات تبحث عمن وراء العملية، الى أن استطاعت القبض على خليل الوزير، وطبعاً تدخلت شخصيات هامة لدى المخابرات المصرية، فليس لائقاً أبداً أن يقدم خليل الوزير للمحاكمة بتهمة التسلل داخل الحدود، وتعتبر تهمه كتهمة الذين يتسللون لسرقة بقرة، أو غنمة.

وانتهت الامور باجراء صفقة، تحفظ عن خليل الوزير القضية، وبالمقابل يغادر قطاع غزة، طبعاً وفقاً للقانون الدولي، لا يجوز ان يخرج اي مواطن من وطنه مبعداً، لكن الذي حصل ان خرج خليل الوزير وعاد مع عودتنا.

في شهر يناير سنة ١٩٥٧ في وسط هذه الفترة، اضطررت ان اسافر الى القاهرة لقد أنذرت من قبل بعض الاخوان، أني على وشك الاعتقال، وتسلّم القيادة معاذ عابد، وأخوة آخرون، فذهبت الى القاهرة، والتقيت بالطبع الأخ صلاح خلف، الذي كان يستعد للقاء مع عبد الناصر، فقد طلب من الرئيس عبد الناصر أن يلتقي الطلبة الفلسطينيين في القاهرة، ووافق الرئيس.

حضرت معه اللقاء، وكان ابو اياد جريئاً، فقال للرئيس عبد الناصر:

انا اطلب منك ان لا تستقبل (داغ همرشولد) الامين العام للامم المتحدة والذي كان يستعد لزيارة مصر آنذاك.

فقال الرئيس عبد الناصر: ان من الدبلوماسية واللياقة، ان رئيس الدولة يقابل الامين العام للامم المتحدة.

اما انتم الطلاب، بامكانكم الاحتجاج بأية طريقة من الطرق على هذه الزيارة.

ولكن عندما ذهب الطلاب للاحتجاج عند المطار، قبض عليهم، ووضعوا في الباصات، ولم يشفع لهم ما قاله الرئيس بأن يحتجوا.

طبعاً التقيت مع الاخ ياسر عرفات، الذي كان لايزال مجنداً، وبعد انسحاب الجيش الاسرائيلي من قطاع غزة في مارس سنة ١٩٥٧ عدنا الى غزة وعاد معنا الاخ ياسر عرفات وكثيرون عادوا في تلك الفترة وقامت احتفالات كبيرة في غزة لمدة اسبوع.

ومما يذكر ان اسرائيل لم توافق على عودة الجيش المصري الى غزة، وقبلت فقط عودة ٢٥ ضابطاً، هم مديرو الادارات وكانت تريد أن تبقى قوات الطوارئ الدولية، لتبقى هي المسؤولة عن الأمن في قطاع غزة.

وحاولت أيضاً أن يكون هناك حكم ثلاثي، مصري، اسرائيلي، قوات طوارئ دولية، لكن هذه الأحداث دفعت الشعب للخروج الى الشوارع في مظاهرات عارمة على مدى سبعة أيام.

هذه الهبة الشعبية جعلت الرئيس عبد الناصر يتشجع ويرسل فوراً في القطار الى غزة (محمد حسن عبد اللطيف) ليكون قائداً عاماً على قطاع غزة، مخالفاً كل الترددات الموجودة، وطبعاً رحب أهل غزة بالقرار، وتعاونوا، وحملوا هؤلاء الضباط المصريين على أكتافهم، وبدأت حالة من عودة الامور، بعودة الادارة العربية المصرية كما كنا نطلق عليها، الى قطاع غزة.

عاد الاخ خليل الوزير الى قطاع غزة في هذه المرحلة وتعرف على ياسر عرفات وكان مكلفاً بمرافقته كدليل في انحاء ومناطق غزة، كان هذا في مارس سنة ١٩٥٧، وبعدها عاد ياسر عرفات الى مصر التي كان يعمل فيها مهندساً. وفي سنة ١٩٥٨ ترك ياسر عرفات مصر وذهب الى الكويت وعمل مهندساً في وزارة الاشغال العامة فيها.

أما ما جرى معنا نحن فانّ اخواننا في المخابرات قالوا لنا: انتم في المقاومة الشعبية في قطاع غزة نقول لكم ان الامر انتهى الآن، فلا توجد مقاومة ولا يجوز استخدام هذا العنوان.

اصبحنا عملياً مضطهدين وبدأت ملاحقة الاحزاب في تلك الفترة، ولكي أنصف الجميع في المقاومة الشعبية اقول، صحيح أن المقاومة تعتمد بشكل اساسي على الاخوان المسلمين، وثم البعثيين، لكن

(الجبهة الوطنية) كانت الى جانبنا، وكانت مُشَّكلة من (الشيوعيين والمستقلين) وعلى رأس الجبهة الوطنية، كان الدكتور حيدر عبد الشافي، ومعه جمال الصوراني، وزعماء للشيوعيين، كنا نختلف مع بعضنا البعض، على قضية الكفاح المسلح الذي كانوا يرفضونه، كانوا يطرحون أنهم يريدون قيام دولة، وان لا تعود الادارة المصرية الى قطاع غزة، ونحن نقول العكس، ان على الامور ان تعود كما كانت عليه، وان تعود الادارة المصرية الى القطاع، كانت هذه نقطة الخلاف بيننا، وحاول الاخ منير الريس، رئيس بلدية غزة أن يوفق بين المقاومة الشعبية، والجبهة الوطنية، وكدنا ان نتوصل الى اتفاق، لكن دخول كمال عدوان علينا بشكل عنيف قائلاً: ان هذا لا يمكن ان يحصل.

وبدأ يعدد الاسباب، والحقيقة انه عطّل هذا الاتفاق، ثم قدم أدلة على اتصال الحزب الشيوعي الاسرائيلي مع الجبهة الوطنية، وفي ذلك الوقت، كان هذا من المحرمات. بالتالي انتهت الامور بأن يعمل الفريقان في ساحة قطاع غزة، كل حسب قناعاته.

الفترة التي جاءت بعدها كانت فترة اضطهاد وبالنسبة لي شخصياً كنت أشعر انهم ينظرون إليّ شزراً في النيابة العامة، ويحاولون نقلي الى مكان آخر، كذلك الاخ صلاح خلف، الذي كان يعمل مدرساً في القطاع، كان يشعر بالمطاردة، اصبحنا في حالة لا استقرار فيها، في نفس الوقت فتح أمامنا باب الخليج، لا ادري كيف فتحت آفاق الخليج فجأة، فتعاقد الاخ صلاح خلف كمدرس في الكويت، وانا ذهبت لأجد ايضاً عملا في الكويت.

عبد الفتاح حمود ذهب بدوره الى السعودية. كمال عدوان ايضاً خرج من القطاع، وكانت الاجواء يمكن تسميتها بحالة احباط عامة شملت كل شخص فينا.

ولكن يبدو أن فلسطين اقوى منا جميعاً، فكل من ذهب وتوزع في الاماكن المختلفة، عاد يفكر في كيفية العمل لأجل فلسطين، هذه المرحلة أدت الى ظهور منظمات صغيرة، أظن أن أحد المؤرخين سجل عدد المنظمات الموجودة في تلك الفترة بـ (٢٥) منظمة أو أكثر، كلها تريد أن تعمل لنفس الهدف، وكانت أعداد افرادها، من خمسة الى عشرة افراد. في الكويت كانت المجموعة الاكبر. وحتى وانا لا أزال في النيابة العامة في غزة كانت تأتي مجلة فلسطيننا سنة ١٩٥٩ وكل من كانت تصل إليه هذه المجلة، وحتى الذين كانت تصلهم على بريدهم الخاص، كانوا يستدعون الى المخابرات، وكان لدى الأمن في غزة تخوف كبير منها، فقد كانت تطرح مفاهيم جريئة وجديدة هي تقريباً نفس مفاهيم المقاومة التي بدأناها في غزة ووضعناها في برنامج.

في طريقي الى الكويت في شهر ١٩٦٠/٦ نزلت ترانزيت في مطار بيروت، والتقيت الاخ ابو جهاد،

وقال لي: سأرسل معك الى مكتبة المجلة في الكويت عدداً من الكتب وجاء بعشرين كيلو من الكتب قمت بحملها من مطار بيروت الى الكويت، وبعد أن استقريت في العمل كمدعي عام هناك، جاء إلي خليل الوزير وقال لي: نحن نعمل مجلة ونريدك ان تساعدنا، فكتبت اكثر من مرة في هذه المجلة، ثم طلب مني اشتراكاً، تحت اسم المجلة ثم تبيّن انه اشتراك تحت اسم حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح).

وترددت في دخول فتح في البداية لانني كنت أنوي اكمال دراستي لأحصل على الدكتوراه بعد حصولي على الماجستير، وكان ابو جهاد يلح في اقناعي وكأنه قال لي: طائر الحي لا يشجي، شيء بهذا المعنى، ثم قال لي: ان هناك شخصاً يريد ان يلتقي بك. وجاء هذا الشخص تحت اسم (فتحي القاضي) وتبين فيما بعد انه عبد الله الدنان، عضو اللجنة المركزية لحركة فتح، واعجبت بمنطقه وطريقته في الطرح، وكنت قد أعجبت من قبل في (بيان حركتنا) و(هيكل البناء الثوري) وأدركت عظمة هذه الحركة.

ثم جاء إلي من قيادة الحركة (نبيل حمدان) وهو عادل عبد الكريم، ولا بد أن اسجل رأيي فيه بأنه كان أقوى شخصية في الحركة في مرحلة التأسيس. اعجبت به ووافقت على الانضمام لهذه الحركة التي لم أكن اعرف حتى تلك اللحظة ان ياسر عرفات عضو فيها.

ثم ارسلت الحركة الى صلاح خلف أيضاً الاخ عادل عبد الكريم تحت اسم آخر (ابو يحيى) وذات يوم بالصدفة كنت انا والاخ صلاح خلف نتحدث عن الحركة، فبدأت امدح له في شخصية نبيل حمدان، وهو يمدح لي في شخصية (ابو يحيى) الذي يقابله وبذكائه الخارق قال لي ابو اياد: صف لي نبيل حمدان فوصفته له، فقال لي: انه نفس الشخص، يقابلك تحت اسم نبيل حمدان، ويقابلني تحت اسم ابو يحيى.

كانت السرية قوية جداً في المرحلة الاولى ولعلها اهم اسباب نجاح الحركة فيما بعد.

المطبوعة الأولى (فلسطيننا)

كان هناك قرار للخلية الاولى لحركة فتح بإصدار مجلة، لتمهد هذه المطبوعة، لنشر افكار الحركة، واتفقوا ان تصدر هذه المطبوعة من لبنان باعتبار لبنان المركز الاعلامي الاول في العالم العربي.

كان قانون المطبوعات اللبناني صعباً والنظام السياسي في لبنان لا يسمح بوجود مجلة فلسطينية

تصدر من لبنان بالاضافة ان الحركة لا تملك الامكانات المادية.

كان الاخوة قد تعرفوا على شاب لبناني اسمه (توفيق حوري) ذو ميول اسلامية فطرحوا عليه الموضوع واشكالياته، فوعد بالمساعدة في الموضوع واستطاع هذا الرجل أن يصدر المجلة ووضع في الصفحة الاولى (فلسطيننا) ملء الصفحة وعند الألف الاخيرة كلمة (نداء الحياة) بخط صغير.

بهذه الطريقة صدرت هذه المجلة، وأصبحت توزع في عدة اماكن وتتطرق الى مواضيع جريئة. منها على سبيل المثال، انتقادها لتجميد الملاحة في قناة السويس وهو الخبر الذي استاءت منه السلطات المصرية وبذلك اصبحت المجلة مشبوهة في قطاع غزة.

وكل من كانت تصله في غزة كان يستدعى للاستجواب، بالاضافة لآرائها الجريئة التي تطرحها في ضرورة ان يستلم الشعب الفلسطيني قضيته من الانظمة العربية، والتأكيد على القرار الوطني الفلسطيني المستقل وأفكار حركة فتح التي كانت تريد أن توصلها للناس كانت كلها في هذه المجلة.

وكان لها قواعد خاصة ، وهي عدم ورود أسماء الكتاب أو أسماء محرريها فكان أعضاء اللجنة المركزية يكتبون فيها دون أن يوقعوا اسماءهم على المقالات. واذكر أن أحد الاعضاء نسي فوضع اسمه وعوقب على ذلك وبقيت الاسماء التي تكتب فيها سّرية.

في لبنان كان (توفيق حوري) هو الذي يقوم بالاشراف عليها، وفي الكويت الاخ خليل الوزير هو الذي استطيع ان اقول اكثر من كتب بها واقنع الآخرين بالكتابة فيها، ومنهم أنا وذلك قبل أن ادخل عضواً في حركة فتح، وكان صدورها بشكل شهري.

أما الأخ (هاني الفاخوري) فقد كان من أهم الاشخاص الذين جرى استقطابهم في لبنان، ليكون قيادة اقليمية في لبنان لحركة فتح ، فلم يكن استقطابه الأساسي من اجل المجلة بل من اجل الحركة كما كان يقول الاخ خالد الحسن (رحمه الله) نحن علينا ان نستقطب هذه الزهرات من أجل فلسطين.

اذكر على سبيل المثال، في الكويت من قال: استطيع ان آتي لكم بجميع موظفي كراج الاشغال العامة وعددهم ٥٠ . فقال له المسؤول الفتحاوي: لا نحن لا نريد الـ ٥٠ شخصاً نحن نريد أفضل ثلاثة منهم ليكونوا طليعة قيادة، هؤلاء هم فقط الذين نريدهم لاننا نعرف مستقبلاً في المرحلة التي نخرج فيها من السرية الى العلنية الجماهيرية هؤلاء الثلاثة هم الذين سيقودون الـ ٥٠ شخصاً.

نحن في مرحلة التأسيس السّرية نذهب الى النوع وليس الى الكم.

ولذلك في الكويت كان ينظر أولا لمن يمكنه أن يفيد حركة فتح. فمثلاً كان في الكويت الأخ هاني

القدومي الذي كان سكرتيراً لأمير الكويت عبد الله السالم الصباح، يستطيع ان يستخرج لنا التأشيرات بحكم موقعه، فكانت فتح تركز الضوء عليه. وعادة يستقطب هؤلاء الاشخاص بشكل سري حتى يصبح كادراً في حركة فتح، ومن كان منهم لا يريد أن يكون داخل خلية تنظيمية كنا نطلق عليه مصطلح (ناظم) ويمكنه ان يكون غير ملتزم باجتماعات الحركة. هذا ما كان يسمى (ناظم).

وعلى أساس هذه الفكرة بالاستقطاب للنوع عملت حركة فتح في الكويت على استقطاب زهرات الشعب الفلسطيني، وكبار المفكرين والكفاءات من الشعب الفلسطيني.

فعلى سبيل المثال أُرسل إلي عادل عبد الكريم وعبد الله الدنان لاقناعي بدخول الحركة، واستخدم نفس الاسلوب مع الاخ صلاح خلف، وكذلك رجل مثل (خالد الحسن) رحمه الله الذي كان زعمياً لحزب التحرير الاسلامي، لم يكن احد يستطيع اقناع هذه الشخصية الفكرية الكبيرة غير اشخاص مثل عادل عبد الكريم وعبد الله الدنان، وكذلك الاخ علي الحسن من زعماء الاخوان المسلمين لا احد يستطيع ان يقنعه إلاّ من يمتلكون ثقافة عالية وقدرة على الاقناع.

لقد استقطبوا الكثير من هذه الكفاءات المتميزة بنفس هذا الاسلوب في سوريا. كانت اللقاءات والحوارات في الفكرة هي التي اقنعت اشخاصاً مثل محمود الخالدي ان يدخل الحركة وكذلك الدكتور حسام الخطيب الذي كان يوماً ما في اللجنة المركزية لحركة فتح هو ومحمود الخالدي.

وفي ليبيا جرى استقطاب للدكتور محمود ابو الفخر وكمال السراج (أبو نبيل) وفي لبنان ارسلوني لألتقي بالاخ زهير العلمي الذي كان معنا في رابطة الطلاب الفلسطينيين في القاهرة. كان رجل اعمال جرى استقطابه واصبح ذات يوم رئيساً للصندوق القومي الفلسطيني.

هذا الاسلوب في السرية الذي استخدم في مرحلة التأسيس حمى الحركة الى أن استقرت ووقفت على قدميها. طبعاً جرى الذهاب الى الاردن، وتم فيها استقطاب الشيخ (محمد ابو سردانة) وابو ماهر (غنيم) وغيرهم. وفي الداخل كانت عملية الاستقطاب اكثر سرية بحكم الوضع والظروف وكذلك في قطر كان الاستقطاب يتم بسرية عالية.

ومن الطريف ان المدرسين الذين كانوا في الخليج ويعودون الى قطاع غزة في الاجازة الصيفية، وكان منهم الاخ ابو اياد والاخ سعيد المسحال وكمال عدوان يجتمعون للنقاش ويقول الاخ ابو اياد انهما اي سعيد المسحال وكمال عدوان حاولا ادخالي في حركة موجودة في قطر، فقمت بدوري اشرح لهم عن التنظيم والحركة التي اوجدناها في الكويت، وهي حركة التحرير الوطني الفلسطيني وانني عضو فيها، وكذلك ياسر عرفات وابو الاديب فاقتنعوا من حديثي ان التنظيم في الكويت

اكبر ومنظم اكثر واشمل واعلنوا انضمامهم فوراً لهذا التنظيم وبعد عدة حوارات ولقاءات اصبحا عضوين في الحركة.

وابرز من دخل اللجنة المركزية في تلك الفترة ايضاً (ابو يوسف النجار) رحمه الله، والاخ محمود عباس، وكان معهما في لجنة الاقليم في قطر الاخ رفيق النتشة، والاخ سليمان الشرفا بالإضافة الى الاخ سعيد المسحال والاخ كمال عدوان.

بالنسبة للاخ كمال عدوان، عمل في السعودية قبل ذهابة الى قطر وبدأ فيها بنشر الفكرة، فقد كان معايشاً معنا لتجربة المقاومة الشعبية في غزة، وتحمس لهذه الفكرة الاخ الحاج مطلق، والاخ محمد علي الاعرج (أبو الرائد)، وهذان جاءا إلينا في الكويت أكثر من مرة، واجتمعا مع قيادة الحركة ثم تم اقتراح ان يكون لنا ولهم تنظيم واحد وليس تنظيمان في السعودية والكويت، واندمجنا في تنظيم واحد، واعتبر الاخوة في السعودية فرعاً من الحركة او اقليماً.

كان أيضاً هناك ماجد أبو شرار، وعبد العزيز السيد، وسليمان ابو كرش، وعدد من الكفاءات لا بأس به.

لا بد من انصاف الخلية الاولى للحركة، التي عاشت مرحلة متعبة للتأسيس ، ووضعت هي ما سمي (بيان حركتنا) وهو البيان الذي يقدم للعضو في الحركة.

كان الاساس في العمل، الاخلاص للفكرة، وليس للشخص وهذا ما تميزت به الخلية الاولى في حركة فتح، لم يكونوا يقولون ان فلاناً كتب هذا والآخر كتب هذا، كانت الانا غير موجودة وانكار الذات صفة من صفات العضو، ولذلك لم يقل أي احد منهم من كتب (بيان حركتنا) او غيرها فأي واحد منهم كان يمثل الجميع.

وظهرت فيما بعد اقوال بأن ثلاثة امتلكوا القدرة على الكتابة في تلك المرحلة وهم عادل عبد الكريم، خليل الوزير، عبدالله الدنان، وربما هم الذين صاغوا أدبيات الحركة والتي ظهرت في المجلة ثم في كتابة (هيكل البناء الثوري) .

وقبل اصدار هاتين النشرتين الهامتين، اتفقت الخلية الاولى على ان تسمي التنظيم السّري الجديد حركة التحرير الوطني الفلسطيني وكان اختصارها بعد حذف كلمة الوطني (حتف)، والتأثير الاسلامي كان لا يزال موجوداً ومؤثراً داخل الخلية الاولى، فوجدوا انه ليس من اللائق ان تسمى الحركة ، حتف وعلينا ان نعود الى الآية الكريمة (إذا جاء نصر الله والفتح) فلنسمي هذه الحركة حركة فتح.

تاثير الثورة الجزائرية على الحركة

عندما انتصرت الثورة الجزائرية جرى الاتصال بها وأرسلت الحركة الاخ جمال عرفات ، الشقيق الاكبر للأخ ياسر عرفات والذي عمل بحكم وجوده في القاهرة مع حركات التحرر في دول المغرب العربي ، وقد أوجد صلة بينه وبين بعض القادة الجزائريين الذين كانوا يقيمون في القاهرة فكان مرحباً به من قبل هذه القيادات التي بعد انتصار الثورة الجزائرية. رحبت به وعرضت عليه أن يفتح مكتباً في الجزائر، لحركة التحرير الوطني (فتح).

اذكر على أثر ذلك حصل اجتماع للجنة المركزية سنة ١٩٦٣ وكنت حاضراً فيه. شعرت في ذلك الاجتماع بحيرة الاخوة في من سيذهب الى الجزائر ليكون مديراً لمكتب الحركة هناك؟

كان معظم الموجودين يشغلون وظائف عليا في الكويت، وبالتالي التفرغ ليس سهلاً. كان الاخ ابو جهاد قد تأخر قليلاً عن الاجتماع وعندما دخل علينا قال: لا لزوم لهذا الموضوع على جدول الاعمال.

لقد قدمت استقالتي من الوظيفة وقررت ارسال زوجتي الى غزة، وانا الذي سأكون مديراً لمكتب فتح في الجزائر.

طبعا قرار ابو جهاد أخرج الجميع من مأزق من سيذهب الى الجزائر؟

عندما اتذكر هذه الواقعة التي لا تفارق ذهني في موقف هذا الرجل ، وكيف انه أول من ضحى، اتذكر فوراً طرفة بن العبد حين قال:

إذا القوم قالوا من فتى خلت انني عنيت فلم أكسل ولم اتبلد.

الحركة ومنظمة التحرير الفلسطينية

آتي الآن الى الحركة ومنظمة التحرير الفلسطينية، لقد علمنا انه تم الاعلان بتكليف السيد احمد الشقيري بأن يكون مندوباً لفلسطين في جامعة الدول العربية، ثم بعد ذلك تم تكليفه بانشاء كيان فلسطيني. هنا خلقت لدينا بلبلة في صفوف قيادة حركة فتح فالحركة في ذلك الوقت تستعد لاطلاق الرصاصة الاولى، وكانت القيادة تتواصل مع سوريا تجس نبضها ماذا لو قمنا باطلاق الرصاصة الاولى؟ وبدأنا الكفاح المسلح لتحرير فلسطين؟

فأجابنا الاصدقاء في سوريا اننا في سوريا نستطيع الدفاع عن أنفسنا، فلن نخشى قيامكم بهذه الخطوة وكانوا مشجعين للحركة.

اما في مصر كانت الحركة قد فشلت في الوصول الى الرئيس جمال عبد الناصر وكلما كانت الحركة تطلب مقابلته يطلبون منا أن نقابل صلاح نصر رئيس المخابرات المصرية في ذلك الوقت.

وكان قرار مركزية فتح اننا لن نقابل إلاّ رئيس الدولة ولم نتوقف عن المحاولات مع الاخوة في مصر فكانوا يقولون لنا انهم وحدهم باستطاعتهم الانتصار على اسرائيل واحتلالها وبالطبع كانت هذه مبالغة في ثقتهم بأنفسهم.

فشعرت حركة فتح ان قيام المنظمة ربما يكون ردة فعل على محاولاتنا في جس نبض المصريين، وان النظام العربي الرسمي يريد ان يكون العمل الفلسطيني تابعاً لهذه الانظمة، وكنا نشعر ان هناك محاولة استباق للامور في هذا المجال، واذكر ان الحركة بأغلبية صوت واحد وافقت على التعامل مع منظمة التحرير بشكل ايجابي، وان هذه فرصة لا بد من التعامل معها وان نقوم بدعمها، بل ونحاول الدخول في هذه المنظمة. واذكر ان الحركة اوفدت الاخ ابو عمار وشخصاً آخر لا يحضرني اسمه الى ليبيا لمقابلة الشقيري الذي كان في جولة في البلاد العربية، وكان هذا سنة ١٩٦٤ وفي المقابلة قال الاخ ياسر عرفات للشقيري: نحن نحضر لانطلاقة في سنة ١٩٦٥ ، ولكننا على استعداد ان نقدم هذا الموعد ثلاثةِ أشهر، وأن نعلن انك انت على رأس هذه الانطلاقة والتي ستنطلق من الاراضي المحتلة. نريدك أن تذهب الى مؤتمر القمة العربية وتقول للذين ينتظرون منك معرفة ماذا فعلت في التشكيل؟

ان تقول لهم انا زعيم هذه الانطلاقة المسلحة.

ونحن في حركة فتح سنضع كل جهودنا وطاقاتنا، ان تكون انطلاقتنا هذه باسم منظمة التحرير الفلسطينية التي تزمع انت الاعلان عن تشكيلها.

كان رد الشقيري: أنا والدي شيخ فدعوني اعمل صلاة استخارة ثم اجيبكم غدا.

وفي اليوم الثاني قال: لقد عملت استخارة وقد وجدت ان من واجبنا ان ننتهز الفرصة المعطاة لنا من الدول العربية، ولكني أعدكم أن التعامل معكم سيكون جزءاً اساسياً من هذه المنظمة وأن نتشاور في طريق النضال، وان لا يحصل اي تصادم بيننا. هذا ما حصل في سنة ١٩٦٤ وقبل أن يذهب الشقيري لحضور مؤتمر القمة والذي عقد في صيف سنة ١٩٦٤ كانت حركة فتح اذن ايجابية مع منظمة التحرير الفلسطينية.

ثم جرى اكثر من لقاء بين الشقيري وبين قيادة حركة فتح في الكويت، وتم خلال هذه اللقاءات ان يكون لنا وكما وعدنا الشقيري ٢٥ عضواً من الحركة داخل المجلس التأسيسي (المؤتمر التأسِيسي)

ووصل العدد التأسيسي الى ٤٠٠ شخص، لكن الذي حصل عندما عاد الشقيري الى مصر تغيرت الامور، فهناك من ينظر الى هذه الحركة على انها حركة اخوان مسلمين ولذلك نجحت احدى الجهات في مصر في اقناع الشقيري بالغاء الاتفاق، وعدم الايفاء بالوعد. ومثلت فتح في المجلس الوطني بـ ٧ اشخاص فقط ، وذهب الاخ كمال عدوان دون دعوة ودخل رغماً عنهم الى الجلسة محتجاً على عدم انصاف حركة فتح والغاء ما اتفق عليه.

ورغم ذلك لم تتدخل فتح، وتركت للشقيري حرية ان يختار كما يريد. ولم تحاول الاصطدام به، وكان مثال الجزائر نموذجاً لتعامل الحركة مع المنظمة.

لقد قلنا للشقيري: لن نقبل أن يكون لفلسطين مكتبان في الجزائر، ونحن نقدم لك مكتب فتح ليكون مكتباً للمنظمة في الجزائر، وكان يرأس هذا المكتب منذ افتتاحه الاخ خليل الوزير، وحين قمنا بهذا العرض قال الشقيري لنا : أن الاخ خليل الوزير سيبقى رئيساً للمكتب، وسأصدر قراراً بتعيينه مديراً لمكتب المنظمة تقديراً للمأثرة التي قدمتموها، لكن الذي حصل. ان اللجنة التنفيذية التي كانت مع الشقيري كانت على الداوم معارضة لقراراته، وقبل ان يصدر الشقيري قراراً بتعيين خليل الوزير مديراً للمكتب، كانت اللجنة التنفيذية قد اجتمعت، واتخذت بدورها قراراً عينت فيه شخصاً آخر، وقام هذا الشخص باضطهاد موظفي المكتب الذين كانوا جميعهم من فتح فاضطر الاخ خليل الوزير ان يترك المكتب ويذهب الى بيته، ومن هناك كان يدير الدورات العسكرية والعلاقات المتينة والقوية التي اقامها في الجزائر.

وعندما جاء الشقيري لزيارة هذا المكتب حرص خليل الوزير ان يكون في وداعه، وقال له الشقيري: لقد خذلني اخواني في اللجنة التنفيذية ولدي شاغر في السودان سأصدر قراراً بتعيينك هناك مديراً لمكتبنا.

فرد عليه ابو جهاد: عندما تكون مصلحة حركة التحرير الوطني الفلسطيني "فتح" ان اكون فراشا في الجزائر فأفضل ذلك على أن اكون مديراً لأي مكتب من مكاتب منظمة التحرير في أي مكان.

الانطلاقة والخلاف

في صيف سنة ١٩٦٤ تم اجتماع لمجلس ثوري موسع في دمشق حضره معظم اعضاء اللجنة المركزية، وحدث خلاف كبير في ذلك الاجتماع، وكانت الأقلية وعلى رأسها ياسر عرفات تدعو الى انطلاقة الكفاح المسلح في ١/١/ ١٩٦٥ وكان عادل عبد الكريم وعبد الله الدنان ومعهم باقي اللجنة المركزية وأعضاء آخرون موجودين في الاردن يقولون ان الاستعدادات غير كافية، وان التوقيت مغامرة

وعلى ياسر عرفات ان يكبح جماحه لأنه متحمس اكثر مما يجب.

وعادت اللجنة المركزية الى الكويت وهي تحمل بذور الاختلاف معها حول هذا الموضوع ، وكان رأي ياسر عرفات ان من يريد التضحية بنفسه لا يحتاج الى استئذان، وان موضوع الكفاح المسلح لا يحسم بالأقلية والأكثرية، وانه متأكد ان الموعد مناسب، والامكانات الموجودة كافية وكان يعتنق فكرة : اذا كان المال قليلاً فبعد الانطلاقة سيأتي هذا المال من كل الذين سيؤمنون بهذا العمل المسلح.

في الكويت كبر الخلاف، واشتد داخل اللجنة المركزية بخصوص هذه القضية ثم اخذوا قراراً بإرسال من يدرس الأمور ووقع اختيارهم علي.

قالوا : سليم الزعنون قاض، وهو ليس معاصراً كثيراً لهذا الخلاف. ولم يكن موجوداً معنا في سوريا. نرسله الى الاردن حيث ان الانطلاقة ستكون من الاردن وغزة ولكن الاساس من الاردن ونرى بعد عودته ماذا يمكن ان نفعل ؟

ذهبت الى عمان في ١٩٦٤/١٢/٢٣ وقابلت الشخصيات التي ذكروها لي، ثم نزلت الى القدس حيث التقيت برجل مهم كان في منظمة المؤتمر الاسلامي اسمه (رمضان البنا) وكان رأيه مشجعاً للانطلاقة. وفي نابلس قابلت شخصا من عائلة (السفاريني) يعمل محامياً وكان اللقاء معه سرياً فقد كان الوضع الأمني مقلقاً وكان ايضا متحمساً.

وبعض الذين قابلتهم قالوا لي: بعد الانطلاقة ستكون هناك اعتقالات ونحن بحاجة الى ٥٠ ألف دينار لنكون مستعدين لدفع نفقات أسر المعتقلين، وطبعاً في ذلك الوقت لم تكن حركة فتح تملك مثل هذا المبلغ المرتفع.

كنت قد نزلت في فندق (بارك الجديد) في يوم ٢٨ /١٢ عندما فوجئت بشخص يقرع باب غرفتي، وإذا به ابو يوسف النجار، وكنت أكتب في تقريري للحركة وكان تقريري بناءً على اللقاءات ايجابياً وخاصة بالنسبة لمن يريدون الانطلاقة فسألني ابو يوسف: الى أين وصلت؟

ثم اخذ الورقة وبدأ يقرأ في التقرير ثم قال لي: انت مرغوب بك لدى شخص معين تعال معي.

ذهبت معه الى (فندق فيلادلفيا) وكان من أفضل فنادق عمان، ومن بعيد قبل ان أصل الى الغرفة شاهدت شخصاً يرتدي ملابس باكستانية وعندما اقتربت منه اذا به الاخ ابو عمار.

قال ابو يوسف النجار فوراً: أبو الأديب من رأينا، ارض عنه، كان ابو عمار ضد انتدابي لهذه المهمة

وكان قد جاء عن طريق مطار قلنديا حيث السياح ياتون الى هذا المطار بكثرة، فجاء متخفياً وعندما قال له ابو يوسف: ان ابو الاديب معنا قال لي: انت حبيبي انت الان انضممت الى فريق المجانين فأنا ومن معي من هذا الرأي. اخوانك في المركزية يقولون عنهم مجانين، وانت الآن معنا بأن نبدأ الانطلاقة.

فقلت له : يا ابو عمار هناك شاعر قال:

مجانين الا ان سرّ جنونهم عظيم على اعتابه سجد العقل.

وكان دائماً يعتز بهذا البيت ويقول لي: اسمعني بيت الشعر الذي فيه عن المجانين الذين سجد لهم العقل. المهم سألته: لماذا لم تنتظروا عودتي لأقدم تقريري لكم؟

فقال ابو يوسف: اخوك ابو عمار (بصلته محروقة) وظل يصر على رأيه ثم استنجد بنا في قطر، فجئت انا وابو مازن الى الكويت وحضرنا اجتماعاً للجنة المركزية وهدانا الله الى حل. هذا الحل (لا يموت الذئب ولا تفنى الغنم) فهذا الرجل المصر على رأيه على استعداد لتحمل كافة النتائج، واتفقنا ان تتم الانطلاقة تحت اسم (العاصفة) فاذا نجحت الانطلاقة نستمر ونعلن انها الجناح الضارب لحركة التحرير الوطني (فتح)، واذا فشلت الانطلاقة يتحملها ياسر عرفات ومن وافقوا معه هذا اولاً.

وثانياً: هم لا يريدون ان ينفرد الاخ ياسر عرفات في القيادة وحده، فقرروا ان نكون نحن الثلاثة قيادة نقود عملية انطلاقة العاصفة: ياسر عرفات، سليم الزعنون ابو يوسف النجار.

طبعاً ابو عمار قال: انتم الان شركاء معي في القيادة. فاجتمعنا وقدنا المسيرة معه عشرة دقائق فقط، وبعد عشرة دقائق قال لنا: انا لا يهون علي بكما انت مدني وانت الآخر مدني، وهذه الانطلاقة ستكون خلفها اعتقالات. انا استطيع ان احمي نفسي. ها انا قادم من المطار بجواز باكستاني واسم مستعار، ولا أحد يعلم عني شيئاً ولا يجوز ان نضع البيض في سلة واحدة.

ابو الاديب سيعود الى الكويت، وهناك سيدفع كل عضو ٥٠ ديناراً عند الانطلاقة كما قررنا ومن لا يدفع يفصل.

اما ابو يوسف فيأخذ البيان الذي كان معداً ويذهب الى سوريا ولبنان، وبالذات لبنان هناك رؤوساء تحرير صحف نحن متفقون معهم من قبل ليقوموا بنشر بياننا عندما يصدر. وبالفعل سافرت انا الى الكويت، وابو يوسف النجار ذهب الى سوريا ولبنان وجرت الانطلاقة. طبعاً في اليوم الاول

فشلت الخطة لكن في اليوم الثاني كانت التفجيرات وعملية (عيلبون) الشهيرة. انتشر الخبر وانقلبت المنطقة بالحدث.

اجتمعت القيادة العربية الموحدة بقيادة (علي علي عامر) الذي أصدر أمراً بالقاء القبض على رجال العاصفة حيثما وجدوا، وأصدرت بعض الاحزاب نشرات، فلم تكن الفصائل قد تشكلت حتى ذلك الوقت، وايضاً تحركت مراكز الاستخبارات في المنطقة، ونشرت بأن هؤلاء مجموعة من الماركسيين المتسترين في منطقة الشرق الاوسط، ولا يوجد لهم اسماء على قوائم الماركسيين الموجودة لديهم وتصاعدت الاتهامات المتعددة وانتشرت.

ولكن لجان نصرة فلسطين التي كنا قد أنشأناها في كل مكان بدأت عملها، ففي الكويت لجنة نصرة فلسطين التي ضمت شخصيات هامة وكبيرة من الكويتيين مثل الاخ عبد العزيز الشايع والاخ عبد العزيز الصقر. هؤلاء عندما اجتمعنا معهم قبل الانطلاقة قال أحدهم: انتم قدمتم لجمع فلوس مثل الذين ياتون لجمع تبرعات لمسجد او مدرسة. رد عليهم عادل عبد الكريم بعبارته المشهورة: نحن نصر على ان تكون الرصاصة الاولى معتمدة على الدم الفلسطيني والمال الفلسطيني. نحن جئنا فقط لنتفاهم معكم اذا انطلقت هذه الرصاصة سيكون هناك من يقف وينشر عنها اتهامات متعددة. نريدكم لتلك اللحظة ان تقفوا وتقولوا عنا (هؤلاء فتية آمنوا بربهم ونحن نعرفهم). هذا كل ما نطلبه. نحن الان لا نطلب مالاً ونعرف ان المال سيأتي بعد ذلك من الذين سيؤمنون بهذه الانطلاقة واستمرارها.

هكذا كان التعامل بكرامة مع كافة لجان نصرة فلسطين، وهذه اللجان استمرت تؤيد حركة فتح سنوات طويلة دون انقطاع.

بعد الانطلاقة كان لنا مناصرون في سوريا وكان من بينهم ضباط. كانوا فعلاً يؤيدوننا. قدموا دعماً للحركة، ولذلك استطعنا ان ننشيء مجلس طوارئ في سوريا كان فيه، الاخ ياسر عرفات والاخ خليل الوزير والاخ ابو علي اياد والاخ عبد الكريم العكلوك والاخ ابو صبري.

مجلس الطوارئ هذا الذي قاد الحركة ضرب للأسف عندما دخل الحركة احمد جبريل ومجموعته كاعضاء في حركة فتح، وقد دخلوا الحركة في أواخر سنة ١٩٦٥ وقرروا الاندماج معنا واعتمدت اللجنة المركزية أحمد جبريل وشخصاً اخر اسمه علي بشناق كان ضابطا كبيرا سابقا واصطدموا من البداية مع الاخ ابو عمار وابو جهاد في سوريا ولكنهم دخلوا ايضا مجلس الطوارئ.

وكان خطأ آخر من بعض قيادة الحركة ومنهم عادل عبد الكريم وعبد الله الدنان رغم تقديري

وانصافي لهما، الا انني امام التاريخ اقول انهم اخطأوا في ادخال ضابطين آخرين الى مجلس الطوارئ بالاضافة الى احمد جبريل وهما يوسف عرابي ومحمد حشمة. تبين لنا ان هذين الضابطين لم يتخليا عن عضويتهما في حزب البعث ولا عن ارتباطهما مع نظام المخابرات السوري.

وكانت النتيجة ماتم سنة ١٩٦٦ اعتقد في ابريل، حين حصلت حادثة يوسف عرابي حيث اشتبك مع الاخوة وتم بينهم اطلاق الرصاص في الغرفة، وقتل على الاثر يوسف عرابي ومحمد حشمة واتخذ مقتلهما ذريعة لاعتقال ابو عمار وابو جهاد وابو العبد العكلوك وعدد من قيادة حركة فتح.

بالطبع اللجنة المركزية أصيبت في عدم توازن بسبب ما حدث. اذكر ان الاخ ابو اياد كان مبتعداً عن الحركة لا يمارس عمله فيها لسبب ما، ولكن الحادث أعاده ليحضر اجتماعات اللجنة المركزية وابدى استعدادا لحل الازمة أرسلنا وفداً الى سوريا، تشكل من الاخ عبد الله الدنان والاخ ابو اللطف وحاولا ان يصلا الى حل ولكنهما فشلا في ذلك.

ولا بد ان اسجل للاخت ام جهاد موقفاً مشرفاً، فقد كتب الاخوة في الحركة عريضة للرئيس حافظ الاسد الذي كان آنذاك وزيراً للدفاع. عندما قرأتها ام جهاد قالت: ان هذا استجداء، وانا أفضل ان يبقى زوجي في السجن على أن تقدم هذه العريضة.

المهم بعد فشل الوفد الاول قمنا بتشكيل وفد آخر من الاخوين فاروق القدومي والاخ صلاح خلف، وفعلاً ذهبا الى سوريا واستطاعا ان يخففا من وطأة الامور. ثم تدخل القدر عندما حصلت حادثة ابن الاخ ابو جهاد الصغير نضال، حين سقط من شرفة المنزل وتوفي، وأخرجوا ابو جهاد من السجن ليقوم باجراءات دفن طفله، ولكن السوريين قرروا التغاضي عن اعادته الى السجن، فكانت فرصة لابو جهاد استطاع ان يتحرك بشكل كبير جداً، وبدأ اتصالاته مع الاخوة في كل مكان الى أن استطاع الافراج عن الاخوة جميعاً باستثناء ابو العبد العكلوك الذي قدم للمحاكمة وتمت براءته من القضية، أما الاخ الذي تبادل اطلاق النار مع يوسف عرابي في الحادثة وهو عبد المجيد الزغموت فقد بقي في السجن حتى وفاته.

اذكر علاقاتنا مع الاخ جورج حبش. من الطريف ان الاخ جورج حبش كان يريد ان يعرف حقيقة هذه الحركة، وكانت المعلومات التي لديه عنا مصدرها مصر اننا حركة اخوان مسلمين، وطبعا كان القوميون العرب مقربين من النظام المصري، ويبدوا انه انتدب من قبل القوميين العرب لمعرفة حقيقة هذه الحركة بأن يقوم بالالتقاء معها.

فجاء الى الكويت سنة ١٩٦٣، واتصل مع الاخ هاني القدومي، والاخ هاني لم يكن متفرغا في الحركة،

فكما قلت كان (ناظم) مع الحركة، فاتصل بنا وابلغنا بان الاخ جورج حبش يريد ان يلتقي باعضاء الحركة. قام الاخوة بتنظيم اللقاء ودعوا عدداً من اعضاء القيادة وأخروا حضور محمود فلاحة إلى ما بعد ربع ساعة من بدء الاجتماع، وبدأوا بتقديم أنفسهم: خالد الحسن الذي كان رئيساً لحزب التحرير والاخ فاروق القدومي الذي كان في حزب البعث، وهذا كان في حركة الاخوان المسلمين، وهذا مستقل. هؤلاء جميعهم التقوا على فكرة حركة فتح التي هي فوق الاحزاب، ثم دخل محمود فلاحة فقام جورج حبش واحتضنه وقال له: انت من هذه الحركة يا محمود؟.

فقال له محمود: عندما كنا مع بعضنا حولتم التنظيم الى الماركسية، انا اعجبت بهؤلاء الشباب ولذلك انا معهم في هذه القيادة.

وخرجوا من الاجتماع وقبل الخروج قال عبد الله الدنان لجورج حبش اذا لم تستطيعوا ان تنضموا إلينا وان تخلعوا اردیتكم الحزبية كما فعلنا فليس أقل من أن تخلقوا داخل حركة القوميين العرب فصيلاً فلسطينياً يتخصص من اجل العمل لفلسطين.

وخرج الدكتور جورج حبش مقتنعاً ان يكون لديهم فصيل فلسطيني لكنه اصطدم مع رفاقه في الكويت وقالوا له: انت تريد ان تعيدنا من القومية الى الاقليمية.

وبالتالي فشلت هذه الرحلة للدكتور جورج حبش.

وضعي في حركة فتح

كنت من سنة ١٩٦٢ الى سنة ١٩٦٣ عضواً في اللجنة السياسية التي كان يرأسها الاخ فاروق القدومي.

وفي سنة ١٩٦٤ كلفت بمهمة أمين سر لجنة التنظيم، وكان في هذه اللجنة الاخ ابو اياد والاخ علي الحسن.

ثم بعد تفرغ الاخ أبو السعيد (خالد الحسن) الذي كان هو معتمد اقليم الكويت، تسلمت بعده معتمد اقليم الكويت حتى سنة ١٩٧٥ مع بقائي عضواً في اللجنة المركزية لحركة فتح، وفي نفس السنة كلفت أن اكون ممثلا للحركة في الخليج بالإضافة الى الكويت ولا بد من التنويه ان الكويت هي النواة التي ضمت اكبر تنظيم في حركة فتح والاكثر امتثالاً للنظام الذي وضعته الحركة.

كان في الكويت ١٣ لجنة منطقة. كل منطقة كانت تضم ١٣٠ عضواً، وكانت هناك خلايا في المنطقة وأجنحة وبعد الخلية والجناح هناك منطقة وكل لجنة منطقة عبارة عن ٧ أو ٨ اشخاص يأتون

بالانتخاب.

وعندما دخلت الى اللجنة المركزية، كان فيها ستة أعضاء: ياسر عرفات، ابو جهاد، عادل عبد الكريم، يوسف عميره وصلاح خلف، وعبدالله الدنان. وكان يوسف عميرة من اهم العناصر التي كانت تأتينا بالمناضلين وكان الاخوان المسلمون يصبون غضبهم على ثلاثة من اعضاء اللجنة المركزية هم: يوسف عميرة، سليم الزعنون، وصلاح خلف، فقد اعتبروا اننا سحبنا معنا مئات من الاشخاص الذين كانوا في حركتهم.

كان الاخ عادل عبد الكريم والاخ عبد الله الدنان مدرسيْن في الكويت، وكانا في اللجنة المركزية ثم دخلت انا والاخ خالد الحسن في نفس الوقت الى اللجنة المركزية ومن قطر كان الاخ أبو يوسف النجار، والاخ ابو مازن (محمود عباس).

ومن الاردن ابو ماهر.

ومن سوريا الاخ محمود الخالدي ولفترة غير طويلة (الدكتور حسام الخطيب) الذي لا بد من ذكر زيارته لنا في الكويت حاملاً رسالة من الحكومة السورية. جاء واجتمع مع القيادة وقال لنا : ان الامور وصلت الى ان حركة فتح قد انتهت، وهناك مطالبة باعادة ياسر عرفات وابو جهاد الى غزة باعتبارهما من غزة وفقط يسمح لكم في سوريا بمكتب واحد هو مؤسسة أسر الشهداء ولا غير.

الاخ ابو عمار والاخ ابو جهاد هما اول اثنين في اللجنة المركزية. كان الانضمام في البداية فردياً فكان الثالث يوسف عميره واتسعت الدائرة دخل عادل عبد الكريم ، عبد الله الدنان ، فاروق القدومي، وهناك قول أن فاروق القدومي كان قبل الدنان أما ابو اياد وهذا للتاريخ كان دائما في تنافر بينه وبين الاخوة عادل عبد الكريم وعبد الله الدنان، منذ التحق في الحركة فكان وضعه معي في لجنة التنظيم في سنة ١٩٦٤.

ثم تضايق من هذا الوضع وابتعد، ولم يتحرك ابو اياد الا عندما دخل ابو عمار وابو جهاد ، الى السجن، واصبحت اللجنة المركزية مهزوزة، فبدأ بالتحرك هو والاخ ابو اللطف في اتجاه اخراجهم من السجن وذهبا موفدين .

وبعد خروج القيادة من السجن كان الوضع صعباً لدينا، واصبح هناك شك تجاه الحادثة فيوسف عرابي لا يمكنه التحرك دون تفويض من احد اعضاء اللجنة المركزية بأن يتحرك.

فاتفقنا انا وابو السعيد ان نقوم بجمعهم في منزل نبيل الشريف في الكويت، وقلنا لهم: يا اخوان ان

لجنة مركزية مقرها الكويت وتقود عملاً مسلحاً في فلسطين وتحاسب مجلس الطوارئ الموجود في دمشق على بعد ألفي كليومتر، ان لجنة بهذا الشكل غير قادرة على العطاء والاستمرار.

ها نحن جالسين جميعنا فمن يريد أن يكون قائداً فليتفرغ ويذهب الى ارض المعركة، ومن يريد أن يبقى في الكويت فهو عضو اقليم أو معتمد اقليم فقط. وسألنا أولاً عادل عبد الكريم: هل تريد ان تتفرغ؟

قال: لا

ثم سألنا عبد الله الدنان: هل تريد أن تتفرغ؟ اجاب بدوره لا.

ثم الاخ ابو السعيد: هل تريد التفرغ؟ قال: لا .

ثم ابو الاديب: قلت لا.

قلنا: اذن سنكلف ابو عمار ، ابو اياد، ابو جهاد، ان يكملوا اعضاء اللجنة المركزية وسنكون نحن خارج اللجنة المركزية.

وفعلاً هذه الفكرة انهت الاشتباك، وانتهى عمر عادل عبد الكريم في هذه الحركة في الجزء الاخير من سنة ١٩٦٦ وكذلك عبدالله الدنان.

وشهادتي في هذا الرجل عادل عبد الكريم للتاريخ انه رجل مثالي. اذكر ما قاله حين ذاك: (ان هذه الحركة اي فتح بئر شربنا منه ماء ولن نرمي فيه حجراً).

لن تسمعوا مني اية كلمة ولن اكتب مذكرات

وحتى حين كان يطلب منه ان يكتب اية مذكرات او مقابلات كان يرفض تماماً، وكذلك عبد الله الدنان الذي كان أقل التزاماً ثم بعد فترة اصبح مع القيادة العامة.

هنا اصبحنا على أبواب المؤتمر الثالث للحركة واتسم بوجود لجنة مركزية جديدة وبدأ الانتخاب من هذا المؤتمر كما تم في المؤتمرات الرابع ، والخامس، كلها عبر الانتخاب.

لقد نجحت حركة فتح واصبح ياسر عرفات رئيساً لمنظمة التحرير الفلسطينية، وجاء الينا زيارة في الكويت، وطبعاً تدفق الجميع لرؤيته، وبعد انتهاء الزيارات التي تمت في بيت الاخ خالد الحسن قال لي: اريدك ان تأخذني في مشوار خاص. اخذته في السيارة وقلت له: اين تريد أن اذهب بك؟

قال: اريد أن اذهب الى بيت عادل عبد الكريم وبيت عبدالله الدنان.

قلت له: هذان اللذان اوصلاك الى السجن؟

قال : هذا شيء وهذا شيء.

قلت: هما اللذان يجب أن يأتيا لرؤيتك.

قال: هما لن يأتيا انا اعرف، ونحن علينا ان لا نتنكر للدور الذي قاما به في الحركة منذ بدايتها وحتى آواخر سنة ١٩٦٦.

وفعلاً ذهبنا الى بيت عبد الله الدنان وفتحت لنا زوجته وعانقت ابو عمار، وكذلك اولاده الذين تجمعوا حول ابو عمار وهو اخذ يبكي وهذا المشهد تكرر في بيت عادل عبد الكريم، وهذا يدل على وفاء هذا الرجل في تقديره لدور هؤلاء الاخوة وان علينا ان لا ننكر دورهم حتى نهاية وجودهم في الحركة.

أوراق عربية

مئة عام على "الثورة العربية الكبرى":
لورنس: صديق المصالح الاستعمارية وعدو العرب

د. فيصل دراج*

تمتع الإنجليزي توماس لورانس بصفات متعددة: فهو المغامر والمستشرق والعارف بأحوال العرب والمأخوذ بالبحث عن الآثار والجندي الذي كان حاضراً في "الثورة العربية"، وضابط الاستخبارات الذي أسهم في اتفاقية سايكس بيكو، بعد الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ ـ ١٩١٨ والمولع بالدراجات السريعة التي قتلته عام ١٩٣٥، وصاحب النظر العسكري الاستراتيجي والكاتب الذي أنجز "أعمدة الحكمة السبعة"، الذي رفعه إلى مقام الأدباء الكبار، والإنسان ـ الأسطورة المتناقض الصفات.

بيد أن ما أشهره، على صعيد الرأي الشعبي الإنجليزي والغربي بعامة، ماثل في صورة تثير الغرابة والفضول: كوفية عربية بيضاء تغطي رأسه وعنقه، تمتد في عباءة مذهبة، أو شبه ذهبية، وعقال مذهب من طبقتين، وخنجر جعله يبدو أميراً عربياً. لم تكن تلك الهيئة تأتلف مع وجهه الأبيض، الناصع البياض، وعينيه الزرقاوين وأنفه الدقيق الحاد وشفتيه المزموتين اللتين تعبّران عن الصرامة. والرجل في صورته الهجينة ينظر بإصرار إلى هدف لا يراه غيره، يمتد من عالمه الداخلي المضطرب إلى "مصالح الإمبراطورية".

١. لورانس في كتاب آشر:

كان للرجل، كما قال كاتب سيرته مايكل آشر، صفاته التي تنوس بين الحقيقة والاختراع: الاشتهار بالقسوة المفرطة التي نسبته إلى السادية، والقول بأنه كان رومانسياً لطيفاً لا علاقة له بالقسوة،

---

* كاتب وناقد فلسطيني.

ونعته بالشذوذ الجنسي وبما ينفيه، وقوة الإرادة والضعف الجسدي، ومحبته للعرب وتعاطفه الشديد مع اليهود، وتميّزه بالصدق والكذب معاً،... وما لا يحتمل التأويل تجسد في أمرين: خدمته المتفانية للمصالح الاستعمارية البريطانية، التي جعلت منه بطلاً وطنياً، اشترك في "جنازته" الآلاف من بني قومه وعدد من كبار العسكريين والمسؤولين، وتمثاله الذي صنعه صديقه إيريك لينينجتون، حيث يبدو "مسجّى" بلباس العربي، والموضوع في الكنيسة الأنجلو سكسونية القديمة في ويرهام في دروست، حيث يأتيه آلاف من الزوار كل عام.

استهل مايكل آشر كتابه بقولين للورانس، يكشفان عن أشياء عن نظره إلى نفسه وإلى العالم، جاء في الأول: "القصة التي أخبرك بها من أبهى ما يمكن أن يخبر به إنسان آخر". تشير القصة، بداهة، إلى الشرق العربي وإلى ما عاشه بين العرب، كما لو كان فيها فرادة لا تتكرر كثيراً، وهو الذي ادعى أنه كان بإمكانه أن يسيطر على العرب، الذين خالطهم، حين كان ينقب عن الآثار في شمال سوريا، سيطرة كاملة، وجاء في القول الثاني: "على الإنسان أن يشقى كي يكون راضياً"، دون أن نعرف هل وصل لورانس إلى ما يرضيه، وهو يكتشف الصحراء العربية، أم لم يصل إليه أبداً، هو الذي نعت كتابه الشهير، بعد أن نشره، بالتفاهة.

إذا كان هناك ما يبعث الرضا في نفس لورانس فقائم، بالتأكيد، في تطوافه الطليق في الصحراء العربية، مرضياً فضوله كمغامر ومكتشف، وكمتأمل لوجوه الصحراء في أحوالها المختلفة ذلك أنه قرأ في خريف عام ١٩٠٨ كتاب تشارلز دوتي "الصحراء العربية"، الكاتب الأشهر في مجاله، والذي رأه فيه لورانس: "إنجيلاً في نوعه".

قد يكون في كلمة "الإنجيل" التي استعملها الضابط الإنجليزي، ما يستدعي أمرين: اهتمامه المبكّر بإيمان العصور الوسطى، وما ارتبط به من حملات صليبية على الشرق العربي، وبالقلاع الصليبية في سورية، التي أراد أن تكون موضوع: "أطروحته الجامعية"، ذلك أنه أراد أن يدرس الآثار "الباعثة على التجديد" التي تركها الصليبيون في سورية. إضافة إلى "فنون القتال" في العصور الوسطى التي درسها بعناية. أما الأمر الآخر فيرتبط بإيمانه المسيحي القلق، وهو الذي انتقل من الإيمان كل الإيمان، إلى الشك. فكما يذكر كاتب سيرته، فإن إيمان لورانس بالمسيحية بدأ بالتزعزع منذ عام ١٩٠٨، بل أنه كتب لاحقاً إلى روبرت جريفيز: "إنني أسقط في العدمية، إلى درجة أنني لا أستطيع حتى العثور على إله زائف أؤمن به".

تفرض المناسبة التي أوجبت الحديث عن لورانس، أي الثورة العربية الكبرى، التوقف أمام إشاراته إلى اليهود والعرب، خاصة أنه أسهم في ولادة وعد بلفور، عام ١٩١٧، الذي أقرّ "بوطن قومي لليهود".

فوفقاً لما يورده آشر في كتابه، على لسان إسرائيلي قابله: "لورانس كان صديقاً لليهود، آمن بإسرائيل كوطن قومي لنا، ولهذا لن ننساه أبداً. ص: ٦٢" يعلق آشر قائلاً: "ما قاله الإسرائيلي صحيح كلياً. فمثل كثير من أبناء جيله كان لورانس مستثاراً بفكرة عودة اليهود إلى أراضي أجدادهم قبل ألفي عام: رأى البريطانيون في أنفسهم حراساً سرّيين للزمن، قادرين بفضل ثروتهم وقوتهم على إعادة بناء التاريخ". ولا زالوا يتابعون هذه الحراسة السرية منذ احتلال مصر عام ١٨٨٢ إلى زمن تدمير العراق في زمن توني بلير؟ لم يكن غريباً، إذن، أن يقوم لورانس بزيارته الأولى للجليل في فلسطين عام ١٩٠٩، وأن يستمر في هذه الزيارات إلى أن اطمأن على أحوال "شعب الله المختار" القادمة، وأهدى كتابه إلى "سارة أرنسون"، الجاسوسة اليهودية اللامعة، تقديراً "للخدمات التي قدمتها لبريطانيا".

وفي حدود مزاج متقلّب يتضمن القليل من الصدق والكثير من الخديعة، يكتب لورانس لأمه "إنني عربي العادات"، دون أن يحدّد هذه العادات، ويتخذ من فريدة عقل، من مدينة جبيل اللبنانية، مرشدة له في "الثقافة العربية"، إلى أن يؤكد أن "العربي لا يتعرّف كفرد، إنما يتحدد بعائلته وعشيرته"، الأمر الذي أهّله، كما يقال، أن يصبح "حكماً مقبولا" بين العرب، يثير غيرة العرب أنفسهم.

انطلاقاً من معرفته المفترضة بالعرب، أو من نظرة خاصة به، تهدف إلى "استعمال العرب"، ميّز لورانس، بشكل قاطع، بين العربي القابل للفساد، والعربي كما يجب أن يكون، حيث الأول هو الذي يقلّد "الغربيين" ويتعلّم لغتهم، بينما العربي الجوهري، الذي هو أقرب إلى "المتوحش النبيل"، هو الذي يحتفظ بطبيعته "الأولى"، التي تبتعد عن الغربي ولا تقلّده، ولا تتعلم لغته. لذلك انتقد الفرنسيين وسعيهم إلى تعليم العرب اللغة الفرنسية، التي تفسدهم، بينما المطلوب "إنجليزياً" هو العكس، أي أن يتعلّم الأوروبيون اللغة العربية، هو ما فعله لورانس باجتهاد كبير، دون أن يتقن اللغة العربية. ومثلما كان يكره الفرنسيين كان يكره المصريين، الذي يقلدون الإنجليز- على عكس السوريين، في شمال سوريا، الذين لا يولون لتعلّم اللغات الأوروبية أهلية خاصة.

وواقع الأمر أن لورانس حاول صوغ نظرية في السيطرة على العرب ومفادها: ضرورة أن يتصرف الإنجليزي كالعرب، يتحدّث بلغتهم ويأكل أكلهم وينام مثلهم، ويرتدي من لباسهم، حتى يكاد أن يمحو، ظاهرياً، الفرق بينه وبينهم، إن لم يقنعهم أنه منهم وأنهم من شعبه، وأنه يصدقهم ولا يكذب عليهم، وأنه يدافع عنهم، لأنه ينتمي إلى "قبيلتهم". ولهذا فإن ارتداء لورانس الملابس العربية لم يكن "عملاً استشراقياً"، أو جذباً للنظر والفضول، بل كان "ممارسة كولونيالية" و "فعلاً استعمارياً" نشيطاً، يضعه إلى جانب العرب، ويكون سيداً بين أسيادهم، ويدفع العرب إلى صفة، طالما أنه مؤمن بلغتهم وعاداتهم. أراد في "طرافته المبتذلة" أن يصنع: العبد السعيد، أي العربي الخاضع الذي هو سعيد بخضوعه لإنجليزي أشقر اللون وأزرق العينين، وينام فوق الرمل ويشرب

"حليب النوق". الطريف أنه رأى في العربي الذي يتحدّث الفرنسية "عربياً مبتذلاً"، وفي السعي الفرنسي إلى نشرها "سياسة مبتذلة". وذلك أن المطلوب الحفاظ على العرب كما هم، من دون زيادة أو نقصان، فلهم صحراؤهم الواسعة، وعليهم أن يحتفظوا بالطبع الصحراوي، الذي تفسده الحضارة القادمة من وراء البحار.

ومع أن السيد آشر رأى في موقف لورانس تعبيراً عن رومانسية جامحة، تريد أن ترى العرب كما رأتهم "الذاكرة الرومانسية" التي تحتفي "بالمتوحش النبيل"، فإن ما قصده لورانس كان: إتقان الإخضاع وتوليد عرب ينجذبون إلى "خضوعهم"، وهو ما عبّر عنه "دحّوم"، "صبي لورانس الوسيم"، الذي قال عن سيده الإنجليزي: "نحن نحترمه ونقدّر عالياً شجاعته: نحن نحبه لأنه يحبنا ومستعدون لأن نضحي بحياتنا من أجله". ليس "دحوّم" هذا، الذي كتب فيه لورانس قصائد غزلية ملتهبة، إلا "جمعة" في رواية روبنسون كروزو، الذي بدا "لرجل الله الإنجليزي" مادة أولية لينة، تمكن صياغتها بالأشكال الملائمة المفيدة.. ولهذا استهل اللقاء بين روبنسون و"جمعة" بالانحناء و"تقبيل" حذاء "صاحب الجزيرة" المسلح.

بيد أن لورانس، الذي كان يكره الأتراك كرهاً مقيتاً، لم يكن السيد الذي أراد أن يكونه دائماً، إذ كان يصرخ ويعطي الأوامر ويشهر سيفه، ويدير له كثير من رجال القبائل في الأردن ظهورهم.

٢ـ لورانس وكتابه:

في عام ١٩١٩ كان لورانس قد تهيّأ لكتابة "أعمدة الحكمة السبعة"، الذي سجل فصوله الأولى معتمداً على الذاكرة أضاف إليها، رغم انشغالاته، فصولاً أخرى، لم تشعره بالرضا. وبعد أن حصل على "منحة علمية" انتقل في ١٩٢٠ إلى لندن، وأعاد النظر في ما كتبه منجزاً ٢٠٠,٠٠٠ كلمة في ثلاثة أشهر بأسلوب أدبي جميل، سرد فيها معاركه ضد الأتراك ووقوفه إلى جانب العرب. كان يحلم بعمل أدبي كبير، كما قال، يرقى إلى مستوى الحرب والسلام لتولستوي وموبي ديك لهيرمن ميلفل. ومع أن هذا الإدعاء لا يخلو من السخف، فقد رأى وينستون تشرتشل، رئيس وزراء بريطانيا لاحقاً، أن "الأعمدة السبعة" تقف في مستوى أعظم الكتب التي وضعت في اللغة الإنجليزية أو أنها "ملحمة" رائعة. كما قرّظ الكتاب أدباء كبار مثل جورج برناردشو وتوماس هاردي وج. هـ ويلز.

وواقع الأمر أن لورانس أراد بكتابه أن يخلق أسطورته بحقائق يعود ويرفضها، كأن يصرّح بأن انتصاراته ضد الأتراك جاءت من غير جهد كبير، وأن أسطورته كلها كاذبة، كما صرّح للروائي الشهير جوزيف كونراد، البولوني الأصل الذي كان يكتب باللغة الإنجليزية، وأن ما قام به ليس أكثر مما

رآه في حرب العرب ضد الأتراك.. لهذا دعا كتابه، في البداية، "تمرد في الصحراء"، دون أن ندري هل كلمة "تمرد" تعود إليه أم إلى العرب. ولا يعرف على أي حال تخوم الحقيقة وأركان الكذب في كتابته، فقد اتفق الكثيرون على "دمويّته الفاحشة" في التعامل مع الأتراك، كأن يأمر "المقاتلين العرب" بأنه "لا يريد أسرى"، ويعود ليبرر ذلك برغبته في الانتقام للعرب، الذي عانوا الظلم العثماني طويلاً ، بل كان ينسب إليه، بأنه أراد أن يدخل العرب إلى دمشق وأن يتابعوا السير إلى الأناضول. هل رغبته هذه تنطلق من رغبة عربية في التحرر من محتل قديم، أم تعود إلى حقده على العثمانيين الذين سيطروا على أجزاء من أوروبا ذات مرة؟ وبالتأكيد فإن كتابه لا يشكل وثيقة "جندي بريطاني "غيور على مصلحة العرب، إنما هو كتاب مسكون بأطياف الشرق التي استقرت في ذاكرة استشراقية مكينة.

جاء في الفصل الأخير من كتابه وعنوانه "خاتمة" : "لم تبدأ دمشق غمداً بسيفي، عندما نزلت أرض الجزيرة العربية: إلا أن دخولها قد ختم تعب وإرهاق مجريات مهمتي الرئيسية. وأن أقوى حافز لي طوال تلك المهمة كان حافزاً شخصياً، لا يذكر هنا ، لكنه يظل كامناً في نفسي، في كل ساعة من ساعات تلك السنتين الماضيتين ١٩١٧ ـ ١٩١٨". مهما تكن المهام التي أوكلتها وزارة المستعمرات البريطانية إلى لورانس، فقد كان حافزه شخصياً. له علاقة "بامتلاك الشرق"، أو "بجشع النجاح"، وباقناع العرب بأنه يعمل لصالحهم، ذلك "أن العرب، كما يقول، يثقون بالأِشخاص، وليس المؤسسات. فهم رأوا فيّ عميلاً حراً للحكومة البريطانية، وطلبوا مني العمل على تطبيق تلك الوعود المكتوبة من قبل الحكومة. لذلك فقد كان علي أن أنضمّ إلى المؤامرة، وأن أقوم بإعطاء تعهّدات كلامية للرجال بأنهم جديرون بالمكافأة. وخلال سنتين من العمل المشترك في ظل المعارك المشتعلة، اعتادوا على تصديقي وظنوا أن حكومتي، مثلي تماماً، بأنها مخلصة في وعودها. وفي ظل هذا الأمل قاموا ببعض الأعمال الرائعة، ولكن، بالطبع، بدلاً من أن نكون فخورين بما قمنا به سوية، كنت خجلاً باستمرار، وبشدة من نفسي..".

إذا كان في اشتراك لورانس في "تمرد الصحراء" باعث شخصي، فإن هذا الباعث ذاته هو الذي دفعه إلى "الخجل من نفسه"، وهو الذي كان يقول للعرب شيء ويفعل شيئاً آخر، ويعدهم "بنصر نهائي"، يحقق الأمل العادل الذي يطمحون إليه. ولذلك يتحدث عن "الانتصار الرخيص" الذي حققه البريطانيون، وعن عدم قناعته "بتوريط العرب في خطر مجهول"، لن يحقق من آمالهم شيئاً. فهو يقول: "وخاطرت بشكل مخادع، على الرغم من قناعتي أن مساعدة العرب لنا كان ضرورياً لانتصارنا الرخيص والسريع في الشرق، وأنه كان من الأفضل أن نكسب الحرب، وننقض تعهداتنا، بدلاً من أن نخسرها..".

وقف لورانس إلى جانب حكومته التي نقضت تعهداتها، التي جسدّها السير هنري مكماهون، الذي وعد الشريف حسين بكثير من الوعود، ونكث بعهوده. "والشيء الوحيد الذي ظل، كان رفض المكافآت لأني كنت مخادعاً ناجحاً.. وبدأت في تقاريري المنشورة أكشف الوجوه الحقيقية للأمور، وتأمل تلك القلة من العرب الذين كانوا يعرفون الحقيقة، ويتحفظون عليها، ويعملون على الكشف عنها. ..". ولعل هروبه من الحقيقة هو الذي دفعه في نهاية الكتاب إلى تقديم ملاحظات عن وضع الجندي "الذي يضع جسده لمالكه مدة أربع وعشرين ساعة، ... ذلك أن الجندي الذي يرفض الأوامر جندي سيء، وهو ليس بجندي حقاً، لأن عواطفه مؤجرة..... ..".:

وعلى الرغم من خجله من ذاته، وسخطه على سلوك قادته، فهو يذكر في بداية كتابه: "لقد كنا جيشاً مستقلاً، كرس من أجل الحرية، وله عقائد وقيم ، وله هدف تواق سخّرت له كافة قوانا..". هل كان هذا الجيش إنجليزياً أم مقاتلين عرب، اعتقدوا في ساعة غفلة، أن ما يقوله لورانس لهم، وهو الذي يعيش مثلهم، يترجم أقوال سادته؟ كان لورانس يعرف ما تريده بلاده، وهو تمزيق العالم العربي، منذ البداية، ويعرف أن على العرب أن يجهلوا ما يعرفه. وبما أن الاعتراف بالحقيقة لا يأتي إلا بعد غياب ضرورتها، بدا لورانس وهو يغادر العالم العربي، اقرب إلى "العرب" منه إلى غير العرب، و"عرف كما هو آسف ونادم على ما حدث"، وهي الجملة الأخيرة قبل الخاتمة. وإن كان ذلك الأسف وجد مكاناً في "الكتابة الأدبية" ولم يجد له موقعاً في الواقع، فقد بقي لورانس "جندياً" قبل الحرب وبعدها.

٣ ـ لورانس في شهادة عربية

كتب السياسي الفلسطيني العربي عوني عبد الهادي في مذكراته عن الأمير فيصل وهو ذاهب من فرنسا إلى لندن في ٩ كانون الأول عام ١٩١٨، وجاء لورانس إلى مرفأ بولون "ولشد ما سُّر سموّه بلورانس الذي جاء لاستقباله في بولون. ومما يذكر بهذه المناسبة أنه حينما حضر سمو الأمير إلى ميناء مرسسيليا في ٢٦ تشرين الثاني ١٩١٨ لفت نظر الفرنسيين الكولونيل لورانس الذي حضر وعلى رأسه الكوفية والعقال والخنجر الذهبي في وسطه، لباس أمراء العرب، ويظهر أن مظهر لورانس كعربي لم يعجبهم فأشاروا إليه بمغادرة فرنسا على الفور، وذلك بإيعاز من وزارة الخارجية". كان لقاء الأمير الأول مع لورانس عام ١٩١٦ في جزيرة العرب. "ولهذا السبب وجد فيصل في لورانس رفيقاً نافعاً طيباً. ولذلك اتخذه مستشاراً خاصا له وضابط ارتباط بينه وبين المسؤولين البريطانيين" وهو، أي الأمير، المعروف بنبله وصدقه وبراءته.

يكتب الأستاذ عبد الهادي وهو الذي عمل في السياسة عدة عقود عن لورنس: "كان لورانس واسع الحيلة إلى حد بعيد، ويتظاهر أنه عربي أكثر منه إنجليزي، وأنه كان يعرف اللغة العربية قبل أي عربي آخر (في أعمدة الحكمة السبعة). والواقع انه لم يكن يعرفها جيداً، بل كان يتحدث بها حديثاً. كان فيصل بحاجة للاستفادة من لورانس، وكان الأخير يعتزم الاستفادة من فيصل لتحقيق المآرب البريطانية". و"لعب لورانس دوراً مشيناً وهو يترجم ما جرى في لقاء سمو الأمير مع وايزمان"، ذلك أنه لم يكن دقيقاً في الترجمة ونسب إلى الأمير شيئاً لم يقله، وذلك في ما عرف باتفاقية فيصل ـ وايزمان، التي كان فيها شروط متعددة.

يحمّل الأستاذ عوني لورانس مسؤولية ما حدث ويقول: كان لورانس إنجليزياً وقبل كل شيء، وكان دائماً يسعى لخدمة المصالح البريطانية. والحقيقة أنه في هذا المجال كان يتبع سياستين متناقضتين: إحداهما كانت في الميل للعرب (عندما كان الإنجليز يشعرون بحاجة للعرب). والأخرى كانت دون شك سياسة الميل مع اليهود والصهيونية. وأنا أعتقد أنه كان داخل نفسه ميالاً إلى الصهيونية اعتقاداً منه أنها تتفق مع مصلحة بريطانية".

يبدو أن الخديعة، أو المخادعة، في نظر لورانس، عماداً من "أعمدة الحكمة السبعة"، فهي تتكئ على القوة، والعبث بمقولات الأخلاق، ذلك أن للقوي حق الكذب، بقدر ما أنَّ على الضعيف حق الامتثال، أو الاستقالة. لم تكن صداقة لورانس للعرب أكثر من لباسه العربي، الذي تقضي به المناسبات وضرورات الخدمة، ويمكن الاستغناء عنه حال انتهاء المناسبة وتحقق المطلوب.

في الثورة العربية الكبرى، التي أطلقها الشريف حسين، ما يذكر العرب بكفاحهم من أجل التحرر والاستقلال والوحدة العربية، وما يترجم وضع العرب في زمن "الإمبراطورية"، التي لم تكن تغيب عنها الشمس، وتذكير بوضعهم في زمن "إمبراطورية لاحقة".

1- Michael Asher: Lawrance published by penguin, 1998.

٢ ـ أعمدة الحكمة السبعة، الأهلية للنشر، عمّان، ١٩٩٨.

٣- مذكرات عوني عبد الهادي مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٢.

نمط اقتصاد الغزو

عبد الفتاح القلقيلي*

نُشير أولاً إلى مفهوم علم الاقتصاد. يُعرّف علم الاقتصاد، بشكل عام، بأنه دراسة للبشرية في ممارسة شؤون حياتها العادية، وبشكل أكثر تحديداً، بأنه الدراسة العلمية لإنتاج وتوزيع واستهلاك السلع والخدمات، لتحقيق رفاهية الأفراد. وغالبا ما يُطلق على علم الاقتصاد مسمى "الاقتصاد السياسي" Political Economy، بما يفيد أنه يبحث في موضوعات خاصة بالدولة.

لا أحد من العامة أو الخاصة ينكر علاقة الثروة بالسلطة، في الغرب والشرق، عندنا وعند الغير. في الغرب لا يأتي لمواقع السلطة الهامة إلا من "كان" ثرياً. أما عندنا فيأتي لمواقع السلطة الهامة فقيراً ثم "يمسي أو يصبح" ثرياً. أي أن القاعدة عندهم هي "كان ثرياً فأتى"، أما عندنا فالقاعدة تقول "أتى فصار ثرياً"... إذاً، عندهم ترتبط الثروة بالسلطة عبر "كان" أما عندنا فترتبطان عبر "أخواتها". الثروة عندهم مدرّة للصلاحيات، اما عندنا فالصلاحيات مدرّة للثروة

لماذا لا يأتي للسلطة إلا من كان ثرياً (كما في الغرب)؟ هذا سؤال أثير عندي كغيري من الناس، ووجدتُ جوابه في الماركسية التي تقول أن الاقتصاد هو قاعدة السياسة، والاقتصاد هو البناء التحتي والسياسة هي البناء الفوقي، والعلاقة بينهما جدلية. وفي هذا المجال، قال المنظرون السوفييت بأن الدور (الحاسم في تلك العلاقة) للاقتصاد، أما المنظرون الصينيون فأعطوا الدور الحاسم للسياسة.

وثار عندي، كغيري من الناس، السؤال الثاني وهو "لماذا يصير ثرياً من يأتي للسلطة"(كما في الشرق)؟ ووجدتُ جواباً شاملاً وعاماً في قول علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) حيث يقول "ما اغتنى غني إلا على فقر فقير"، ويقول الرسول (صلى الله عليه وسلم): "ما نما مال إلا من شح أو حرام".

---

* باحث فلسطيني.

وبحثاً عن الجواب التفصيلي غصتُ في النظريات الاقتصادية المختلفة، وكان أولها "نمط الإنتاج الآسيوي" الذي لمّح له كارل ماركس، وقال عنه أنه يستند إلى الاستبداد الشرقي حيث السلطة تدير الاقتصاد، وتوزع على رجالها أراض ومواد عينية و"صلاحيات مدرّة للثروة" لضمان ولائهم للسلطة وتعزيز سلطتهم على الاتباع مما يحفظ هيبة السلطة العليا فيرهَبُها الشعبُ، فيطول عمرُها.

ثم التقيت سمير أمين المفكر المصري وأشهر فرسان نظرية "نمط الإنتاج الخراجي"، وأحد أعمدة نظرية التطور "اللامتكافئ"، الذي يوصّف الواقع بأنه "مركز وأطراف"، فالعاصمة "مركز" وبقية البلدات "أطراف" في خدمتها، والغرب "مركز" وبقية بلدان العالم "أطراف في خدمته، والمسؤول "مركز" وبقية الموظفين "أطراف" في خدمته.

ثم التقيت بمهدي عامل المفكر اللبناني، فاطلعتُ على نظرية "نمط الإنتاج الكولونيالي" ذي "البنية التابعة"، ذلك النمط الذي تقف على رأسه "محلياً" شريحة "الكومبرادور" من البرجوازية الطفيلية والتي تكتسب ثروتها الهائلة من "إدارتها" للإنتاج وليس من "ملكيتها" لوسائل الإنتاج. ويصف أحمد أبو غوش الكاتب الفلسطيني تلك الشريحة بأنها خليط عجيب من الفكر الديني والقيم الغربية، فرموزها يصلون في المساجد ويشربون في البارات، ويتزينون بأغلى المسابح، ويحضون على عمل الخير ويمارسون كل أنواع المنكر، ولا يُبقون من الدين إلا على ما يحض على "الصبر" ليمكّن ضحاياهم من الحياة مع آلام الاستغلال.

وازداد الأمرُ لي وضوحاً بعد أن اطلعت على مذكرات بشير العظمة الكاتب والسياسي السوري الذي أشار إلى أن حكام البلاد العربية عموماً، وبلاد الشام خصوصاً كانوا "قديماً وحديثاً" غرباء لا يعرفهم الناس إلا في كامل سطوتهم وبطشهم. وهذا يفسر المزاج الجماهيري الذي يعتبر القربَ من السلطة أبغضَ الحلال. ويرى أن رجال السلطة كالنار "إذا اقتربتَ منهم احترقتَ، وإذا ابتعدت عنهم قتلك البرد".

وختمتُ مسيرتي البحثية هذه بالاطلاع على رأي اتفق عليه المفكران العربيان محمد عابد الجابري (المغربي)، ومحمد جابر الأنصاري (البحريني)، اتفق هذان المفكران الكبيران على تسمية نظامنا العربي "بنمط اقتصاد الغزو"، حيث كل ما تنتجه البنية الحضرية تنهبه عناصر السلطة "القبلية" سواء كانت تلك العناصر شبه عراة أو يرتدون "الدشاديش" أو يحشرون أنفسهم داخل القمصان "المنشاة". ومن سمات "الغازي" استباحة المجتمع، فنساء المجتمع "نساؤه" يحتظي من يشاء منهن، سواء بإرهاب رجالهن أو إغرائهم أو قتلهم. وكل ثروة المجتمع ثروته، وما يبقيه منها لهم هو مِنّة وكرم منه يستحق الحمدَ والثناءَ عليه.

والغازي لا يراكم ولا ينمي، بل يبذر الثروة والمعرفة في مجالات غير مجدية وغير إنتاجية، فيبقى مجتمعه متخلفاً، ويبقى الغازي "دائماً" بحاجة لمزيد من النهب. وقال عنه الحكماء الشعبيون هو بئر "مقعور" لا يُملأ، وله بطن "مسعور" لا يشبع، وله أذن صماء لا تسمع، وفي مقدمة رأسه عين لا "تقشع"، وله لسان يلسع، وفم يبلع، ويد تقمع، ومظهر يخدع.

وكان ابن خلدون (١٣٣٢-١٤٠٦م) اول من اشار الى "الاقتصاد القائم على الغزو"، واشار (في مقدمته الشهيرة) الى أن القوى التي يقوم عليها هذا النظام هي على العموم "قوى حربية"، والعلاقات السائدة في هذا النمط، هي علاقات من نوع خاص، علاقات "عصبية"، تشد أفراد كل طرف، بعضهم إلى بعض، ما دامت المواجهة قائمة. أما عندما تنتهي المواجهة، فإن هذه العلاقات تنحل ليحل محلها الحذر والعداء نتيجة ظهور المصالح الخاصة، المصالح الشخصية المتناقضة.

إن التاريخ يؤكد أن ثروة الدولة الإسلامية، الثروة التي أقام عليها العرب دولتهم وحضارتهم كانت تتكون، في معظمها، من موارد حربية. ولعل مما له دلالة خاصة في هذا الصدد، أن كتب الفقه تحصر موارد الدولة، أو مصادر "ميزانيتها" في الفيء والغنائم، والجزية، والخراج، والعشور... الخ، وهي تعطي أهمية خاصة، لا لاستثمار هذه الموارد، فذلك ما ينعدم الاهتمام به، بل تهتم أولا وأخيرا بكيفية توزيعها.

في "نظام الغزو" تُجمع الاموال لتُستهلك، لا لتستثمر. إن لـ"اقتصاد الغزو" ثروة جاهزة تؤخذ لتوزع على المحاربين ورجال الدولة، إنه "اقتصاد حُكم"، بمعنى أنه ثروة تتصرف بها الجماعة الحاكمة. ولما كانت هذه الجماعة بدوية الثقافة وقبلية المُثل(تعظيم الذات وتبخيس الآخر)، فإنها لم تكن تستطيع بحكم تكوينها، وعاداتها، توجيه هذه الثروة غير وجهة الاقتسام (حسب الولاء والمحسوبية)، والاستهلاك.

وكما يقول يونس الحياني في دراسة له حول "المجتمع الاستهلاكي ووهم الحرية "فـ" إن المجتمعات الاستهلاكية لا يهمها المعنى ولا تبحث عنه؛ فالسلعة تصبح هي البداية والنهاية وهي مركز الوجود، بل هي التي تضفي معنى على حياة الإنسان الاستهلاكي. ومن هنا جاء مصطلح comodification والذي يعني أن السلعة تزيح الإنسان من مركز الكون لتحل محله، وتصبح السلعة أكثر أهمية من الإنسان. وتوجد مصطلحات شبه مترادفة مع هذا المصطلح هو التوثن fetishism، وهي تعني أن الأشياء (بما في ذلك السلع) تتحول إلى أوثان يتعبد الإنسان في محرابها بعد إزاحته من مركز الكون. وذات الأمر ينطبق على مصطلح التشيؤ reification." وقد أشار الدكتور احمد رفيق عوض في كتابه الاخير (رؤية جديدة للظاهرة التكفيرية) ان المواطن (وخاصة المسلم) "الذي يرى أن عالمه

ينهار، وانه لا يستطيع الاندماج، ولا يجد ذاته في عالم متغيّر يعبد السلعة ويلهث وراء الاستهلاك، ويشهد انهيارات العائلة والمؤسسة الحاضنة، عندئذ لا يجد سوى ان يعلن رفضه الكلي، وهذا هو التكفير. والتكفير هنا (وبهذا المفهوم) نوع من الاغتراب الذي يتخذ شكلا عنيفا وصداميا.. لأن هدف التكفير هو الهدم والرفض الكامل، اي أن الظاهرة التكفيرية هي ردة فعل على وجود ازمة وانسداد افق يعاني منه المجتمع سياسيا واقتصاديا وثقافيا... واكثر من نصف قرن من العجز والانتهاك والانحطاط والتبعية واستدعاء الاحتلال باشكاله المتعددة سيجعل من فكرة التكفير (في الوطن العربي) فكرة اشبه بفكرة الخلاص".

فبعد انهيار المعسكر الاشتراكي، وتراجع حركات التحرر في العالم الثالث وفشل خططها التنموية، وغلبة منطق العولمة، جرى تعميم النظام الاستهلاكي عالمياً، كآليةٍ لكبح الوعي النقدي وتهميشه. (ونذكّر هنا بدراستنا التي نشرناها في العدد العاشر لمجلتنا هذه، حيث اشرنا الى انه في الدول الهشة ذات "النظام الزبائني" يتحول كل موجود الى سلعة (قابلة للبيع والشراء)، بما في ذلك القضايا الوطنية والمبادئ والمُثل).

ونحن في المجتمع الفلسطيني تاثرنا بذلك بشكل مبالغ به ومشوّه لانه منذ البداية تبنينا نظام "الاقتصاد الحر" ونحن لا نملك من الحرية شيئا لا في الاقتصاد، ولا في التعليم، ولا على الحدود ولا على الطرق، ولا داخل المدن والتجمعات السكنية، مما جعل لا معنى لـ"الاقتصاد الحر" الا حرية العدو باقتحام اقتصادنا ومناطقنا وحتى "منطقنا".

هذه الصورة العامة، التي باتت اليوم أحد أهم مكونات النقد والاستياء والتذمر في الذهنية الشعبية الفلسطينية. عند الحديث عن الأوضاع الاقتصادية، تبين لنا أن المشكلة الاقتصادية ليست مشكلة مالية وإدارية فحسب، وإنما هي مشكلة في طبيعة تشكل البنية والمنهج معا في منظومة الفعل السياسي- الاقتصادي من حيث عدم وضوح الهدف والخطة والتنفيذ من ناحية، وبما يخدم مصلحة الفئات والشرائح المتنفذة من ناحية ثانية، مما ساهم في تغييب الدور الإيجابي للدولة والوزارات، وما يعنيه ذلك من غياب التخطيط العلمي، بعد قرن من "سايكس بيكو".

ما كان لتطبيق خطة «سايكس بيكو» أن يكون، أو على الأقل، ما كان له أن يتم بتلك السهولة، أو أن تصمد نتائجه لقرنٍ، لولا أربعة قرون من حُكْم الإمبراطوية العثمانية للعرب، وتحكمها بحياتهم، وزجهم في ظلم وظلام نظام الملل الانكشاري الخراجي، الذي شكّل حقبة انحطاط طويلة، سبقتها، وأسست لها كارثة عام ١٢٥٨، حين هاجم المغول بغداد، واحتلوها، ودمروا حضارتها الزاهرة، ليدخل العرب بعد انهزام المغول في عصر الضباط وقادة الجيوش الذين تحولوا إلى سلاطين، الذين

لم يكن لهم من همٍّ إلا جمع الخراج، وحشد جيوش للقمع والاستعراضات، شرقاً وجنوباً وغرباً وشمالاً.

ووضعنا يزداد شذوذا وتعقيدا إذا تذكّرنا اننا ورثة ثقافة الغزو الداخلي (اي غزو القبائل لبعضها) ونواجه ورثة الغزو الخارجي (اي غزو الشعوب والجماعات لغيرها من الشعوب والجماعات). فنظامنا السياسي والاجتماعي (في فلسطين) لا يختلف من حيث الثقافة والمرجعية عن الانظمة العربية الاخرى. كذلك الصهيونية، فهي لا تختلف عن الاستعمار الاستيطاني الاوروبي في اسيا وافريقيا واميركا الا في درجة التطرف العنصري المجلبب بمنظور ديني اسطوري.

وفي ذكرى النكبة نستطيع القول انه ما زالت الأرض، وتفريغها، واستيطانها، وتهويدها، هي هدف إسرائيل الأول ومحرك سياساتها الأساس. فرفض وقف الاستيطان، يعني أن ربع قرنٍ من التفاوض لم يزد إسرائيل، نظاماً وحكومات و"معارضات" وبنية مجتمعية واقتصادية وقانونية وثقافية وعسكرية وأمنية، إلا عنصرية وعدوانية وتوسعية غازية، لدرجة أنها لم تعد تموه على هدفها الثابت "سلطة واحدة بين البحر والنهر".

أما العالم، عرباً وعجماً، فلا يرىَ في غلو إسرائيل سوى تهديد لـ"عملية السلام"، وكأن هذا العالم لا يعرف أن إسرائيل ترفض كل حل يقوم على "التقسيم"، وأنها، بالتالي، لن تكف، طواعية، عن ممارسة جوهر الصهيونية (الاستيطان) بكلمات الصقر الليكودي شامير.

إن النظام الاستيطاني الاستعماري الصهيوني الغازي ماضٍ في استيطان وتهويد ما تبقى من فلسطين، وهو ما لا يترك متسعاً لإقامة دولة فلسطينية.

وطالما أن الأمور كذلك وأكثر فيتعين إدراك أن ليس ثمة تسوية، (باتفاق)، في المدى المنظور، فما يهم إسرائيل هو إدارة الصراع، وضبط الوضع الفلسطيني، ومصادرة ما تبقى من أرض فلسطين، وتكريس الدينامية التفكيكية الاختزالية لفلسطين، الوطن والشعب والحقوق والثقافة التحررية. وبالتالي طغيان المصالح الفصائلية والنخبوية والشخصية على المصلحة الوطنية.

إن مجاهرة إسرائيل الآن بأنها لا تزال تريد "فلسطين يهودية كما هي انجلترا انجليزية"،لا تعدو كونها إزاحة للمعلن الزائف من الخطاب الصهيوني حول السلام، فإسرائيل التي نشأت بعملية تطهير عرقي بشعة، العام ١٩٤٨، وتوسعت، بعدوان مبيت، العام ١٩٦٧، وباتت تسيطر على ٨٥٪ من أرض فلسطين التي نهبتها، وشردت ٦٠٪ من أبناء شعبها، تندفع الآن نحو تحقيق المزيد من الأهداف الصهيونية، لدرجة أن ترفض مطلبيْن صغيريْن للمفاوض الفلسطيني، هما: إطلاق "دفعة من قدامى الأسرى"، (أي ليس تبييض السجون)، و"تجميد الاستيطان"، (أي ليس تفكيك

المستوطنات وجلاء الاحتلال)، ما يُظهر الثمار المرة لقبول التفاوض مع استمرار الاستيطان.

هذا يؤكد ان لامجال للتفاوض بين الغازي المنتصر و"المغزيّ" المهزوم الا استسلام الثاني للاول، وقد تكون المفاوضات حول اجراءات الاستسلام وليس شروطه.

ويلاحظ احمد غنيم، في كتابه الجديد "ثمن الهاوبة" ان "كل من يعمل في القطاع الاقتصادي، بمن فيهم القيادة السياسية، يُجمعون على ان البيئة التي يعمل بها الاقتصاد الفلسطيني بيئة غير طبيعية، وان التحديات التي تواجهه غير تلك التي تواجه اقتصاد اي دولة اخرى". ولذلك يرى "أن النخبة السياسية والاقتصادية (الفلسطينية) التي حركتها دوافع تتعدى المصلحة العامة تتحمل بلا ادنى شك، ليس مسؤولية الازمة المزمنة للاقتصاد الفلسطيني فحسب، بل تتحمل ايضا مسؤولية الانحراف عن قوانين مرحلة التحرر الوطني، وتغير الاهتمامات والاولويات الفلسطينية".

انطلاقا مما سبق، يمكن القول أن ما يجري في العالم العربي تحت مسمى (الربيع العربي) موجة من تقلبات علاقة الثروة والسلطة وتغيير موئلهما ، فهناك طبقات وفئات جديدة تصعد للسطح وطبقات وفئات قديمة تتآكل واستنفذت أغراضها أو باتت عاجزة عن القيام بدورها الوظيفي لخدمة القوى الرأسمالية النافذة في العالم هذه الأخيرة التي غيرت من أدواتها التقليدية في التدخل للتأثير على مجريات الأمور (كما يقول ابراهيم أبراش في الحوار المتمدن ٢٠١٤/١/٢٣).

موجة تعيد صياغة العلاقة بين العالم العربي والغرب وخصوصا واشنطن ، كما تعيد التأكيد على ما قلناه في بداية ورقتنا هذه ان "كان واخواتها تحكم العلاقة بين السلطة والثروة"، فان العلاقة بين الثروة والسلطة اليوم "مازالت" حميمة، ولكن هذه المرة بوسائل عنيفة، وهي إشكالية تشكل آفة سياسية قديمة قِدم وجود السلطة والدولة، مع أن الثروة تُحيل للخاص والشخصي بينما السلطة يجب ان تُحيل للعام ،ولكن في كثير من الحالات تميل نخبة السلطة لتغليب الخاص على العام وتمرر مصالحها من خلال الزعم بأنها المصلحة العامة ، موظفة في ذلك الايديولوجيا بكل تلاوينها، وحتى الدين تمت أدلجته ليخدم نخب المصالح الجديدة .

هذه المشكلة تختلف من بلد لآخر، ففي دول المؤسسات والقانون والديمقراطية لا مانع أن يكون رجل السلطة ثريا وينتمي للطبقة الرأسمالية ما دام تبوأ موقعه عن طريق الانتخابات النزيهة أو بطرق قانونية ، ولان القانون الذي يسمح له انطلاقا من حق المواطنة أن يكون مسؤولاً وحتى رئيسا هو نفسه القانون الذي يقف عائقا أمام توظيفه لموقعه لتعظيم ثروته أو ليمزج الخاص بالعام ، وإن حدث هذا فيكون محدودا لأن القانون ووعي الشعب والتداول السريع على السلطة يعملون على وقف التجاوزات عند حدها ومحاسبة المسؤول ، وقد رأينا رؤساء ورؤساء وزارات

ووزراء يقَدَمون للمحاكمات بتهمة الفساد وبعضهم دخل السجون .

ولكن خطورة المسالة تتجلى في دول العالم الثالث، حيث الزعيم أهم من المؤسسة بل ومن الوطن، فهذا الأخير تتعامل معه الأنظمة كمجرد حالة افتراضية أو إيديولوجيا يتم توظيفها حسب مشيئة الحاكم ومصالح النخبة المسيطرة ، ويتم "تكييف" المصلحة الوطنية لتتماها مع مصلحة الحاكم وحزبه أوعشيرته . وتصبح ثروة الشعب (كما قلنا سابقا) ملكا مباحا للحاكم وعائلته والنخبة المحيطة به ، ومع مرور الوقت تتعاظم ثروة النخبة ويتعاظم الفساد مع مزيد من تفقير الشعب ورهن المصالح الوطنية بمصالح النخبة التي بدورها تُرهن مصالحها بمصالح الدول الاستعمارية وبالرأسمال الخارجي ، مما يؤدي في النهاية لإضعاف الدولة الوطنية وإثارة النزعات الطائفية والعرقية والحرب الأهلية.

يوما بعد يوم تتكشف حقائق عما يجري في بعض دول العالم العربي، حيث بدأ الأمر بحراك شعبي واسع كان عفويا في تونس، ثم انتقل لمصر و ليبيا واليمن وسوريا ، حراك تم توصيفه حينا بالربيع العربي وحينا آخر بالثورات العربية .

كان الانكشاف الأول لوهم الربيع العربي عندما بان التحالف بين واشنطن وجماعات الإسلام السياسي وخصوصا الإخوان في تونس ومصر، وكانت قيادات نافذة في هذه الجماعات(كما لاحظ الدكتور ابراهيم ابراش) تخطط منذ سنوات مع الغرب وخصوصا واشنطن لخلق (الفوضى الخلاقة) في المنطقة لإعادة توزيع ثروات المنطقة ومراكز و مغانم السلطة فيها لمصلحة نخب الإسلام السياسي الصاعدة ومصالح واشنطن والغرب، ولو كان ذلك على حساب وحدة الدول الوطنية (القُطرية) القائمة، وعلى حساب القضية الوطنية الفلسطينية حيث كانت القضية الفلسطينية أولى ضحايا الربيع العربي الموهوم.

وأخيرا انكشفت وسقطت نهائيا ورقة التوت عندما انسحب الشعب من (الثورة) وأخليت الساحة للجماعات الإسلاموية المسلحة لتتصارع على النفوذ والسلطة مثيرة الخراب والدمار والفتنة وموظفة بشكل فج الدين من جانب ، وسلاح ومال الغرب من جانب آخر، وهو ما يجري اليوم في سوريا والعراق واليمن وليبيا.

وجه آخر لغاندي ...
مناضل ضد الصهيونية ومدافع عن الحق الفلسطيني

شذى يحيى*

"الحق والخير والجمال" القيم الإنسانية العليا التي حلم البشر بأن يكونوا عليها منذ أبيهم آدم، وستظل مسعاهم وهدفهم حتى قيام الساعة فالحق خير والحق جمال، الحق هو الأساس والأصل ،لكن أغلب البشر رأوا أن الحق هو رفاههم وحصولهم على ما يريدونه حتى ولو كان على حساب الآخرين. قلة من العظماء على مر التاريخ هم فقط من رأوا أن الحق في الحياة ليس حكراً عليهم وأن الخير والجمال والحق يجب أن يكون لكل البشر وليس حكراً على أصحاب دين أو عرق ؛ موهانداس كارام شاند غاندي كان أحد هؤلاء ولذلك أصبح الماها-آتما (الروح العظيمة) ومازالت كلماته محفورة في ضمير العالم حتى يومنا هذا .

ولذلك أيضاً رفض هذا الرجل العظيم إحتلال العصابات الصهيونية لفلسطين وكتب وأتخذ مواقف على مر حياته ليدعم أخوة له في الإنسانية لم يرى أرضهم يوماً ولم يقابلهم ناضل من أجلهم لأن هذا هو الحق فكان مثالاً لكل ماهو خير وجمال.

"ظلت معارضته للصهيونية متواصلة قوية وصلدة لم يتراجع فيها قيد أنملة على مدى عشرين عاماً ،بالرغم من كل المحاولات المجاهدة والمتواصلة والضغوط القوية التي مورست عليه من كل اللوبيهات والتكتلات الصهيونية وكبار منظريها " جملة كتبها واحد من أهم دعاة الصهيونية جي .إتش .جانسن ليوضح فيها الفشل الذريع الذي منيت به الحركة على مدى عشرين عاماً في إقناع المهاتما غاندي أبو الهند الحديثة بأهداف الحركة أو حتى أن يتعاطف معها أو يتفهم أي جزءٍ من

* كاتبة وباحثة من مصر.

أهدافها، وظل غاندي (١٨٦٩م -١٩٤٨م) طوال هذه السنوات محجاً لعشرات المنظرين الصهاينة من أمثال بوبر وجرينبرج وهونيك لمحاولة إقناعه ،كما ارسلت له مئات الرسائل من أصدقاء ومن يهود عاديين وشباب ومستعمرين يلتمسون منه أن يعيد النظر في موقفه هذا وأرسل غاندي عشرات الردود وكتب العديد من المقالات في صحف "كالهند الفتية" و "هاريجان" ليؤكد تمسكه بموقفه المساند للحق العربي والمناهض للصهيونية رغم كل محاولات الإقناع وحملات الهجوم.

لم يدرك منظرو الصهيونية أن حركتهم تمثل كل ما حارب غاندي ضده على مر حياته وأن تحالف هذه الحركة مع الإمبريالية زاد موقفه صلادة تجاهها ،فقد آمن غاندي أن السياسة هي إحدى الطرق الإنسانية لممارسة الدين لكنه رفض أن يكون الدين سبباً لتفضيل بشر على بشر أو بوابة بأي شكل للعنصرية والإستغلال بل رآه وسيلة لتهذيب السلوك البشري وليس مفتاحاً للحروب والنزاعات ،لذلك عندما تفجرت القضية الفلسطينية وظهرت كصراع بين قوميتين العربية واليهودية المدعومة بالمصالح الإمبريالية كان من الطبيعي أن ينحاز غاندي للعرب لأن الفكرة القومية كانت جوهر ما آمن به وليس الفكرة الدينية، إيمانه الحقيقي كان بفكرة أن قوة الحق التي تعلمها من مكاتباته مع تولستوي وقراءته لراسكين وأيضاً قراءته للكتب السماوية أقوى من السلاح ، لذلك أرسى مبدأه الشهير في المقاومة السلبية واللاعنف (الأهمسا) والتي جعلت من المحامي المتواضع في مهنته والمغرم بالثياب الثمينة والحياة الرغدة بطلاً زاهداً ومناضلاً شرساً من أجل الحرية في جنوب إفريقيا أولاً ثم في وطنه الهند بعد ذلك من اجل التعايش والحق في حياة أفضل لكل البشر ولهذا لم يكن مستغرباً أن يرفض غاندي فكرة الوطن القومي الديني لليهود في فلسطين بنفس الصلابة التي رفض بها فكرة الوطن القومي للمسلمين في باكستان.

كتب غاندي عشرات المرات رافضاً الوجود الصهيوني في فلسطين وكانت أقوى المرات التي كتب فيها المقال الذي كتبه في صحيفة "هاريجان" بتاريخ ٢٦ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٣٨م في ذروة الصراع العربي الصهيوني (مرفق نصه بالكامل في نهاية المقال) وأيضاً في ذروة الضغط المتواصل عليه من قبل الصهاينة والذي استمر منذ العشرينات ،كتب غاندي أن تعاطفه كله مع اليهود الذين تعرضوا إلى معاملة لا إنسانية ومحاكمات مذهبية على مر العصور لكن هذا التعاطف لن يعميه عن الحق وعن أن فكرة الوطن القومي لليهود التي لم ولن تلقى لديه قبولاً وأنه لن يقبل أبداً فكرة الوعد المقدس بالعودة ،فاليهود مثلهم مثل باقي البشر ولهذا عليهم مثل باقي البشر أن يجعلوا من البلاد التي يعيشون فيها أوطانهم فهي الأماكن التي ولدوا فيها وتحدثوا لغتها وأكلوا خبزها ،فلماذا لا يفعلون ذلك ؟!!

وبهذا الرأي هدم غاندي الأساس الجوهري الذي قامت عليه فكرة الصهيونية للمساءلة رافضاً رفضاً كليا فكرة الدولة اليهودية على الأرض الموعودة بل وأعقب ذلك بقوله أن فلسطين التي ذكرت

في الكتاب المقدس ليست نطاقاً جغرافياً بل هي نطاق روحي ،موقف غاندي هذا ظل ثابتاً في كل المحافل منذ وعد بلفور ١٩١٧م وحتى قبل أن يصبح غاندي شخصية دولية مرموقة فقد كان لموقفه جانب أخلاقي منذ البداية فهو لم يتفهم أبداً رغبة اليهود بالتعاون مع حلفائهم الإنجليز المحتلين لفلسطين في أن يفرضوا أنفسهم على الأراضي العربية ولذلك كان دائماً ما يؤكد أن فلسطين تعود للفلسطينيين بقدر ما تعود بريطانيا للإنجليز وفرنسا للفرنسيين وأن أية محاولة لفرض وطن قومي لليهود بالقوة على الأراضي الفلسطينية كلها أو على جزءٍ منها بدعاوى دينية أو حتى إستعمارية هو إهانة للعرب وعار على جبين الإنسانية ،لم يتقبل غاندي أبداً قصة العودة للوطن التوراتي كما لم يتقبل جدليات الفيلسوف بروبانك وكذلك جرينبرج اللذين حاولا إقناعه بأن رفضه هذا معناه أن يحرم فلسطين والفلسطينيين من فرصة اللحاق بركب التحضر والمدنية والحياة الأفضل واللحاق بالعالم المتطور، فقد حاول هؤلاء المفكرون الصهاينة ككل المستعمرين تصوير إحتلال فلسطين على أنه فرصة لأهلها للحاق بالعالم المتمدين لكن الرجل المناضل ضد الإستعمار لم يقتنع بهذا الكلام كما لم يقتنع أيضاً كباحث عن الوحدة والأساس الأخلاقي الذي يجمع البشرمن خلال الأديان بفكر وثقافة تدعو إلى إثبات تفوق عنصر ديني على باقي الأعراق وأن له الحق في أرض ما بسبب هذه الديانة ،هو لم يبتلع أبداً فكرة الحق التاريخي ورآها غير مفهومة ولا مقبولة وعندما كتب له المستوطنون الصهاينة يطلبون دعمه لهم في كفاحهم المزعوم لإستقلال المستوطنات عن الإحتلال البريطاني كان رده أن يتركوا الأرض لأصحابها ويعترفوا بالحق العربي أو أن يحاولوا أن يوجدوا صيغة توافقية مع العرب تضمن الحقوق العربية وبعدها يكافحوا معاً ضد الإستعمار ،ولم يقتصر دعم غاندي للحق الفلسطيني على النقاشات والمكاتبات والمقالات عن ومع الصهاينة ولكنه أيضاً واصل تعبيره عن رأيه الداعم للعرب في المؤتمرات الشعبية لحزب المؤتمر الهندي الذي كان في تلك الفترة يمثل نواة الكفاح ضد الإستعمار البريطاني للهند وأبلغ دليل على ذلك الخطاب الذي ألقاه في مؤتمر عموم الهند الخاص بالحزب في العام١٩٣٧م في كالكوتا وأدان فيه الإرهاب الصهيوني في فلسطين وأعلن رفضه لكل خطط التقسيم التي تحاول الدول الإستعمارية فرضها على الأرض كما عبر عن تضامن الشعب الهندي مع الحق العربي في الحصول على الحرية والإستقلال كذلك في مؤتمر آخر في سبتمبر ١٩٣٨م طالب غاندي العرب واليهود بالجلوس سوياً للوصول إلى حل سلمي للخلاف في الرأي وحث اليهود على أن لا يستقووا بالإمبريالية البريطانية وأن يكفوا عن اللجوء للإرهاب كما حث العرب على أن يكونوا كرماء مع اليهود دون أن يمس هذا بحقوقهم القومية ولا أن يخل بسيادتهم على أراضيهم وقد أصبح هذا الموقف الذي تبناه غاندي أحد الدعائم الأساسية التي تبنتها السياسة الهندية ضد الإستعمار طوال القرن العشرين حتى عندما بدأ الإضطهاد النازي لليهود لم يحرك هذا موقف غاندي قيد أنملة على

العكس كتب أكثر من مقال ووجه أكثر من نداء إلى اليهود لكي يتمسكوا ببلدانهم الأصلية في أوروبا ويلجأوا لسلاح المقاومة السلمية ويقدموا أرواحهم دفاعاً عن حقهم في العيش في البلاد التي ولدوا فيها مما دفع أصدقاءه اليهود من أمثال مارتين بوبر ويهودا ماجنسن وحاييم جرينبرج للهجوم عليه والتعبير عن شعورهم بالإهانة من موقفه حتى أن بوبر أرسل رسالة مفتوحة له على صفحات جريدة هاريجان كتب فيها مهاجماً موقفه من هجرة اليهود لفلسطين واعتبرها وطناً قومياً لهم قائلاً: " كل ما يهم المهاتما هو حقوق الملكية لأحد الأطراف ولا يهمه أن للطرف الآخر الحق في قطعة أرض حرة يتوق إليها"، فكان رد غاندي أن الهرب من العنف الأقوى ومحاولة فرض النفس على الأضعف بنفس منطق العنف ليس هو الحل وإنما المقاومة السلمية والدفاع عن الحقوق هي الحل.

لقد حدد الباحث الأمريكي بول باور أربعة عوامل أساسية من وجهة نظره هي التي حددت موقف غاندي من الحركة الصهيونية أولها أنه كان يدرك جيداً ان عليه مراعاة المسلمين الهنود الذين كانوا معادين للحركة الصهيونية من منطلق أخوتهم مع المسلمين العرب، وهذا السبب كان حقيقياً لحد بعيد فغاندي الذي أدلى للصحف البريطانية في مقابلة أجراها مع جريدة (الدايلي هيرالد) اللندنية في ١٦مارس ١٩٢١م برأي قال فيه "أنه يرى ضرورة بقاء الأراضي المقدسة في الحجاز وفلسطين تحت ولاية الخليفة العثماني كزعيم روحي للمسلمين وأن هذا سوف يكون في مصلحة إستقرار الهند والمسلمين الهنود خاصة مع حفظ كل حقوق اليهود والمسيحيين في أداء شعائرهم الدينية كاملة ولن تستطيع حتى المدافع أن تمنعهم من أداء هذه الشعائر" ، كذلك كان غاندي حليفاً قوياً لحركة الخلافة في الهند في الفترة من (١٩١٩م حتى١٩٢٢م) ومتبيناً لفكرتها في رفض التعاون مع الإحتلال معتبراً إياها نوعاً من اللاعنف والمقاومة السلبية كما ربطته صداقة قوية مع أقطاب الحركة محمد علي وشوكت علي ومولانا أبو الكلام آزاد ،لم يخف يوماً إعتباره لمشاعر المسلمين في هذه القضية المهمة وإن كان هذا ليس مبرره الوحيد لرفض الحركة الصهيونية فما لا يعرفه الكثيرون أن شريك غاندي في مزرعة تولستوي التي أنشأها في جنوب إفريقيا وهي المكان الذي وضع فيه أسس فلسفته في اللاعنف وإحترام الحياة "الأهمسا والساتيا جراها" وهو نفسه الرجل الذي لقبه المهاتما بتوأم روحه والذي أنفق مادياً على المزرعة وتحمل مسؤوليتها كرجل أبيض أمام سلطات الفصل العنصري في جنوب أفريقيا كان المهندس اليهودي الأوكراني هيرمان كالنباخ الذي دافع عن حقوق الهنود والسود في جنوب أفريقيا ولكن عندما طاله الإضطهاد كيهودي إنضم للحركة الصهيونية وأصبح من أشد مؤيديها ومارس كل الضغوط الممكنة محاولاً إقناع غاندي بها وظل على خلاف مع المهاتما حتى توفي في العام١٩٤٥م ودفن رماده في أحد المستعمرات الصهيونية ورغم أن هذا الحدث ترك غصة في قلب غاندي إلا أنه لم يغير من موقفه أبداً.

السبب الثاني أن إستعمال الصهاينة للعنف وتحالفهم مع القوى الإمبريالية القديمة كبريطانيا والجديدة كالولايات المتحدة ولجوءهم للإرهاب كما أسماه هو لإخراج الفلسطينيين من أراضيهم كان يتناقض مع كل ما دعى إليه وآمن به.

أما السبب الثالث وهو الأقوى أنه رأى أن الدعوة الصهيونية القومية هي النقيض تماماً لدعوته لأنها تقوم على قومية لأناس يدينون بدين واحد بينما هو كان يدعو لقومية لأناس ينتمون لمعين حضاري واحد لذلك رأى غاندي الصهيونية حركة عنصرية وليست قومية.

السبب الرابع هو أنه رأى أن ما تفعله السلطات البريطانية في فلسطين بإستعمال اليهود هو نفسه ما تفعله مع الهند بخصوص باكستان منذ البداية أعلن رفضه للتعاون البريطاني الصهيوني لهذا كتب في ٢٣مارس ١٩٢١م في صحيفة (الهند الفتية) مقالاً قال فيه صراحة "أن الوعد الذي منحته إنجلترا للصهاينة في فلسطين ومحاولة تصويره أنه المنقذ الوحيد لهم من الشتات غير مقنع بالنسبة له وأنه لا يستطيع أن يلوم جندياً مسلماً واحداً يذهب للقتال مع أبناء جلدته ضد تسليم أراضيهم لليهود" ، وفي الأربعينات قال صراحة للوفد الصهيوني الذي زاره لإقناعه بعدالة قضية الصهاينة إذهبوا للسيد محمد علي جناح (مؤسس باكستان) هو سيكون أكثر قدرة على تفهم ما تقولونه.

لم تتوقف الوفود الصهيونية عن زيارة غاندي فلاسفة وكتّاباً وأصدقاء ومنظرين وحاخامات وأعضاء في الكونجرس الأميركي ومجلس العموم البريطاني وفوداً رفيعة من المجلس الصهيوني العالمي كل هذا لم يفلح في تغيير رأيه قيد أنملة حتى عندما أعلن كاتب سيرته الذاتية الأميركي لويس فيشر أن المهاتما أخيراً قال أن لليهود حجة جيدة فيما يدعونه فسارع غاندي للنفي في مقاله الأخير عن الصهيونية والمسألة الفلسطينية والذي نشر قبل إغتياله بأشهر بتاريخ ١٤يوليو١٩٤٦م وفيه أكد أن حواره مع السيد لويس فيشر قد فهم بطريقة مغلوطة فهو مؤمن بأن العالم قد عامل اليهود بطريقة سيئة ولكن هذا ليس معناه أنه يؤمن بأن لهم حقوق في فلسطين، وعندما سأله الصحافي دون كامبل من رويترز قبل إغتياله بفترة بسيطة عن الحل الذي يراه للقضية الفلسطينية كان رده الذي استشرف به المستقبل "لقد أصبحت مشكلة تكاد تكون مستعصية على الحل، لو كنت يهودياً لقلت لهم لا تكونوا بهذا القدر من البلاهة وتعتمدوا على الإرهاب كسلاح دائم لكم ... اليهود لابد وأن يقابلوا العرب في نقطة ما ويصنعوا منهم أصدقاء وشركاء ويكفوا عن الإعتماد على المساعدات البريطانية والأميركية لينقذوا ما تبقى من يهوذا".

نص آخر مقال كتبه غاندي بخصوص القضية الفلسطينية ويلخص موقفه من الصهيونية والإحتلال الإسرائيلي:

اليهود وفلسطين

المهاتما غاندي

جريدة هاريجان ١٤يوليو١٩٤٦م

"حتى الآن ابتعدت كلياً عن الادلاء بأي تصريحات علنية فيما يختص بالصراع العربي اليهودي وجاء هذا الامتناع لأسباب وجيهة وليس معنى هذا أنني لا أولي إهتماماً بهذه المسألة ،بل يعني أنني لا أجد نفسي معداً بما فيه الكفاية وليس لدي القدر الكافي من المعرفة الذي يؤهلني للحديث في تلك القضية ،لقد حاولت أيضاً أن أتغاضى عن إبداء وجهة نظري في أحداث عالمية أخرى لكن أربعة أسطر في مقال حفزوني للحديث ،لقد وصلتني رسالة من صديق تلفت نظري إلى جمل مقتطعة خارج سياقها تضمنها المقال الذي ذكرت والصحيح أني قلت فعلاً مثل هذه الأشياء في حديث طويل مع لويس فيشر في الموضوع المشار إليه ،فأنا مؤمن تماماً بأن اليهود ظلموا من العالم وعوملوا بقسوة ومازلت أتأثر حتى الآن من كلمة جيتو الأسم الذي أطلق على أماكن معيشة اليهود في الدول الأوروبية والمعاملة القاسية التي تلقوها والمحاكمات عديمة الرحمة لهم ولكن لم يذكر أبداً سؤال العودة إلى فلسطين ،فالعالم كله يجب ان يكون وطناً لليهود على أقل تقدير لمساهماتهم المتميزة في تقدمه وفي رأيي أن اليهود ارتكبوا خطأ فادحاً عندما سعوا لفرض وجودهم في فلسطين بمعونة أميركا وبريطانيا وباستخدامهم للإرهاب الصريح ،فمواطنتهم وهويتهم العالمية من الممكن أن تجعلهم جماعة مرحباً بها في كل مكان فهم لديهم قدرات على التدبير ومواهب متنوعة وتفوق صناعي مما يجعلهم محل ترحيب في أي بلد ،أما التحامل عليهم فمبني على قراءة متعصبة وخاطئة للعهد الجديد وهي بمثابة وصمة عار في جبين العالم المسيحي أدت إلى خلق كم هائل من التحيز والعنصرية ضدهم ،فإذا أخطأ يهودي سيتم لوم المجتمع اليهودي ككل على خطأه وإن اكتشف يهودي كألبرت أينشتين أو ألف أحدهم مقطوعة موسيقية بديعة ينسب الإنجاز لصاحبه وليس لمجتمعه فلا عجب من تعاطفي مع اليهود في محنتهم البائسة هذه ولكني تصورت أن المحنة ستعلمهم دروس السلام ،لكن لماذا كان عليهم ان يعتمدوا على الأموال الأميركية والأسلحة البريطانية ليفرضوا أنفسهم على أرض لا ترحب بهم؟ ولماذا كان عليهم اللجوء للإرهاب لفرض هبوطهم القسري على فلسطين؟ كان يمكنهم الاعتماد على سلاح لا مثيل له الا وهو سلاح اللاعنف الذي بشر به أنبياؤهم الأوائل وعيسى هذا اليهودي الذي ارتدى تاج الشوك وورث أنات العالم لو فعلوا لأصبحت قضيتهم العالم بأجمعه ، وليس عندي شك أن هذا لو كان قد حدث لكان أفضل وأنصع الأشياء التي أعطاها اليهود للعالم على كثرة ما أعطوه ،وأن بركته المضاعفة كانت ستجعلهم سعداء وأغنياء بالمعنى الحقيقي للكلمة وبلسماً لهذا العالم المليء بالألم" .

بانشاجاني - ١٤يوليو١٩٤٧م

سبقها مقال بعنوان "اليهود" نشرت في صحيفة «حاريجان» الهندية بتاريخ ١٩٣٨/١١/٢٦م ،جاء فيها الآتي :

«تسلمت العديد من الرسائل التي يطلب مني أصحابها كتابة وجهة نظري حول المشكلة العربية اليهودية في فلسطين وحول اضطهاد اليهود في ألمانيا. وليس أمراً غير مقلق المغامرة بتقديم أفكاري حول هذه المشكلة الصعبة. انني أتعاطف مع اليهود. فقد تعرفت إليهم عن قرب في جنوب أفريقيا. وكان بعضهم رفقاء حياتي. وقد استطعت عن طريق هؤلاء الأصدقاء التعرف على اضطهادهم الذي دام قروناً. فقد كانوا منبوذي المسيحية. إن التوازي بين معاملتهم من جانب المسيحيين والمنبوذين الهنود وثيق جداً، فقد استند إلى حُجج دينية كمنبوذين في الحالتين لتبرير المعاملة غير الإنسانية التي أخضعوا لها. لذلك، وإضافة إلى الصداقة، فإن تعاطفي مع اليهود مؤسس على أسباب عامة وجامعة. لكن تعاطفي لن يعميني عن مقتضيات الإنصاف. إن المطالبة بوطن قومي لليهود ليس له أي صدى عندي. إن المبرر ملتمس من التوراة وفي المحاولات الدؤوبة التي طمح من خلالها اليهود للعودة إلى فلسطين.

لماذا لم يجعلوا، كما فعل غيرهم من شعوب الأرض الأخرى، وطنهم القومي في البلد الذي وُلدوا به حيث يرتزقون..؟

إن فلسطين تنتمي للعرب مثلما تنتمي إنكلترا للإنكليز وفرنسا للفرنسيين.. وانه لمن الخطأ وغير الإنساني فرض اليهود على بلاد العرب. إن ما يحدث اليوم في فلسطين لا يمكن تبريره بأي أساس أخلاقي. إن الانتدابات ليس لها أي مبرر ما عدا الخاصة بالحرب الأخيرة. من المؤكد انه ستكون جريمة ضد الإنسانية لو تم إخضاع العرب حتى يمكن تسليم فلسطين لليهود، سواء بشكل جزئي أو كامل، كوطن قومي لهم.

إن السبيل الأكثر نبلاً كان لا بد أن يكون في الإصرار على معاملة عادلة لليهود في المكان الذي وُلدوا وترعرعوا فيه. فاليهود المولودون في فرنسا فرنسيون تماماً مثلما أن المسيحيين المولودين في فرنسا فرنسيون.. فإن لم يكن لليهود وطن سوى في فلسطين، فهل سيقبلون بفكرة إجبارهم على مغادرة دول العالم الأخرى التي استقروا بها..؟ أم أنهم يرغبون في وطن مزدوج يستطيعون البقاء في ظله..؟ إن صيحة الوطن القومي هذه تتخذ كمبرر مقبول لطرد اليهود من المانيا. بالرغم من ان الاضطهاد الالماني لليهود يبدو لا نظير له في التاريخ. فالطُغاة السابقون لم يصل بهم الجنون إلى الدرجة التي تصرف بها هتلر. إن ما يقوم به دافعه ديني لأنه يقوم بطرح دين جديد لقومية متعصبة وحزبية، والتي باسمها يتحول أي فعل لا إنساني إلى إنساني ويستحق الجزاء (...).

لو أنني كنت يهودياً وُلد في المانيا وأكسب قوتي هناك، لأعلنت ان المانيا وطني بنفس الطريقة التي يمكن ان يفعلها أسمى الماني، ولتحديت ذلك بإطلاق رصاصة على نفسي أو حبسي في سجن مظلم. كنت سأرفض طردي أو أن أكون خاضعاً لمعاملة عنصرية. ولفعل هذا، ما انتظرت ان يقوم اليهود الآخرون بالانضمام لي في اعتصامي المدني، وإنما كنت سأثق بأن الآخرين سيكونون مجبرين على حذو حذوي في النهاية.

أجد من الضروري عليّ التأكيد على انه من السهل على اليهود وعلى التشيكوسلوفاكيين، إتباع فرضياتي، ولديهم في حملة الاعتصام الهندية في جنوب أفريقيا مثال رقيق.. فهناك، كان الهنود بالذات يحتلون نفس المكانة التي يحتلها اليهود في المانيا. وكان اضطهادهم مصبوغاً أيضاً بصبغة دينية. وكان الرئيس كروجر يردد القول بأن المسيحيين البيض هم شعب الله المختار وبأن الهنود كائنات أدنى خُلقت لخدمة البيض. وكانت هناك مادة أساسية في دستور ترانسفال تنص على انه لا يجب ان تكون هناك مساواة بين البيض والأجناس الملونة بمن فيهم الآسيويون.

كان الهنود هناك مجبرين على الإقامة في غيتو. وكانت المظالم الأخرى هي ذاتها تقريباً التي يعانيها اليهود في المانيا، فلجأ الهنود، وهم مجموعة صغيرة، إلى الاعتصام من دون أي مساندة من العالم الخارجي أو الحكومة الهندية. وقد حاول المسؤولون الإنكليز، بالطبع، إقناع المعتصمين بالعدول عن قرارهم. وبعد ثماني سنوات من الكفاح، استطاع الرأي العام العالمي والحكومة الهندية مساعدتهم وتم ذلك أيضاً عبر وسائل الضغط الدبلوماسية وليس التهديد بالحرب.

لكن يهود المانيا بإمكانهم عرض اعتصامهم تحت رعاية أفضل تماماً من هنود جنوب أفريقيا، لأن اليهود يمثلون جالية كبيرة ومتجانسة.. فهم أكثر عدداً بكثير من هنود جنوب أفريقيا، إضافة إلى هذا هم يتمتعون بالرأي العام العالمي الذي يشد أزرهم.. انني على يقين بأنه لو ظهر من بينهم رجل يتمتع بالشجاعة والبصيرة ليرشدهم إلى تحرك بلا عنف، فإن شتاء يأسهم يمكن أن يتحول إلى طيف من الأمل في طرفة عين. ومن صار اليوم فريسة ذليلة لقناص يمكن ان يتحول إلى رباطة جأش وعزم بفضل رجال ونساء عزل يمتلكون قوة التحمّل التي نادى بها يهوه (الله). ولكان هناك، حينئذ، صمود ديني حقيقي يقف في مواجهة ثورة بلا رحمة لرجل مُجرد من الصفات الإنسانية. ولحصل يهود المانيا على نصر حاسم على الالمان الآخرين، بمعنى أنهم قدموا لهؤلاء مثالاً للكرامة الإنسانية. وهكذا يقدمون خدمة لمواطنيهم الالمان ويثبتون أحقيتهم بأن، يكونوا هم الالمان الحقيقيون عن هؤلاء الذين يقومون اليوم بتدنيس اسم المانيا من دون أن يدروا. والآن، كلمة إلى اليهود الموجودين في فلسطين: ليس لدي أدنى شك في أنكم تسلكون طريقاً خاطئاً، ففلسطين بالمفهوم الذي جاء بالتوراة ليست مكاناً جغرافياً، إنها في قلوبكم... ولكن إذا كانوا يريدون اعتبار فلسطين

الجغرافية وطناً قومياً لهم، فإن من الخطأ دخولها في ظل البنادق الإنكليزية أو القنابل... إنهم يستطيعون العودة إلى فلسطين برعاية العرب فقط. عليهم محاولة تحويل مشاعر العرب. إن الذي يحكم قلب العرب هو ذاته الذي يحكم قلب اليهود. إنهم يستطيعون الاعتصام في مواجهة العرب وان يقدموا أنفسهم للإعدام أو بإلقاء أنفسهم في البحر الميت من دون رفع الخنصر ضدهم، عندئذ، سيجدون الرأي العام العالمي إلى جانبهم وفي صف آمالهم الدينية.

هناك مئات السُبل لاستخدام المنطق مع العرب إذا استبعدوا مساندة الأسلحة الإنكليزية. وهم، بما يقومون به الآن، يتقاسمون الإنكليز عملية سلب شعب لم يلحق بهم أي ضرر.

إنني لا أدافع عن تجاوزات العرب. كنت آملاً أن يختاروا طريق اللاعنف من أجل ما يعتبرونه بحق اغتصاباً غير عادل لبلادهم. ولكن وحسب القواعد المنصوص عليها، لا شيء يمكن أن يقال عن المقاومة العربية في مواجهة تفوق ساحق. فلنعط الفرصة لليهود الذين يرغبون في أن يكونوا الجنس المُختار ليبرهنوا على أحقية لقبهم هذا باختيار طريق اللاعنف في المطالبة بموقع لهم على الأرض. إن أي بلد هو وطنهم بما في ذلك فلسطين، ليس بالعدوان وإنما بالمحبة».

المراجع

١- شذى يحيى – غاندي والصراع العربي الصهيوني – مجلة المجلة –عدد أكتوبر٢٠١٥م.

٢- شذى يحيى – رسائل غاندي وتولستوي "حلم بالعدل والمساواة" – مجلة الهلال – عدد فبراير٢٠١٦م.

3-Kathryn Tidrick –Gandhi apolitical and spiritual life – I. B. Tauris and Co. 2006

4-Margret Chatterjee – Gandhi and his Jewish friends –Palgrave Macmillan 1992

5-Simone Panter-Brick – Gandhi and the middle east: Jews, Arabs and imperial interests – Ib Tauris 2015

أوراق ثقافية

الرواية الفلسطينية
من "الزمن الرسولي" إلى زمن مفتوح

د. فيصل درّاج

لم يكن غسان كنفاني، وهو يكتب "ما تبقى لكم"، بعيداً عن رواية "الصبي الواعد"، التي حايثت الرواية العربية، في حقبة "وعود الاستقلال الوطني"، حيث "صبي الرواية" ينزاح عن الزمن المجتمعي المسيطر، ويندفع إلى "زمن منشود سوف يأتي". وكثيراً ما التبس الصبي، الذي يداخله النقاء والبراءة، بالثورة، التي هي ولادة جديدة بلا دنس، تضع حداً فاصلاً بين الزمن القائم ، وآخر في طور الولادة والتكوّن.

أوكل محمد حسين هيكل في روايته "زينب" ـ ١٩١٢ ـ الكلام إلى صبي نبيه، يأخذ مسافة عن "المجتمع الريفي"، في قيوده المتعددة، ويحلم بالمساواة وبامرأة متحررة وبمجد قديم يعود منتصراً. واطمأن مواطنه توفيق الحكيم في "عودة الروح" إلى صبي آخر، اختصر مصر في أنثى جميلة واقتفى آثارها. وإذا كان الحكيم قد دفع بالصبي إلى مواجهة الاحتلال الإنجليزي، فإن اللبناني توفيق يوسف عوّاد في روايته "الرغيف" ـ ١٩٣٩ ـ عثر على صبي نظير، رافق أفول السيطرة العثمانية. كان الصبي في هذه الروايات، كما في غيرها، يسير إلى الأمام محمولاً بزمن منقطع عن الماضي، قوامه "معجزة قادمة"، تعطي الأحلام مسكناً مريحاً.

صاغ غسان الصبي ـ الحلم، وأرسل به إلى مغامرة معقدة، مآلها انتصار وقلق، ذلك أن الجندي الإسرائيلي الذي صرعه الصبي الفلسطيني، كان على مقربة من دوريات عسكرية متعددة. جعل غسان، في زمن الكفاح المسلّح، من الصبي الذي يمتد في مستقبله ويمتد مستقبله فيه، مرجعاً كتابياً تحريضياً متوالداً، فالشاب الذي يتدرب على السلاح موجود في "عائد إلى حيفا"، فهو مستقبل والده الذي عطله ماضيه، وله كل المكان في "أم سعد"، إذ في اندفاع سعد إلى "خيمة أخرى" ما يمسح

المهانة التي جاءت بها "الخيمة الأولى"، وهناك الصبي الفقير الذي عثر على "قطعة نقدية"، في القصة القصيرة "زمن الاشتباك: كان صبياً فلسطينياً، أعطته الكتابة المتوترة صورة أقرب إلى النشيد.

ومع أن غسان كتب عن "الولد المقاتل" ورحل، فإن ما كتب أخذ صفة المجاز، لا فرق إن كان صبياً في العاشر، أو مثقفاً لامعاً يقترب من الثلاثين، أو أليف النظرات ذكي الملامح، حال الناقد الراحل النبيل" يوسف سامي اليوسف" الذي كان، ذات مرة تلميذاً مجتهداً في الليل، و" فدائياً شجاعاً " في النهار، وفلسطينياً واسع الامتداد في الليل والنهار معاً.

١ـ مجازاً الولد المقاتل:

كان لبطل غسان دورته المغلقة، يتمرد ويقاتل ويعد ذاته بعودة قريبة، أو يقبل عاراً يقتله بعد حين.

في روايته الأولى، بعد النكبة، سار جبرا ابراهيم جبرا مع "بطله" إلى بغداد.. لم يكن البطل صبياً، كان يقترب من الثلاثين ومتعلماً لا علاقة له ببيئة المخيم، لا يحمل السلاح ولا يحسن القتال به. لكنه كان في النهاية "صبياً واعداً" من نوع آخر، وجد عملاً في قرية كأنها مدينة، أو في مدينة لها ملامح قرية وكان له، وهو الفلسطيني اللاجئ، معركة تنتظره، اغترب وهو يلتقي أشباه مثقفين وواجه سلطة الإقطاعي المتغطرس، الذي أنذره بالطرد وفقدان عمله وانتصر عليه، مخلفاً وراءه بغداد وقد ترك فيها ما يشبه "الدوائر المعادية"، التي تكره في الفلسطيني ثقافته ونقده ودعوته إلى العلم والديقمراطية. كما لو كان للفلسطيني أعداء أمامه ووراءه.

وبسبب تلك الدورة المغلقة التي ترهق الفلسطيني وتنير له الطريق، عاد بطل جبرا إلى أهله، وصادف مخيمات لاجئين في الطريق، قبل أن يستكمل طريقه "عائداً" إلى القدس. انتصر ولد غسان، وأكمل طريقاً لا يراهن عليه، يمر بالمخيم أو لا يمر به، واستولد جبرا، في زمن الكفاح المسلح، شاباً واعداً، جاء إلى المخيم وحمل "وصايا وليد مسعود"، وسقط فوق "متراس الأمل".

ظهر "مخيم اللجوء" لدى كنفاني وجبرا نقيضاً للوطن ومدخلاً إلى العودة إليه في آن. كما لو كان في تجربة اللجوء، وقد أتخذت من المخيم مرجعاً لها، "مطهر"، يعقب "الجحيم" أو يسبقه ويقود إلى الجنة. كان في تصوّر الروائيين الراحلين "إيمائية مقاتلة"، تؤمن بأن فلسطين تستيقظ "بعد القتال"، وأن القتال من أجلها لا يخطئ طريق الانتصار. سار الروائيان من الماضي إلى المستقبل، فبعد حيفا تأتي "الكويت"، أو غيرها، وبعد القدس تأتي بغداد، وبعد بغداد والكويت تأتي فلسطين من جديد. ولعل وضوح المسار في بدايته ونهايته هو الذي كان يفضي إلى "شخصية معطاة دفعة واحدة"، فلا يمكن للعطب أن يلازم مقاتلاً عائداً إلى أرضه.

أخلص جبرا لـ "لا هوت الأمل"، الذي يرى انتصار الإنسان الخيّر جزءاً من قدره، وأخلص غسان "لميتافيزيقا التمرد الشامل"، التي تترك الإنسان طليقاً، ولا تكترث بما حصل عليه. وكان في المنظورين مبدأ "الضمان"، إذ لا إيمانية بلا ضمان يفترش الطريق. لم يكن لدى الطرفين ما يساوي بينهما تماماً، فما كان ينظر إليه جبرا من زاوية نظر واحدة، كان غسان يفتش عنه من زوايا مختلفة. كان في إيمان جبرا ما يتجاوز "المخيم" والمكان، وكان في رؤى غسان ما يتجاوز "الفدائي المسلح".

أما يحيى يخلف، الذي كانت له تجربة في الحياة تختلف عن سابقيه، فقد اختار، منذ البداية، "فارس الأمل"، الذي يلبي طموح المقهورين، ويتفق مع سياق كان يقول "بالبطل الإيجابي"، الذي يرافقه تفاؤل لا يكتمل إلا به. لم يصدر تصور يحيى عن سياق إيديولوجي قالت به الكتب، بل ولد مع سياق فلسطيني مقاتل أوكل إلى الفلسطينيين استعادة أرضهم، وأوكل إلى الأدباء رسالة أو ما يشبه الرسالة. كتب جبرا في "البحث عن وليد مسعود" شيئاً ما عن "الكفاح المسلح" وهو بعيد عنه، وكان يخلف جزءاً من هذا الكفاح في يوميته المباشرة، يعرف المقاتلين "ويعرفونه، وتصله أخبارهم قبل الإعلان عنها. ولعل يومية التجربة، كما التصاقها بالمخيمات نظراً ومعاشاً، هي التي وضعت في رواياته طعم "الحقيقة المشتهاة"، التي أسندت "فدائيين" كانوا يسندون بحياتهم قضية أهل المخيمات.

كتب يحيى في "تفاح المجانين" عن "الخال الفدائي"، الذي يعرف الصبية ما تقوله حكاياته ويوسعون بها حياتهم الضيقة وأحلامهم البسيطة. جسّد الفدائي، حكائياً، دلالة الجمال التي هي من جمالية الخير الناظر إليه، وجماليات الإلفة البسيطة التي ترد على ما أعوّج في القدر الفلسطيني، والتي اكتملت "بتلك المرأة الوردة" الرواية القصيرة الأقرب إلى القصيدة. ولعل "قوة الأمل"، التي بدت جزءاً من الوجود الفلسطيني، هي التي فرضت رواية "نشيد الحياة"، التي انتصرت للفدائيين في زمن "هزيمتهم"، في بيروت عام ١٩٨٢.

انطوت روايات غسان وجبرا ويحيى على بداهة "الانتصار القادم"، التي عطفت، حكائياً، إرداة الفلسطيني، من حيث هو مفرد يسعى إلى حقه، على "مشيئة التاريخ"، الذي يتقدم حيث شاء له "الخير" أن يتقدم، إلى أن تبّين أن "التاريخ يتقدم إلى حيث يشاء"، بلغة معينة، أو ينصاع إلى ميزان أقوى، بلغة أخرى، الذي حاول الفسطينيون "تعديله" بالرغبات والصمود ونزيف المخيمات، وبمقاتلين من نوع خاص يدعون "بالأشبال". غير أن تلك الرغبات كانت مصادرة بمعادلة غريبة عنوانها "اصطياد العصافير بالطائرات"، بلغة قريبة من العادل الأميركي ناحوم تشومسكي. ولم تكن تلك العصافير الغريبة قادرة على قصف الطائرات التي كانت تقصفها، والتي ما زالت، حتى اليوم، تحاول أن تُقنع التاريخ بما لا يقتنع به.

ومع أنه كان في "رواية العودة القادمة"، على مستوى البنية، ما يستدعي نظرية "الانعكاس"، إذ النص "اليوميّ" يستدعي "التفاؤل" الذي لا يعيش المضطهدون من دونه، بعيداً عن التفاؤل السلطوي الذي لا يصدر عن "معاناة البشر"، بل عن سلطات مستريحة "تخترع الأزمنة". وبسبب ذلك " التفاؤل الذي لا بدّ منه" كان في رواية العودة "إضافة ما"، جعلتها أدباً، على اعتبار أن الأدب يترجم الواقع، وقد أضاف إليه شيئاً ما". كان المضاف هو التفاؤل، في مستوى أول، و"تفاصيل الأدب"، في مستوى ثان. أدرج جبرا في نصوصه الأساطير والرموز وحوار الشخصيات وإحالات على صور تصوف شعرية وروائية، وأدار غسان بحثاً طويلاً مرهقاً عن "الشكل الروائي الخاص"، الذي يترجم وضعاً إنسانياً خاصاً، يختلف عن مصائر البشر المألوفة. وصيّر يحيى يخلف الناس البسطاء إلى "مقولة جمالية" وإلى أبطال ينصرون القيم العادلة رافعاً شعار "بطولة المخلوقات الصغيرة".

كان لزمن التفاؤل سلطته ، التي ترضي الرغبات وتضيق بالأزمنة.. ولهذا بدا النص الحكائي سعيداً، أخذ التفاؤل "الماضي" اليوم صيغة أخرى هي: الأمل.

٢ ـ بداهة التفاؤل التي أصابها الارتباك

لم يكن في زمن "الرجال والبنادق" مكان لغير الرجال الذين يساوون بنادقهم، إلى أن احتل زمن آخر قلق مكان زمن سبقه مشبع بالطمأنينة. جاءت سحر خليفة، التي ألغت المسافة بين الأرض والمرأة إلى حدود الاضطراب، برواية "الميراث"، بعد الخروج من بيروت. سخرت من "قادة" لم يكن في سلوكهم ما يسوّغ نعوتهم، ومن مخلوقات أرادت حياة جديدة بقيم قديمة، وصدمت "مجتمعاً ذكورياً"، أعتقد أنه اغتسل بشعارات التحرر. غير أن الجديد في روايتها تمثل باستدعاء "الشتات"، مجسداً بفلسطينيين احتفظوا بما تعودوا عليه وهم يقيمون في الولايات المتحدة. ففي زمن الكفاح المسلح ، كانت البندقية تستدعي المنفى وتنفيه، وتستعجل شفاءه من مرض في طريق التلاشي. كان إميل حبيبي قد لامس الشتات في روايته "المتشائل"، وهو يصف عائلات مهجرة، لا زالت على أرض فلسطين، ولها نبرات كلامها الخاصة بها، وعاد إليه بعد أن وحّد الاحتلال الإسرائيلي "فلسطين التاريخية" بعد حرب ١٩٦٧، في عمله "سداسية الأيام الستة". لكنه كان، في الحالين، يمر بفلسطينيين فوق أرض فلسطينية. أما سحر فذهبت إلى "شتات بعيد"، مذكرة بفلسطينيين غادروا فلسطين إلى أرض بعيدة.

رحّل يحيى يخلف روايته ، بعد الخروج من بيروت، من زمن الكفاح المسلح إلى الماضي الفلسطيني القريب، الذي أعقب التهجير الجماعي. رسم في رواياته المتعددة، التي انطوت على عملين متميزين (ماء السماء وجنة ونار)، شكلين من البطولة" بطولة البقاء، حيث أوجاع المنفى واللجوء لا تنتزع

من اللاجئ فلسطينيته بل تؤكد جوهرها المقاتل، كما لو كانت معركة البقاء شكلاً أخر من "الكفاح المسلح"، تسبقه أو تعقبه وتترجم، في الحالين، شجاعة الفلسطيني المريرة التي فرضت عليه ولم يسعَ إليها. تجلى الشكل الآخر في: بطولة الذاكرة، حيث للفلسطيني أرشيف قدره المختلف، وله ما يؤسس لهويته ويسندها، فالإنسان لا يعرف ذاته إلا حين يسأل من أين جاء (بحيرة وراء الريح)، ولا يحسن طرح أسئلته إلا حين يحفظ معالم الطريق الذي، اصطدم به (نهر يستحم بالبحيرة). اقترب يحيى في طورية الروائيين من وضع الروائي ـ المؤرخ، الذي ينسج حكايات يخترقها التاريخ أو يمر على تاريخ قوامه من حكايات. وإذا كان حبيبي في روايته الأخيرة "سرايا بنت الغول" قد اختصر فلسطين في ذاكرة ذاتية متأسية، فقد شاء يحيى أن يكتب ذاكرة اللاجئين محولاً المأساة الجماعية إلى مشهد مصنوع من المعاناة والإرادة والتأمل معاً.

حين كتب الرائع الراحل حسين البرغوثي "سأكون بين اللوز"، كان الزمن الفلسطيني قد سقط في الإحباط واللوعة، فلم يعد المكان الفلسطيني ما كانه، وليس من زمن الطفولة والشباب إلا أطيافه، بعد أن طفت "صفرة المستوطنات" على خضرة قديمة لن تعود. لهذا استعان بذاكرة الأرض، مؤمناً بأن للأرض ذاكرتها، وبأن ما نسيه الفلسطينيون مترسب في طبقات أرضها المتعددة. كان حسين قد درس في الولايات المتحدة، وأختبر الشتات واختبره الشتات، وعاد إلى وطنه مريضاً.

٣ ـ الأرض البعيدة ورواية الشتات الواسع

بعد تفاؤل أخذ شكل العادة، جاء تشاؤم واسع الأرجاء، يداخله شيء من الرثاء. ولا غرابة في ذلك، "ذلك أن الأكثر علوّاً هم الأشد سقوطاً". لم يعرف الوضع الفلسطيني، ولا أقول الفلسطينيين، الكثير من العلو، بقدر ما شاءت له أسباب متعددة الكثير من السقوط. لذا لم يكن عبّاد يحيى كاتب "رام الله الشقراء" يقصد الإساءة إلى أحد، بقدر ما دفعه وضع لم يتوقعه إلى الغضب. وكذلك حال الروائية المجتهدة سامية عيسى التي أعطت عملين، جمعا بين النقد الغاضب وعذاب الذاكرة ومتاهة الشتات.

في روايتها "حليب التين"، قرأت سامية عيسى أحوالاً فلسطينية "متداعية" بعد رحيل "المنظمة" عن بيروت، وعاينت امتهان اللاجئ الفلسطيني في وضع قاهر منقطع عن القيم الإنسانية. لكنها وهي تصف امرأة فلسطينية أنقذت نبل روحها "بتلويث جسدها"، كانت ترى إلى شتات يشبه اللعنة، يمتد من بيروت، المدينة ـ المخيم إلى أرض الخليج، حيث على الروح المقهورة أن تعمل في "المتاح"، قبل تحمل عائلتها، التي دافعت عنها بإصرار عجيب، وترحل إلى السويد، بحثاً عن "إقامة

قسرية" محدودة الرحمة وبعيدة عن فلسطين. انتقل المخيم من علاقاته اليومية الملموسة، واستقر في الروح، التي تتذكر ما لن تراه ثانية، فبين كوبنهاجن والمخيم مسافة، وبين "خيام كوبنهاجن" وفلسطين مسافة فادحة غير قابلة للتجسير.

منعت سطوة التفاؤل نقد الشأن الفلسطيني، قبل الخروج من بيروت ومحا الشتات التفاؤل والمخيم معاً. دخلت سامية عيسى إلى موضوعها من باب النقد والمراجعة والنظر إلى روح فلسطينية صمدت كثيراً، قبل أن تعرف الاندحار. وبقدر ما أن التفاؤل، الذي كان ضرورياً، منع عن الفلسطيني أمراضاً كثيرة، وهو يعتصم بحلم جماعي، فإن الشتات المتصاعد أطلق النقد عالياً في رواية سامية "خلسة في كوبنهاجن"، منددا بأخطاء تراكمت، حجب الحصار "المتتابع" وجوهها. كان للنقد ربما في زمن "المخيم المسلح" لغته السياسية ـ التنظيمية، واستند النقد، بعد مذابح المخيم، على لغة يساورها الرثاء واللعنة. فالشتات لا يعد إلا بالمزيد من الشتات، وفي ثقافة الشتات ما يقرض الهوية، ولو بقدر. مع ذلك فإن أملاً ما، غريباً في أحواله صاحب عجوزاً حملت معها إلى "كوبنهاجن" غصن تين، أرادت له أن يعيش في بقاع الغربة والصقيع!!

رغم نقد عنيف يتاخم الاتهام ، واجهت سامية عيسى في روايتي "حليب التين، وخلسة في كوبنهاجن" "نمطاً إدارياً"، مشدوداً إلى أنانية مبتذلة، بوطني "قديم" حاصرته الشيخوخة، تجاوز ضيق المخيم بنبل رحيب، مراهنة على وطنية فلسطينية لا تموت. جمعت الروايتان بين مأساة الشتات المتصاعد ونقد عنيف "للمؤسسة الفلسطينية"، وسخرت من تحولات إيديولوجية رخيصة تعتنق المصلحة الخاصة وترمي بما تبقى جانباً. لم يكن خطابها الروائي بعيداً عن عاطف أبو سيف في رواية "حياة معلقة"، الذي قرأ أحوال غزة" في هجير سلطة جديدة" محت الفرق، أو تكاد، بين السلطوي والوطني والفئوي والشعبي، وبين الفردي المزهو بسلطة مفترضة، تثير الأسى، والجماعي المقاتل الذي ازدهر في غزة فترة طويلة. عارض بدوره بين عجوز وطني صادق، يرى فيه الشعب رمزاً يرفع الروح، وإداري يقتفي أثر مصلحته ويضطهد الذاكرة الوطنية. وفي حدود "تآكل تنظيمي"، يهدم ولا يبني ويبيع ولا يوحد، فتح الروائي نصه على شتات قائم، توزع بين لبنان والقطاع، وعلى "شتات مرغوب"، يتطلع إليه شباب لا يرون نوراً في نهاية الطريق.

بعد زمن الصعود و"الكيف القيمي"، يأتي انحدار مشدود إلى "كمّ ملتبس"، ذلك أن في "تجارة الأنفاق" ما يوسّع "بيوت الإدارة" ويزيد حصار القطاع حصاراً. غير أن الروائي، وليس بعيداً عن سامية عيسى، يلامس "رماداً وطنياً" لا ينطفئ، فما جاءت به الأرواح الفاضلة يستمر، محاصراً، في نسل نظيف الذاكرة. لذا يبدأ نصه الروائي "بموت يومي"، له سمة القدر، يجعل من ملصقات الشهداء عملاً وطنياً يومياً، إلى أن يسلم "صانع الملصقات" الروح ويلتحق بغيره. أخذ ملصق الشهيد صفة المجاز، إذ كل

ملصق يردّ إلى غير، وإذ الملصقات، التي لا تنتهي، شجرة غريبة الألوان والحروف. كأن ذلك الملصق الشاسع "غصن تين" آخر، يتعهده بالرعاية أحياء، يميزون بين "أنفاق التجارة" ورموز غزة القديمة. في خطاب سامية عيسى، الممتد من المخيمات المؤودة إلى البلاد الاسكندفانية رهان على ذاكرة فلسطينية لا تنطفئ، وفي خطاب الروائي الشاب، الممتد من غزة المقاومة إلى غزة السلطة، رهان على حس شعبي، عرف عنف المحققين الإسرائيليين قبل أن يعرف "سجوناً" جديدة، لها لغة مغايرة.

كان الفلسطينيون، في زمن مضى، يأتون من منافيهم المتعددة إلى "قلعة الثورة"، الذاهبة إلى فلسطين، وكان لهم "ثقافة الهدف الموحّد"، التي لا تأتلف مع ثقافة الشتات. خلقت المستجدات الفلسطينية، بعد ١٩٨٢، التي تكاثر فيها السلب والخيبة، شتاتاً جديداً، ووعياً مخذولاً يرثي "قلعة كانت"، وإرادة وطنية واعدة كانت تبدو موّحدة، ذات مرة. جاءت "القلعة"، أي الوحدة الوطنية العاقلة، بالهوية الوطنية، وجاء "ضعف القلعة" بأسماء كثيرة لا هوية لها. وقد نسأل: هل في أرض الشتات ما يخلق هوية فلسطينية؟ أليس في كسر الوحدة الوطنية الفلسطنية ما يعد الاحتلال الإسرائيلي بظهير جديد، حتى لو كان "مبتور القوى"؟

أودعت مايا أبو الحيات روايتها "لا أحد يعرف زمرة دمه" كل العثار الذي واجهه فلسطينيو لبنان بعد خروج المقاومة، و"الخيبات السياسية" التي تجبر الفلسطيني على تأمل "أصله" ومساره المقهور ولواذه بأضلاعه، كما لو كان اجتث من عالم البشر ورمي به إلى وجود موحش لا رحمة فيه. لذا تبدأ روايتها بفضاء جنائزي، يرحل فيه "الأب" وتنطفئ عجوز مقدسية، كانت "قابلة" واسعة الصيت ذات مرة. بعد الاحتفاء "بالولادة" يأتي موت ثقيل يتبعه الخواء، يستدعي شتاتاً، لا خيار فيه، ينقلّ الفلسطيني بين لبنان والأردن وتونس وفلسطين الحقيقية وأخرى متخيلة، ويخبره في النهاية أنه وحيد ينتمي إلى نفسه، وإلى "فلسطين مستحيلة": يريد أن يذهب إلى مزبلة في نابلس على أن يكون في أي مكان آخر".

تحكي الرواية عن المسافة بين رغبات الفلسطيني الواسعة في التحرر وعن إمكانياته "الذاتية" الفقيرة، وهو المقيد إلى عادات مريضة، وإلى وعي زائف لا يعرف الفرق بين الوهم والواقع. لذلك كان مسار تحرره مساوياً لمسار إخفاقه، ذلك أنه ظل محاصراً بقيم "رثّة"، أدخلت إلى الكفاح التحرري ما هو غريب عنه، وخلقت "نسلاً هجيناً من المناضلين"، لا يميزون بين الكفاح و"المهنة"، ولا بين الفدائي الكريم و"التابع" الذي لا قيمة له.

كتبت الروائية، التي ولدت عام ١٩٨٠، عن المعيش الفلسطيني في فترة سوداء، وأرادت أن تصل إلى قراره، ناشرة وجعاً فاض عن حدوده، ومستعيرة من الوجع منظوراً للعالم. بيد أنها، وهي تترجم عالماً لا رحمة فيه، أنتجت رواية فلسطينية جادة ومسؤولة، بعيداً عن تحبير سريع منقطع عن الحياة. جمعت

بين المعيش الفعلي والمتخيل، طارحة سؤالاً جديراً بالتأمل: كيف يكتب الفلسطيني المقهور روايته؟ ولعل اتساع السؤال وثقله هو الذي استدعى شخصيات ناقصة وحكايات واضحة وغير واضحة، ولغة إشارية تطرق باب "المجاز"، الذي لا يستوعب الواقع، حتى لو كان "كثيفاً". كما لو كانت تجربة اللاجئ مع الحياة تجربة أخرى مع الكتابة، تنوس بيد الوضوح الممكن والقلق الذي أضاع مركزه.

يستدرك المجاز الكلام الناقص، الذي لا يمكن العثور عليه، بإشارات فنية تستكمل المعنى، ولأن في التجربة الفلسطينية ما لا "يقال" عمد الروائيون الفلسطينيون، غالباً، إلى المجاز.

في "شرفة على الفاكهاني"، كما في "نجوم أريحا"، و"أرض من حجر وزعتر" قدّمت ليانا بدر وثيقة متميّزة عن عثار الفسطينيين، بل أن عملها "أرض من حجر وزعتر" يتمتع بأهمية خاصة، لا في بنائه الفني فقط، بل أنه العمل الوحيد تقريباً، الذي سجل مآل مخيم "تل الزعتر"، تجعله جديراً بمكان خاص في رواية الاغتراب الفلسطيني.

٤. البحث عن "اقتراح" وطني جديد

لم يرجع أكرم مسلّم في روايته "العقرب الذي يتصبّب عرقاً" إلى الوراء ولم يتقدم إلى الأمام، اكتفى بلحظات الاغتراب الواقفة في الحاضر، موحياً أنّ الحاضر المغترب سيد الأزمنة، وأن في هجير الحاضر ما يزيح الرؤية عن مكانها، ويستدعي "عقرباً محاصراً"، يقترب من الفلسطيني المحاصر. دخلت مايا إلى "مأساتنا" من باب "المرض"، دخلها أكرم من باب الاغتراب المتعدد الطبقات. اكتفت الأولى بشكوى ممضة، وطرق الثاني أسئلة وجودية مفتوحة.

روايتان جديدتان أرادتا خطاباً آخر، تعترفان بالتاريخ وتختارا منه بداية مغايرة. الرواية الأولى: راكب الريح ليحيى يخلف، التي ابتعدت عن المستقبل الذي يستأنف ماضيه، وذهبت إلى ماضٍ فعلي صورته يافا عام ١٧٩٥. لم يشأ الروائي أن يضيء الحاضر بالماضي فقط، بقدر ما شاء أن يرسم مقطعاً من تاريخ فلسطيني، ويقرأه روائياً، بلا إسقاطات، ومن دون "لاهوت"، آمن به بعض الفلسطينيين، فاعتقدوا أن المنتصر في الماضي يعود منتصراً في المستقبل، حال المؤرخ محمد عزة دروزة على سبيل المثال".

أزاح يحيى مفهوم الانتصار، الذي قد يساوي الهزيمة أحياناً، واستعاض عنه بإمكانيات الإنسان الذي يريد أن يعيش زمنه التاريخي، بعيداً عن أزمنة متوهمة وقياسات لا تفضي إلى شيء. ولهذا أضاف إلى "ابن يافا"، الذي شاء أن يتحرر من أساطيره، حكايات من "الثورة الفرنسية"، التي تعترف بالإنسان وتبدأ به، وترى الإنسان العاقل، القادر على التصرّف بحياته، محصلة لثقافة إنسانية

متعددة الأبعاد. سأل في روايته: إذا كان التاريخ نظرياً، هو الحاضر، فهل في الفلسطيني الحاضر ما يسمح بالتعامل مع التاريخ؟ أليس في القيم والثقافة، بالمعنى النبيل، ما يعوض الإنسان ضعفه. هل طرق "الهوية الوطنية" متماثلة أم أنها تختلف باختلاف موازين القوى؟ قدّم يخلف رواية جديدة وقدّم فيها اقتراحاً وطنياً عالي الطموح. وأكدّ الرواية "كتاباً" في النظر الوطني الباحث عن أفق .

عالج ربعي المدهون في روايته "مصائر" ما عالجه هؤلاء الروائيون المحاصرون "بعذاب الشتات" ومرارة المراجعة الذاتية. جدّد في عمله الرواية الفلسطينية، تاركاً غسان كنفاني مع أسئلته "القريبة من فلسطين"، ورافق المشتتين من الكويت إلى كندا، ومن غزة إلى لندن، ومن جميع المنافي المحتملة إلى "فلسطين"، التي لم تعد فلسطين، بعد أن اغتصب بيوتها وافدون لا يتكلمون اللغة العربية. بيد أن جديد ربعي، الذي يتضمن "شجاعة" عالية الصوت جديرة بالحوار، تكمن في صيغة: الهنا والآن. كانت "هنا" غسان هي المخيمات، وكانت "الآن" اندفاع مسلح إلى فلسطين "القريبة". أما ربعي فرأى "الهنا" في ما وصل إليه الفلسطينيون، تلك المنافي البعيدة، عن فلسطين، ورأى "الآن" في مراجعة للذات، أسبغ عليها الشتات الممتد حنيناً فادحاً.

كيف تركنا هذا الوطن الجميل. وكيف تخلّينا عن أرض قريبة من الجنة؟ طرح ربعي السؤال ولم يبحث عن إجابة، تاركاً غيره يبحث عنها، مكتفياً بحسرة فادحة يخالطها النشيج. وعلى الرغم من عشق ممض لفلسطين التي كانت، فإن في رواية ربعي ما يوحي بالوداع، ولهذا يزور بطل روايته، وهي قريبة من سيرة ذاتية، من فلسطين المتاحة، مختلفاً من القدس إلى عكا، ومن المدينتين إلى غزة ويافا وحيفا وسفوح الكرمل.

من أي الطرق ندخل إلى فلسطين؟ بعد أن غدا الآن زمناً مرهقاً لا يمكن الإمساك به، وأصبحت "الهنا" شيئاً قريباً من الأحجية. عاد ربعي، رمزياً، إلى فلسطين، منجزاً عملاً روائياً مبدعاً، واشتق من شقوق الحنين والذكريات نثراً يخالطه الشعر والتصوّف "وخفقات الروح"، تلك التي لا يعرفها إلا لاجئ عائد إلى بيت، لم يعد بيته، بعد أربعين عاماً.

٥. مكتبة الذاكرة التي تواجه النسيان "قليلاً":

يقول الأفارقة: حين يدفن عجوز تدفن معه مكتبة. ومع أن بين الفلسطينيين ما يوحّدهم، ولو بقدر، فإن لكل فلسطيني مكتبته الشفوية وحكايته. إن مكتبة الفلسطينيين هي تجاربهم، الموزعة على قتيل لم يجد قبراً، وعلى شاب ينهض مسلحاً بالأمل و"يطلب الشهادة".

تشكّل الرواية الفلسطينية اليوم "مكتبة"، لا يمكن دفنها، تسرد أقداراً غريبة، وبالغة الغرابة،

وتعطف ما جرى وما يجري على "فلسطين" القديمة، أو الذاهبة إلى حيث يشاء لها التاريخ أن تذهب: سرد جبرا حكاية الموظف الفلسطيني المهدد بالطرد، إن أخطأ في السلوك والطلب، وحكى غسان عن تلك العجوز التي تعتاش من "خدمة الأغنياء" وتحتفي بابنها حين "ينتقل من خيمة إلى أخرى"، واعتكز إميل حبيبي على ذاكرته وزار مواقع فلسطين في "أيام العرب"، وسجل يحيى حكايات "رجل النار" الذي تدفئ حكاياته صبيان المخيم، وكتبت سحر خليفة عن خيبة الفلسطيني مما آلت إليه قضيته، وتحدّث أكرم مسلّم عن اغتراب حائر في رام الله، وعاد محمود شقير إلى حكايات الأهل في "مديح لنساء العائلة"، العمل الممتع المصاغ بلغة فاتنة، وأبدع حسين البرغوثي وهو يرثي مريضاً يحاور الأطلال، ورفعت سامية عيسى صوتها في وجه فلسطيني زائف يستثمر أوجاع الفلسطينيين، واستذكرت مايا أبو الحيات عثار فلسطيني مقاتل وزعته الأقدار على مدن عربية كثيرة، و"سجلت" ليانة بدر، عذابات مخيم فلسطيني يحتضر، وزار ربعي المدهون بيوتاً فلسطينية خلت من أهلها وأوغلت في البكاء،....

أرادت الرواية الفلسطينية أن تكون ذاكرة، فالذي يفقد الذاكرة لا يعرف من أين جاء، وأن تكون وثيقة تسرد صعود وشتات الفلسطيني، وأن تكون نصاً إبداعياً مسؤولاً، يرى نقاط الضوء ويسرّح النظر في عتمة دامسة. وفي المساءلة ـ الذاكرة يكون الروائي الفلسطيني مثقفاً بامتياز، فهو ينقد لسبب، ويوغل في الشكوى لسبب، ويرى في كرامة الإنسان الفلسطيني سبب الأسباب جميعها. وبهذا المعنى، لا تكون الرواية الفلسطينية سارداً ومسروداً، ففيها ذاكرة وخطاب سياسي وأخلاقي، وفيها ما يقف أمام التاريخ ويسأل عن "محكمته" الشهيرة، التي لا يستمع قضاتها إلى الشاهد إن كان ضعيفاً.

والدليل على موقف الرواية المسؤول صعودها اللافت، في السنوات الأخيرة، الذي يبرهن أن الفلسطينيين كانوا، ولا يزالون، قادرين على الإبداع الكتابي، وأن إبداعهم يصعد كلما ضاق زمنهم الوطني، وخير الروايات يسأل ولا يبكي، ويسير وراء ما يدعى: الحقيقة.

أي الطرق تؤدي إلى فلسطين التي كانت، وماهي معالم الطريق بين ما كان وما سيكون؟

حين يموت العجوز الإفريقي تدفن معه مكتبة. غير أن بين العجوز، الذي عرف الاستعمار طويلاً، والقضية الفلسطينية فرقاً واختلافاً، فهي لا تموت، يمنع عنها شعبها الموت والنسيان، وبرهن ويبرهن أنها قضية عادلة ستنتصر، ولو بعد حين.

الروائي المصري إبراهيم عبد المجيد:
زيارة فلسطين لا تحتاج إلى استفتاء لكني لا أريد "وجع دماغ"!

الثقافة شأن المجتمع المدني وعلى الدولة أن تحمي حقوق الكاتب

السيرة قيمة مضافة للنقد

حاورته بديعة زيدان:

الحوار مع روائي المصري إبراهيم عبد المجيد، بثقافته الموسوعية، وخفة دمه رغم ما يعتصر عبارات رواياته من ألم يحاكي الواقع، أو يسبقه أحياناً، مختلف بالتأكيد، هو القابض على جمر الرواية الحقيقية في زمن كثرت فيها روايات تحمل من الرواية وصفها فقط .. عبد المجيد مواقفه واضحة مما حدث ويحدث ويمكن أن يحدث في الرواية وفي الحوارات .. وهنا واحد من حوارات البوح لـ"أوراق فلسطينية" مع صاحب "أداجيو"، و"هنا القاهرة"، وسلسلة روايات "الإسكندرية":

• في رواية "اداجيو" الفائزة بجائزة كتارا ينتصر ابراهيم عبد المجيد على غير العادة للرومانسية .. هل في هذا انتصار لحس داخلي ما أم استراحة من ثقل الاسقاطات السياسية والتاريخية ومعايشة اليومي في مصر ؟

- هي حكاية خاصة جدا مع الكتابة. لقد تعرضت إلي شيء شبيه بالتجربة الروائية مع زوجتي الأولى رحمها الله. كان ذلك منذ حوالي خمس عشرة سنة.. أمضينا عامين لا أحب أن يراهما أي أحد مع مرض السرطان اللعين الذي أصابها. أخطاء الأطباء كانت كثيرة في التشخيص مما أدى بنا إلي النهاية المرعبة.

حين تم اكتشاف المرض كان قد استفحل ولا شفاء منه. في تلك الأيام كنت كارها لكل شيء حولي بعد أن فارقتني. غير قادر علي التواؤم من جديد مع ما حولي.. كتبت بعد ثلاثة أعوام من وفاتها رواية "برج العذراء". كانت أشبه بنفثة الألم الأولى. وكل الذي اعتبرته فيها مضحكا وساخرا لم يره القارئ مضحكا.

وتركت فيها الحبل علي الغارب، كما نقول في مصر، للخيال. كل من فيها يتجمعون في بار اسمه برج العذراء بينما ضاعت عذريتهم في هذا العالم.. منتهكين سياسيا واجتماعيا وجسديا في بعض الأحيان. لا أكذب إذا قلت أني ارتحت قليلا بعد أن كتبت الرواية التي أخذتني إلي خيال جامح. بعد أربع عشرة سنة وجدت رغبة في روحي تتمدد أن أكتب قصة حب. ليس فيها من تجربتي مع زوجتي إلا السرطان وتداعياته. بدأت في كتابة اداجيو. وأداجيو لحن موسيقي حزين للموسيقار الإيطالي تومازو البينوني. مات قبل ان يتم عزفه ووجدت النوتة الخاصة به بعد وفاته باكثر من مائة سنة. قيل أن من وجدها هو مؤلف اللحن وقيل أنه البينوني. المشهور أنه البينوني. وهذا اللحن كنت أسمعه كل ليلة علي طول عمري وسط الليل، والسبب أني من هواة البرنامج الموسيقي الذي لم يتغير مؤشر الراديو عنه منذ أكثر من أربعين سنة.

كتبت كل اعمالي على نغمات البرنامج الموسيقي بعد أن ينتصف الليل. وكان هذا اللحن يأتي كل ليلة حوالي الثانية صباحا حزينا وسط ألحان مبهجة أو درامية. ثم تعود الموسيقى إلى ما اعتدت أن أسمعه. كونشيرتات وموسيقى تصويرية لأفلام وسوناتات ومقاطع من سيمفونيات. بدأت الرواية خائفا أن تمنعني الذكريات التي ستستيقظ. لقد بدأتها من قبل فانسالت دموعي مع السطور الأولي فتوقفت. هذه المرة لم تأت الدموع إلاّ بعد أن انتصفت الرواية. لم يكن ممكنا العودة. اكملتها في سعادة كبيرة. وجاءت الرومانسية لأنها قصة حب تنتهي بالفراق.

• ما دمنا نتحدث عن اداجيو لا يمكن اغفال الحملة التحريضية عليك من قبل مثقفين مصريين وصلت الى درجة التخوين؟ ماذا تقول لكل من هاجمك؟

-لقد فزت بجائزة وسط عشرة كتاب عرب عادوا إلى بلادهم معززين مكرمين.. وأقول لمن هاجمني ما أقوله دائما: اكتبوا شيئا له قيمة رحمكم الله ليس فيكم من له تاريخ في النضال الوطني مثلي.

• لك حكايات كثيرة مع الجوائز وما يرافقها من اتهامات.. هلا حدثتنا عن جائزة نجيب محفوظ العام ١٩٩٦ عن رواية "البلدة الأخرى" وتدخل محفوظ بنفسه للدفاع عنك؟

- الحكايات مرتين فقط. الذين هاجموني وقتها لأني كنت أول من يفوز، وهم تعودوا على قطف الثمرة الأولى، ولأنهم يجلسون مع نجيب محفوظ ويتصورون أنهم ماداموا قد جلسوا معه فهم

الأولى.. كانت أياماً مضحكة. بعضهم ترجمت له الجامعة الاميركية فيما بعد فصارت الجامعة الاميركية "حلوة جدا". وعلى رأي عادل امام " متعودة "، وبالمناسبة هكذا كتبت في ردّي على من هاجموني بسبب جائزة كتارا.

• فزت مؤخرا بجائزة الشيخ زايد للاداب عن كتابك "ما وراء الكتابة: تجربتي مع الابداع".. برأيك ما أهمية تقديم شهادة لسيرة روائية وسردية لكاتب معروف مثلك خاصة عند الاجيال الشابة من الكتاب وما هي الخلطة الفنية لتميز مثل هذا النوع من الكتابة لدى ذلك الكاتب عن ذاك؟

- هي شهادة للزمن وعن الزمن والمكان وفيها أحاديث كثيرة من خلال فهمي للأدب وما هو قريب منه مثل الفلسفة وعلوم الجمال والفنون الأخرى وكيف عالجت ذلك كله. هو قيمة مضافة للنقد الادبي. كما أنه يفك الغازا كثيرة للكتابة ويقدم دروساً ممتعة للقارئ الشاب تصل به الى فهم القضايا النقدية والجمالية من أسهل الطرق. كما أنه شهادة على الزمان والمكان الذي جرى فيه ذلك كله.

" الاسكندرية " مرثية العالم القديم

• "لا أحد ينام في الاسكندرية".. "الاسكندرية في غيمة"، وكتاب "غواية الاسكندرية" جعل البعض يصفك بحارس تاريخ الاسكندرية.. ماذا تعني لك الاسكندرية وما اهميتها كحاضرة تاريخية وثقافية في مصر والعالم برايك؟؟

- الاسكندرية هي العالم وتاريخه. يوما ما كانت مدينة العالم ثم صارت بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ مدينة مصرية لكن لاتزال تحتفظ بملامحها العالمية ثم صارت منذ السبعينات مدينة وهابية سلفية رجعية بفعل المد الرجعي الذي أسموه بالمد الاسلامي الذي جرى بتعاون من الحكم نفسه، هي إذن مرثية للعالم القديم الذي نتمنى لو عدنا إليه يوما ما.

• وصفت نفسك في أحد اللقاءات بأنك كاتب ليلي.. هل يعني هذا أنك لا تكتب في ساعات النهار وأن في الليل طقوس كتابية خاصة بك؟

- بالضبط. كل أعمالي كتبتها على إيقاع البرنامج الموسيقي بعد أن ينتصف الليل. النهار للمقالات. وطقوسي بسيطة جدا. صمت يحدث بالضرورة بعد أن ينتصف الليل فكل ماحولي يدخل في الصمت. وضوء كهربائي شديد البياض والموسيقى وبين حين وآخر كوب من الشاي أو فنجان من القهوة وطفاية السجائر أمامي. في السنوات الأخيرة ولتقدم العمر كتبت بالنهار أحيانا لأنه لم يعد

لدي فسحة وترف الوقت لكني كنت أراجع ما أكتبه أكثر مما أكتب.

• عبر رواياتك المتعددة حفرت عميقا في التاريخ في اسقاطات على الواقع المعاش كيف يرى روائي مثلك الواقع المصري والعربي الآن على الصعيدين السياسي والابداعي ؟

- أرى الواقع العربي إلى انحدار كبير على الصعيد السياسي لكن الإبداع سيستمر والإبداع رغم أي معوقات ينمو ويزدهر مع القمع. الإبداع له ألف طريق للظهور. كتبت يوما منذ عشرين سنة كيف كسب الملوك وخسر الرؤساء مقارنا بين الدول الملكية والدول الرئاسية الأكثر ديكتاتورية من الدول الملكية. لاحظي أن الثورات حدثت كلها في الدول الرئاسية. لكن الآن للاسف الخطر الذي داهم الدول الرئاسية يداهم الدول الملكية ليس بسبب ثورات متوقعة ولكن بسبب الفكر المتطرف الذي لايقف عند حدود.

• هل توافق على أن مصر بدأت تعيش حالة من النكوص على مستوى الحريات.. وانعكس ذلك في اعتقال احمد ناجي.. والحديث عن قرارات غير مسبوقة في نقابة الفنانين.. هل تستشعر الخطورة على مجمل المشهد الابداعي في مصر؟

- لا أشعر بخطورة على المشهد الابداعي. الإبداع يحقق نفسه بكل الطرق الممكنة وغير الممكنة. ثم إنه لن يحدث نكوص في السينما مثلا أو المسرح أكثر مما هو حادث. لم تعد مصر هوليوود الشرق ولم يعد لدينا مسرح مثل ما كان في الستينات وقبلها مثلا، ولم يكن ذلك بفعل الأفكار الرجعية بقدر ماهو بفعل الدولة المركزية التي سيطرت على مراكز الثقافة سيطرة أمنية فلم تعد تسمح إلا بما يعجبها، ولايعجب الأمن إلا تفاهات الأمور، كذلك تهمل الدولة تطبيق قوانين حماية المؤلف والنتيجة أن أي منتج يضع أمواله لانتاج فيلم يجده في اليوم التالي على فضائيات غير معروفة لم تشتره وعلى اليوتيوب مجانا. سرقة علنية تسببت في خسارة فادحة فخرج المنتجون من المعادلة ولم يعد انتاج الافلام إلا قليلا جدا لايذكر. على الدولة أن تخرج من الثقافة وأنا من دعاة الغاء وزراة الثقافة وترك الأمر للمجتمع المدني وأن ينحصر دور الدولة في حماية المؤلفين والمبدعيدن من سرقة أعمالهم.

الزي مرتبط بالمكان وليس بالدين

• في مقال حديث لك بعنوان "على ابواب الصيف" تحدثت عن العلاقة بين الازياء والدين وخلصت الى نتيجة مفادها أن مصر مصابة بهوس ارجاع كل شيء الى الدين.. هناك نظرة عميقة عبر هذا المقال وكأنك تدق ناقوس خطر ما ؟؟

- هذا مقال من مقالات كثيرة كتبتها في الموضوع. خربوا دماغنا أحاديث عن الزي الإسلامي وكلها أزياء تخص المكان. صحراء أو حرارة أوبرودة. فالطوارق مثلا ملثمون لأنهم يمشون وسط الرياح. وسكان الجزيرة العربية يرتدون الجلابيب لأنهم في مناخ حار وهكذا لكن للآسف لا أحد يفهم مانقول. الزي مرتبط بالمناخ وطبيعة العمل لا بالدين.

• قلت وبكل صراحة أنك حين قابلت الرئيس صارحته بآلية القمع الجارية في البلد التي تحرم اي مثقف من الدفاع عن النظام الحاكم.. هل هي جرأة المبدع الحقيقي أم الخوف على مصير التاريخ الابداعي لمصر ومثقفيها؟

- لقد ذهبت لاقول الحقيقة التي يقال أنها غائبة. دائما يقال أن الرؤساء تغيب عنهم الحقائق ورغم أني لا أصدق هذا لكني ذهبت أقولها حرصا على البلاد والعباد.

• اختيار روايتك "لا أحد ينام في الاسكندرية" كواحدة من افضل مائة رواية عربية لم يأت اعتباطا فالرواية التي تتحدث عن الاسكندرية في الحرب العالمية الثانية مزجت ما بين تاريخ حقيقي واحداث متخيلة وهنا يبرز سؤال يتعلق بأحقية الروائي في التخييل والاجتهاد امام وقائع تاريخية وهو ما يختلف فيه الرواة انفسهم والنقاد ايضا؟

- "شوفي حضرتك ويارب ماحدش يزعل مني".. أنا قرات كثيرا جدا من الروايات التاريخية عالمية وعربية. ورأيي من زمان مختلف عما يقوله النقاد حين يناقشون هذه الرويات ويستخلصون منها إسقاطات على الحاضر. رأيي بسيط جدا . لماذا أكتب رواية لأعيد تفسير الواقع أو التاريخ. أنا اكتب الرواية لأنقل القارئ إلى هناك فيستمتع بعالم لم يعرفه. لماذا أخرج بشرا من قبورهم واعيد تفسيرهم باعتبار ان احدهم مثل زعيم ما معاصر أو العكس وهي ناس ماتت منذ آلاف السنين. دا حتى حرام نكش "الترب" !

أنا آخذ القارئ الى المكان والزمان الذي اكتب عنه بلا أي افكار مسبقة. وحين كتبت لا أحد ينام في الاسكندرية حاولت الإمساك بذلك العصر. عصر التسامح والعالمية الذي لم تشهد مصر مثله بعد أن تمت سيطرة الجيش على الحكم العام ١٩٥٢. لذلك انفقت ست سنوات مابين كتابة وقراءة وزيارات لأقترب قدر الإمكان من الحياة وروحها وروائحها وطعومها.

• لا أحد ينام في الاسكندرية تضمن رسالة مهمة في التعايش ما بين المسلمين والأقباط عبر العلاقة المتميزة لشخصية الشيخ عبد المجيد وشخصية دميان المسيحي.. هل تعتقد ان هذه العلاقة تمر بمرحلة انتكاسة حالية أم أن الأمر اقتصر على فترة حكم الاخوان لمصر ؟

- هي تمر بانتكاسة منذ عهد السادات الذي جعل هذا طريقا في الحكم. الإخوان فقط تشجعوا أكثر حين

امسكوا الحكم لكنهم كانوا يفعلون ذلك من قبل هم والسلفيون منذ عصر السادات وبحماية الدولة.

اذا ما تحدثنا عن " هنا القاهرة" لا يمكن اغفال ابطالها المبهجين وكانها رواية تسعى للانتصار لفلسفة السعادة ولكن هل يمكن أن تاتي السعادة من الشجن؟ السعادة التي تاتي من الشجن هي أجمل انتصار للحياة. هكذا كان ينتصر أبطال الرواية المنهزمين دائما !!

• في "هنا القاهرة" حديث عن العاصمة في سبعينات القرن الماضي على مستوى السياسة والثقافة والفن .. هل هي استعارات نقدية أم تعبير عن حسرات لزمن مضى وتتمنى عودته؟

- حاولت أن امسك بالقاهرة الجميلة وبآخر أطيافها كما فعلت في رواياتي عن الإسكندرية . تشجعت على ذلك بعد أن كتبت روايتين عن القاهرة المعاصرة " عتبات البهجة " و" في كل أسبوع يوم جمعة " كنت أعيش فيها غريبا دايما.

هذه المرة قامت أمامي وأحببتها بحق رغم أن ما نعيشه الآن يكرّه الواحد في الدنيا !!

زيارة فلسطين ليست بحاجة لاستفتاء وأفضل أن تكون جماعية

• نشرت مؤخرا على صفحتك في موقع التواصل الاجتماعي فيسبوك ما يشبه الاستفتاء على زيارتك الى فلسطين .. هل زيارة فلسطين برأيك تحتاج الى استفتاء؟

- بصراحة لا . لكن الإتهامات بالتطبيع منتظرة خلف الأبواب واكثر من يفعلون ..... لا أريد أن اخطئ في أحد ! وأنا في حيرة شديدة كيف حقا لا نستطيع زيارة اهلنا في الضفة وغزة . وفي الضفة بالذات بحجة المرور على بوابات اسرائيلية . لذلك طلبت استفتاء وسعدت بأن الغالبية الكاسحة كانت مع الزيارة لكن فضلت أن تكون جماعية . وفد مصري قد يتحقق يوما. لا أذهب وحدي. لم تعد لدي قدرة على وجع الدماغ.

في العام ٢٠٠١ كان هناك محاولة لترجمة روايتي لا أحد ينام في الإسكندرية الى العبرية ورغم أن وكيلي كان الجامعة الأميركية إلا أن الدنيا ثارت وأكثر من ثاروا بعد ذلك قالوا ان الترجمة العبرية ليست مشكلة. المشكلة دائما هي انا. بين عدد من كتاب الستينات وبيني عداوة لا أفهم لها سرا إلا كتاباتي. ليس لي منصب ثقافي ولا صحافي طول عمري في الشارع علي قهوة البستان لكن كتاباتي مصدر القلق. لا أريد أن اتذكرهم ولا أريد وجع الدماغ. وذلك ماقلته ذلك الوقت حين تراجعت عن الترجمة. قلت بالنص لا أريد وجع دماغ. رحم الله الموتى والاحياء.

• ماذا تعني كلمة تطبيع لابراهيم عبد المجيد وهل يرى في زيارة فلسطين تطبيعا أم أنه يخشى من

اتهامات بالتطبيع من جهات معينة.. وما رايك بمقولة أن زيارة السجين ليست تطبيعا مع السجان؟

- طبعا زيارة السجين ليست تطبيعا مع السجان. وهناك من ذهب إلى الضفة ولم يعلق أحد عليه لكن ماذا أفعل والسكاكين تنتظر من أنصاف الموهوبين وطالبي الشهرة. هؤلاء أحب ان افاجئهم برواية جديدة جميلة تقتص لي منهم وتجعلهم في نكد أفضل من أن أعطيهم فرصة النهش في اللحم. كما قلت لك أفضل أن تكون الزيارة جماعية كما أني لا أريد "وجع الدماغ".

• هل توافق على أن ما يسمى بالربيع العربي انقلب خريفا.. أتحدث عن الوطن العربي عامة ومصر على وجه الخصوص؟

- للأسف انقلب خريفا. بل أصبح شيئا خارج الزمن. كانت المؤامرات عليه من الداخل والخارج أقوى من براءة الشباب. ففي مصر مثلا نحن بين شقي الرحى. الحكم العسكري والإخوان المسلمون والإثنان وجهان لعملة واحدة هي الاستبداد وكلاهما يرعى الآخر مهما بدا من عداوة بينهما فالعسكريون يرون في الإخوان الفزاعة التي يعيشون على تخويف الشعب منها والإخوان يرون في العسكر القوة التي يمكن أن يستندوا اليها في حكمهم وليس الثورة والثوار.

كما أن للثورة أخطاء على رأسها افتقاد القيادة لعدد طويل من السنوات. وتناقض غريب فيها أنهم الثوار الشباب يكرهون العواجيز ويهاجمونهم ثم يجرون وراءهم في الانتخابات ولايساندون مرشحا شابا منهم.

• يشهد الوطن العربي عامة ومصر على وجه الخصوص غزارة في الانتاج الروائي .. هل ترى في ذلك مؤشرا ايجابيا يساهم في انتعاش الحركة الثقافية والابداعية او انه على العكس من ذلك .. ولماذا ؟

- أجل . هذا الزخم الروائي يساهم في انتعاش الحركة الثقافية والإبداعية لكن ينقصه النقد الذي يستطيع ملاحقته. فالنقاد ليسوا مقصرين لكنهم قياسا إلى الأدباء قليلون.

• بعض الروائيين يتحفظون على اقتحام عوالم المسكوت عنه او حين يقتحمونها لا يستفيضون بالوصف والتحليل خاصة اذا ما تعلق الامر بالجنس والدين والسياسة؟ هل في الرواية محرمات؟

- الكتابة الحقيقية بنت موضوعها وشخصياتها ومكانها وزمانها ومن يضع لنفسه حواجز تحت أي اسم لا يصل إلى الصدق الفني. الذي يحدد الحرام والحلال في الرواية هو الصدق الفني. فإذا كانت الشخصية خليعة فكيف يتم التعبير عنها بدون لغة تحمل ذلك، واذا كانت الشخصية ملحدة فالأمرنفسه واذا كانت خيرة او شريرة كما أن المكان يدفع دفعا الى تجاوز المألوف خاصة حين يكون المكان غير مألوف ! وهكذا.

• بمن تاثرت من الكتاب والروائيين العرب والعالميين .. لمن تقرأ ؟

- تاثرت بكافكا وكامي ودوستويفسكي ودينو بوتزاتي أكثر من غيرهم، كما تأثرت بالفلسفة وخاصة الوجودية وبالملاحم اليونانية وتأثرت من العرب بنجيب محفوظ ويوسف إدريس. أما القراءة الآن فليست بكثافة الماضي والأسماء كثيرة لكن مؤكد أني سأنسي بعضها. ففي كل بلد عربي الآن اسماء عديدة رائعة.

• من يلفتك من الروائيين الشباب العرب؟ وما المميز لديهم عن غيرهم؟

- كثيرون لكني اقف عند كاتبة مثل شهلا العجيلي التي تبدع تكوينا وشكلا أدبيا مغايرا يجمع بين الواقع والسحر والحقيقة والخيال، ولديها عالم رائع من النساء الوحيدات كما انها في روايتها الاخيرة "سماء قريبة من بيتنا" قدمت عملا ملحميا يمتد من الفترة الكولونيالية إلى ظهور داعش في بناء قوي ومثير وطبعا هناك غيرها.

• هل توافق على ان العديد من الروائين الشباب العرب باتوا على مستوى الشهرة وحتى المبيعات يهددون عروش الرواد او يسحبون البساط من تحت اقدامهم؟

- ليس هناك في الفنون شيء اسمه تهديد عرش كاتب أو جيل. الإبداع العظيم عابر للأجيال. وليس هناك في الفنون نفي لكن هناك نسخ. فالجديد مهما ادعى انفصامه عما سبقه هو نتاج له معارضا أو مطورا أو متمردا. المهم أن يكون إبداعا.

• هل توافق على أن هناك روائيا شابا وروائيا عجوزا؟

- لا طبعا. والرويات الكبرى تأتي غالبا مع النضج في العمر وكل كاتب يتصور أن ما كتبه هو الأروع ثم يكتب غيره وهكذا. للأسف كثيرا ما تقاس الآداب بمقاييس السياسة وهذا خطا كبير في حياتنا الأدبية.

• ان كنت مطلا على المشهد الابداعي في فلسطين وخاصة الادبي منه هل لديك ما تقوله في هذا المجال؟

- اطلالتي قديمة منذ الستينات. قرأت فدوى طوقان وابراهيم طوقان وفي السبعينات فتحت النوافذ لأري محمود درويش وغسان كنفاني، ومن درويش الى غسان زقطان مرورا بسميح القاسم وتوفيق زياد وكمال ناصر وأحمد دحبور، وطبعا هناك أسماء أخرى وفي الرواية قرأت جيدا بعد أعمال غسان كنفاني التي سحرتني كرشاد ابو شاور واميل حبيبي وروايات يحيي يخلف التي سحرتني أيضا منذ نجران تحت الصفر حتى راكب الريح، مرورا بجنة ونار وتفاح المجانين.

كما قرات روايات ابراهيم نصر الله وجمال الناجي قبلهم جبرا ابراهيم جبرا وسحر خليفة وليانة بدر، ومحموعات قصصية لمحمود شقير وأخيرا الروائي ربعي المدهون .. وأسماء أخرى كثيرة.

هناك تنوع كبير في الرواية والقصة الفلسطينية، لكن للأسف لايزال ينظر للأدب الفلسطيني باعتباره أدباً مقاوماً بالمعنى المباشر للكلمة أو يبحث بعض القراء فيه والنقاد عن ذلك المعنى المباشر بينما هو إنساني عظيم يصلح لكل زمان ومكان ومقاومته من إعلانه المضمر أن هنا أرضا وبشرا مثل كل البلاد.

• ماذا بعد أداجيو؟

- انتهيت من الكتابة لرواية عن ثورة يناير في مصر العام ٢٠١١ . رواية خيالية مثل روايات العصور الوسطى مليئة بالوحوش والثعابين والموتى الأحياء وخيال جامح وجدت فيه ملاذا من الوقوع في المباشرة. اتركها بعض الوقت لأعود اليها بعين أكثر حيادا وأتوقع ان أنشرها مع بداية العام القادم، وتخايلني القصة القصيرة كثيرا الآن، وكتبت واحدة فرحت بها فرح الأطفال، وربما استمر فيها فهي فن عشقته كثيرا وكتبت فيه أعمالا أحبها كثيرا، لكن شهرتي كروائي أضاعت فرصة قصصي القصيرة.

أورهان باموق بورتريه الكاتب

حسين عيد

هذا "بورتريه" للكاتب التركي أورهان باموق، من خلال تناول أبعاد (الأسرة) التي عاش في كنفها ومدى تأثيرها عليه، كاشفا ملامح (المستقبل) الذي خطط له، والذي لم يلتزم به وأجرى فيه (تغييرا) جوهريا يتناسب مع شخصيته واستعداداته، وكيف أوصله هذا التحول الى رحلة (ابداعه)؟!، وما هي الرواية التي خطت له سبيل النجاح والاستقرار؟!

ملامح أسرة:

ولد أورهان باموق في إسطنبول في ٧ حزيران / يونيو ١٩٥٢، وهو ينتمي لأسرة تركية مثقفة. وقد تحدث أورهان عن (أسرته) – في حوار أجراه معه جمال الغيطاني، نشر في "أخبار الأدب" بتاريخ ٢٢ كانون أول/ ديسمبر ٢٠٠٢ – فقال " كان جدي لأبي يعيش في تركيا بالقرب من أزمير، ثم انتقل إلى اسطمبول وهناك درس الهندسة المدنية وبدأ العمل بها . وفى ثلاثينات القرن الماضي وعند إعلان الجمهورية التركية، بدأ يعمل في بناء السكك الحديدية وحقق من ذلك مكاسب كبيرة، لكنه مات وهو في سن صغيرة . بعد ذلك درس أبي وعمي الهندسة المدنية في نفس جامعة إسطنبول ".

ثم تزوج والد أورهان من فتاة تدعى " شكورة "، كانت أسرتها تعمل في تجارة المنسوجات، وانجبا ولدين :"أورهان "، و"شوكت" .

كما تحد ث أورهان – في ذات الحوار السابق ذكره – عن (توزّع) والده بين (عمله) ورغبته في أن يكون (شاعرا)، فقال أنه " حاول أن يصبح شاعرا لكنه فشل بسبب اشتغاله بالتجارة، واكتفى بترجمة قصائد " بول فاليري" ومقتطفات من الأدب الفرنسي. ونتيجة لهوايته هذه تكونت لديه مكتبة ضخمة تحوي آلاف الكتب المهمة "، " لم يكن بها كتب من أو عن التراث الإسلامي، لأنه لم

يكن مهتما سوى بالثقافة الغربية ". أما أهم ذكريا ت أورهان عن تلك الفترة، فكانت عن أن الأب " كان دائم الحديث عن اعتزازه بمعرفة كتاب فرنسيين مثل"سارتر" وغيره من الكتاب، لأن ذلك كان أهم لديه من معرفة أصحاب المناصب والألقاب".

لقد تفتحت طفولة أورهان من خلال وسط (أسري) ثقافي، حين وجد (مكتبة) زاخرة تحوي آلاف الكتب الغنية في مختلف مجالات (الفنون)، وأبا رغم تخصصه (العلمي) يحلم بأن يكون (شاعرا)، وهو ما جعله يتشبع بالثقافة (الغربية)، ويزور (باريس) عدة مرات، و(يترجم) بعضا من أشعار بول فاليري ومقتطفا من الأدب الفرنسي، ويتيه إعجابا بالكتاب الفرنسيين ويضعهم في أعلى منزلة !

وإذا كان هذا هو (المناخ) الذي نشأ فيه أورهان باموق، مع هذا (الأب) بكل ما يمثله من نموذج وقدوة، فلعل ذلك قد ساعد (خياله) على أن ينشط منذ يفاعته الأولى، وهو ينصت إلى (حكايات) العشاق الموروثة من التاريخ الإسلامي التركي، مثل حكاية خسرو وشيرين، التي قال عنها – في حوار مترجم منشور في " بيان الكتب " ص٩ من جريد ة " البيان " ٢٦ تشرين ثاني / نوفمبر ٢٠٠١-" إنها الصورة التي تتلقاها في طفولتك، وربما لأنه لم يكن يتوفر في تلك الأيام اختراعا ت كالصور أو السينما أو التليفزيون، فكانوا يختزلون في أذهانهم الصورة نفسها "، ولأنه كان يمتلك (موهبة) فنية طبيعية، كان منطقيا أن تبزغ موهبته في (الرسم) منذ سن السابعة، فبدأ يرسم . وانظر إلى تشجيع والده، كما عبر عنه - في الحوار المذكور مع جمال الغيطاني – " كان والدي عندما يرى ما أرسمه وأنا في السابعة من عمري يصيح : ياله من ولد عبقري" . وربما من ذلك المنطلق تولدت لديه (قناعة) بأنه يريد أن يصبح فنانا تشكيليا، وهو ما عبر عنه – في مقال له بعنوان " تاريخ خاص " منشور بجريدة " الجارديان " البريطانية في ٧ كانون أول/ ديسمبر٢٠٠٢، والمنشور ترجمته بجريدة " عمان" في ١٤ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٣ - بقوله " لقد كنت مشدودا إلى موضوع الفن التشكيلي، لأنني ما بين سن السابعة والحادية والعشرين،أردت أن أكون فنانا تشكيليا ". وانظر إلى ما ترتب على تلك القناعة وهو يضعها موضع التنفيذ – وذلك حين استطرد في ذات المقالة السابقة – قائلا "وحين كنت في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة، اعتدت أن أعيد نسخ أعمال مصوري الإمبراطورية العثمانية ".

وبينما كان أورهان ينمو، كان يكبر معه (حلمه) في أن يصبح فنانا تشكيليا، حتى أنه راود باموق وهو في السادسة عشرة حلم أن يصير فنانا تشكيليا، فكان مولعا ببيسارو وأوتريللو، وهو ما عبر عنه بقوله "كنت اشتهى عيونهم وريشهم لكي ارسم شوارع اسطمبول وأزقتها " (من مقال " أورهان باموق .. " إعداد سلمى قاسم جودة . جريدة " أخبار الأدب " في ٣٠ كانون أول/ ديسمبر ٢٠٠١)

ولعل أول صدام للحلم مع الواقع، حدث عندما كان أورهان يتأهل لدخول الجامعة، إذ على الرغم

من قناعته وحلمه لم تسمح له أسرته بالتفرغ للفن، وربما حدث عندئذ أول صدع في عالمه، حين أجبر على دخول كلية الهندسة كتوجه (علمي) للمستقبل أسوة بأبيه وعمه وجده، وهو ما عبر عنه - في حواره المذكور مع جمال الغيطاني – حين قال " يبدو أن دراسة الهندسة أصبحت تقليدا في عائلتي، ولهذا توجهت إلى دراسة الهندسة بنفس الجامعة " . ولكن يبدو أن إصراره قد زحزح موقف الأسرة قليلا، حين نجح في الابتعاد عن تخصص الهندسة (المدنية) العائلي، " لأن ميولي كانت فنية، وكنت أريد أن أصبح رساما، ولهذا اتجهت إلى دراسة العمارة".

لكنه لم يستكمل دراسته في الهندسة، بل (توقف) في منتصف الطريق، وهو في الثانية والعشرين من عمره، مقررا أن يتفرغ لعالم (الكتابة) ، وبادئا فعلا في كتابة أولى رواياته .

بماذا(يتفسر) هذا التحول ؟

تصحيح مسار:

كان التحاق أورهان باموق بالجامعة نقطة تحول (فارقة) في حياته، فبينما كان يعيش (حلما) ورديا محلقا في آفاق (الخيال)، بأن يصبح فناناً تشكيلياً، إذا بالواقع (العملي) يجبره على اتخاذ مسار آخر يتناسب مع ميراث العائلة . وربما حاول جاهدا أن يقف أمام توجه أسرته، لكن (إرادتهم) كانت أقوى منه . ورغم انهم تراجعوا قليلا حين تحول التخصص من الهندسة المدنية إلى الهندسة المعمارية، كان في أعماقه يعرف جيدا أنهم انتصروا عليه .

ولعل هاتين السنتين الأولى والثانية من الدراسة الجامعية، كانت مرحلة لمراجعة (مسار) حياته منذ طفولته حتى تلك الفترة . ولربما كان يضع ما يفكر فيه تلقائيا على الورق بالكتابة، حتى بدأت أبعاد صورة ما يريده تنضج تدريجيا أمامه بكل منمنماتها . وكان هناك حدث (خارجي) كبير قد وقع عام ١٩٢٣،حين أعلن كمال أتاتورك الجمهورية التركية، وهو ما عبر عنه أورهان باموق – في مقال سبق ذكره، بعنوان " تاريخ خاص " – حين قال أنه " بعد استغراب كمال أتاتورك في إعادة تشكيل الدولة مدنيا، انقسمت الثقافة التركية إلى قسمين: الثقافة الحديثة المتأثرة بأوروبا والموروث الإسلامي العثماني . لقد اعتقد مؤسسو الجمهورية الحديثة أن انتقالا سريعا إلى الحداثة، مثل أوروبا، سيمكن من نسيان الماضي، فكبحوا بفجاجة تاريخ الثقافة الإسلامية العثمانية، ظانين أن هذا بذاته ما سيجعل البلد حديثا ". ولعل أورهان كان يرى هذا الانقسام في كل مكان يذهب إليه، حتى في الجامعة حيث يدرس .

وكان هناك من ناحية أخرى، مثال آخر (داخلي) ماثل أمام عينيه، شديد الوطأة، شديد التأثير، ممثلا

في الأب (النموذج) والقدوة، الذي كان موزعا بين عالمين شديدي الاختلاف: أحدهما (عملي) هو عالم دراسته وعمله الذي يتعيش ويعول أسرته منه، والآخر (خيالي) هو عالم (الشعر)، الذي فشل في أن يحقق ذاته فيه، وهو يندفع مبهورا إلى الثقافة (الأوروبية) ينهل من آدابها ويترجم بعضا منها.

ومن ناحية ثالثة كان يؤرقه (حلمه) في أن يكون فنانا تشكيليا، خاصة بعد أن اكتشف انه يحاول أن يقترب من مجتمعه (الشرقي) بأساليب حضارة (غريبة) بعيدة عنه، بل لعل ذلك - مع حسه المرهف – ما جعله يشعر بفاصل كبير يقف حائلا بينه وبين (واقع) مجتمعه .

وربما فسرت له فترة مراجعة الذات تلك، أن فشل أبيه قد يرجع أساسا إلى أنه لم يكتشف نبع موهبته الحق . وأنه إذا كان قد قبل بحل (توفيقي) في الدراسة الجامعية من أجل الإبقاء على (حلم) الفنان التشكيلي، إلا أنه لم يجد في أعماقه نبعا له، بل لعله أيقن – عندئذ – أنه عثر على ضالته في ذلك النبع الوليد، عالم (الكتابة)، فأقبل عليه مشحونا بقوة (اختياره)، وبدأ (التفرغ) للكتابة الروائية، مقررا أنه لن يقف أي حائل مهما كبر في طريق رغبته، واضعا تجربة توزع أبيه بين عالمين تحت بصره. ومن هنا كان قراره بالتوقف عن استكمال دراسة الهندسة .

أما أمر التحاقه، بعد ذلك مباشرة، بمعهد الصحافة في نفس الجامعة، فقد علله – في ذات حواره السابق مع جمال الغيطاني – حين أوضح أن ذلك تم فعلا "ولكن ليس بغرض دراسة الصحافة، بل لتأجيل أدائي للخدمة العسكرية . أنهيت دراستي للصحافة، لكنني لم أعمل قط كصحافي " .

رحلة إبداع :

تحدث أورهان باموق عن بعض تفاصيل إبداع (أولى) رواياته "جودت بك وأولاده" – في حواره مع جمال الغيطاني – فقال أن كتابتها " استغرقت أربع سنوات كاملة من الثانية والعشرين حتى السادسة والعشرين . وخلال هذه الفترة لم أقم بشيء سوى الكتابة . ولقد أعدت كتابة هذه الرواية ثلاث مرات، وفى كل مرة تصبح أكبر حجما " .والرواية ملحمة عائلية يدور موضوعها حول إحدى العائلات البورجوازية في اسطمبول، وذلك في إطار محاولة تعرفه على أبعاد (الواقع) الذي يعيش فيه . ولم يكن (نشر) الرواية الأولى سهلا، بل واجهته متاعب أوضحها أورهان باموق – في ذات الحوار السابق – حين قال " وطوال أربع سنوات استمر فشلي في العثور على ناشر . وعند بلوغي الثلاثين انتابتني حالة من الإحباط والاكتئاب، فما كتبته لم ينشر، وليس لي عمل مستقر يحقق لي دخلا ثابتا ". وكان قد أنجز رواية ثانية، خلال تلك الفترة، هي رواية "البيت الصامت " . وإذا المتاعب (العائلية) أيضا تتفاقم، وهو ما تحدث عنه – في ذات الحوار السابق – قائلا أن تلك

" المرحلة المهمة في حياتي، الممتدة من الثانية والعشرين حتى بلوغي الثلاثين، قد شهدت طلاق والديّ، وانتقلت الى الحياة مع والدتي في منزل تملكه . وبدأت أشعر بعدم الأمان الاقتصادي، لأنه لم يكن لنا دخل ثابت "

لكن عام ١٩٨٢، الذي بلغ فيه الثلاثين من عمره، كان عام سعد بالنسبة إليه، حين وجد ناشرا في تركيا لرواية " جودت بك وأولاده "، ونشرت فعلا خلال نفس العام، كما تزوج من الفتاة التي أحبها، وكان ذلك حدثا مهما بالنسبة إليه !

في عام ١٩٨٣، نشر روايته الثانية " البيت الصامت "، التي قال عنها – في حواره مع الغيطاني – أنه استفاد فيها " من قراءة رواية " الصخب والعنف " لفوكنر، والتي استعرت فيها تقنية الأصوات المتعددة " . واستطرد قائلا في نفس الحوار، أنه بعد سنتين، أي " خلال الفترة من ١٩٨٥ إلى ١٩٨٨ صحبت زوجتي إلى الولايات المتحدة الأميركية حيث كانت تدرس في جامعة كولومبيا للحصول على درجة الدكتوراه . وكان المشرفون على المكتبة كرماء معي ومنحوني حجرة خاصة بالمكتبة وكذلك أوكلوا إلي مهمة تدريس اللغة التركية لفصل دارسي الأدب التركي الحديث بالجامعة . ولم يدر ذلك مالا وفيرا، ولكنه كان كافيا مع الأخذ في الاعتبار غرفة خاصة وحولي أربعة ملايين كتاب من محتويات المكتبة "، والتي اعترف – في ذات الحوار – بتأثيرها عليه، وذلك حين قال " إنها لمفارقة أنني لم أبدأ قراءة ميراث الثقافة الإسلامية إلا في مكتبة جامعة كولومبيا، والتي كانت تحتوى على عدد كبير من الكتب التراثية الإسلامية مترجما إلى اللغة التركية". ثم استطرد محاولا (تفسير) ما حدث ، قائلا " لكن أشعر الآن بوجود دافع وراء ذلك، فعندما واجهت المجتمع الأميركي، تساءلت : من أكون ؟ وقررت أن أبحث عن أرض تخصني، وأعود إلى شيء ما من تراثي أو تقاليدي أشعر بالانتماء إليه. وهكذا قرأت معظم التراث الإسلامي باللغة التركية".

كما أتاح له وجوده في الولايات المتحدة الأميركية، أن يلتحق " بحلقة عمل كتاب آيوا، وحصل منها على مؤهل في الكتابة الإبداعية" [من " حقائق عن أورهان باموق " الملحقة بحوار مترجم له في " بيان الكتب " ص ٩ بجريدة "البيان" بتاريخ ٢٦ تشرين ثاني/ نوفمبر ٢٠٠١]

أنظر إلى (الفنان) وقد اختار طريق (الرواية)، وكرس حياته لها،قد تضيق به الأمور لفترة، قد تمتد إلى سنوات . لكن في النهاية يأتي الفرج، وإذا الظروف (الخارجية) تتفتح أمامه، لتسمح له (بتصحيح) مساره، حين برز أمامه، بعد أن (اغترب) بعيدا عن وطنه، (محفز) قوي يثير تساؤلات جمة حول (هويته) أمام هذا الواقع الجديد الجارف، ولم يكن أمامه سوى عالمه الفني، فهو الملاذ والملجأ، فوجد أن هناك فجوة في حياته تتعلق بالماضي)، ماضي أمته وتاريخه. ولم يكن التعرف على

ذلك الماضي أو التاريخ صعبا، فقد شاءت الظروف أن يكون إلى جواره كم هائل من كتب التراث الإسلامي باللغة التركية، فأقبل عليه يقرأ بنهم، في محاولة للاستيعاب والفهم !

كما أتاح له وجوده في الولايات المتحدة، التي تنتشر فيها مراكز بحث متخصصة في الكتابة الإبداعية، فرصة كبيرة . وإذا كان قد اعتمد على جهوده الخاصة حتى تلك الخطة في تطوير أدواته، فلماذا لا ينتهز الفرصة ويلتحق بواحد من تلك المراكز، لاثراء تجربته بجهود مقننة ؟ . وهو ما قام به فعلا، وظهرت محصلة ذلك في رواية " القلعة البيضاء " (١٩٩٩)، التي بدا فيها اهتمامه بتاريخ وطنه مضفرا ومتصارعا مع التاريخ الأوروبي !

رواية عمر:

خلال كل تلك السنوات المنصرمة، كان كاهل أورهان باموق ينوء تحت ثقل حلم طفولته وصباه ومطلع شبابه الموءود، بأن يكون فنانا تشكيليا . كانت بقايا الحلم تضنيه، تطارده، تمسك بخناقه . ولم يكن يستطيع فكاكا منها . صحيح أنه حسم أمره في الثانية والعشرين من عمره، حين اختار الكتابة الروائية مستقبلا، لكن حلم الفنان التشكيلي المهدر ظل ينغص عليه صفو حياته!

وإذا كانت روايته الأولى " جودت بك وأولاده " قد قربته من (واقع) الحياة في اسطمبول ، وإذا كان في روايته الثانية " البيت الصامت " قد اختبر فيها (تقنية) الأصوات المتعددة، فقد انفتح الباب أمامه في روايته الثالثة " القلعة البيضاء "، بعد أن استوعب تراثه الإسلامي، كي يعزف باقتدار على تجربة مجتمعه الرئيسية، وتوزعه بين عالمين : حداثة أوروبية حاضرة وتراث إسلامي قديم!

لكنه ظل أسير تقاليد الكتابة (الغربية)، وهو ما عبر عنه – في نفس حواره مع الغيطاني – حين قال " كنت دائم التطلع إلى الغرب وكتابه، أرى إنتاجه بعناية وأتأمل ما يكتبونه، بل أحاول محاكاته " . ثم استطرد ضاربا مثالا عمليا، " وبلغ بي طموحي أثناء كتابة " الكتاب الأسود " أن أقارن نفسي بجيمس جويس كيف قدم دبلن في أعماله، وأرى نفسي قادرا على تقديم مدينتي اسطمبول مثله، وسعيت إلى تحقيق ذلك في رواية "الكتاب الأسود" " , وهو أسلوب في العمل أوضحه أورهان باموق – في حواره ببيان الكتب ٢٦ تشرين ثاني/ نوفمبر ٢٠٠١ – حين قال "أنا أتوق – بلا أدنى شعور بالخجل – إلى سرقة الأشكال الأدبية الأخرى من الغرب، غير أنني في الوقت نفسه أضيف شيئا من الموروث القصصي الإسلامي والكلاسيكي إلى ما آخذه من هناك . ويخيل إلي أن الجمع بين أمرين مختلفين هو من العناصر التي تشبه إعطاء شحنة من القوة للعمل إذا كنت تمتلك الموهبة والطاقة اللازمة للقيام بهذا . ومع أنه سيظهر في البداية وكأنه تقليد، إلا أنه سيتطور ويفرز شيئا جديدا

بمرور الوقت . وهذا هو ما أفعله طوال الوقت . وأي نص يفرزه الالتقاء بين الأسلوب التجريبي الغربي والأسلوب التقليدي الإسلامي يحمل في داخله تلك الشحنة الكهربائية التي تكلمت عنها . أعتقد أن هذا الشيء يخدمني ككاتب ".

وهكذا نشر أورهان باموق رواية " الكتاب الأسود " (١٩٩٠)، ثم رواية "الحياة الجديدة " (١٩٩٤)، اللتين قال عنهما فردريك جيمسون – من مقال "باموق .. مناورة في سياق الرواية التركية " المنشور في "بيان الكتب " ص ٨ " جريدة البيان "٢٦ تشرين ثاني/ نوفمبر ٢٠٠١ – أنهما "الأقرب إلى الأعمال الروائية ذات الرموز الوطنية السياسية لاعتبارات تتعلق بمنظوريهما السياسي والعام، اللذين يشرح من خلالهما المؤلف إشكالية الحياة في المجتمع التركي المعاصر . ومع ذلك فان هاتين الروايتين تنتميان فيما يتعلق بالشكل والتقنية السريعة إلى رواية ما بعد الحداثة الغربية المنشأ "

وبعد أن استوعب أورهان باموق خبايا ماضيه، وأصبح يستند إلى مرتكز صلب من التاريخ الإسلامي، كما بدأ أسلوب استفادته من تقنيات الكتابة الغربية يتطور ويفرز نتاجا مميزا جديدا، وهو يمتزج مع الموروث الإسلامي التقليدي . هنا، يكون الطريق قد أصبح ممهدا لخوض تجربته الخاصة، التي طاردته وأرقته سنوات طويلة، وهو ما عبر عنه – في مقال "تاريخ خاص " بجريدة "الجارديان"- حين قال " لقد كنت مشدودا إلى موضوع الفن التشكيلي، لأنني مابين عمر السابعة والحادية والعشرين، أردت أن أكون فنانا تشكيليا .وحين كنت في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة اعتدت أن أعيد نسخ مصوري الإمبراطورية العثمانية الإسلامية . وحين أصبحت روائيا، قلت : سأكتب ذات يوم، كتابا عن رسام صور منمنمة إسلامي .وقد تغيرت الفكرة وتطورت، ولكن الحافز الأساسي وراء رواية " اسمي أحمر " كان أن أكتب كتابا عن فنان تشكيلي يعيش في اسطمبول " . ولأنه كان يعي (صعوبة) الموضوع الذي يتناوله، فقد استطرد - في ذات المقال – قائلا " ولأن الفن التشكيلي غير موجود تقريبا، لذلك كان يعتبر موضوعا مقيدا جدا "، لذلك بذل جهدا كبيرا في الإعداد والبحث والكتابة، وهو ما عبر عنه – في حواره مع الغيطاني – حين قال " استغرقت كتابة هذه الرواية عشر سنوات كاملة، بداية من التحضير للمواد التاريخية وحتى الانتهاء من كتابتها، ففي البداية أمضيت أربع سنوات في شراء الكتب ذات الصلة بموضوع الرواية وقراءتها جيدا، ثم تفرغت ست سنوات كاملة للكتابة "

هنا، كانت المواد الخام للبعد (العام) في الموضوع (توزع تركيا بين حداثة غربية وموروث إسلامي)، والبعد الخاص (حلم الفنان تشكيلي إسلامي) قد أصبحت متوفرة لتقديم أحداث تاريخية تجرى في زمن من الماضي البعيد . كما كانت تقنيات الكتابة، سواء أكانت حبكة بوليسية استمدها من امبرتو ايكو، أو تعدد الأصوات التي استوحاها من فوكنر، أو أسلوب القصص الذي تعلمه من كالفينو

وبورخيس، وغيرها، قد دانت له وأصبحت ملك يمينه .

ولم يكن كل ذلك كافيا، حتى يبدع أورهان باموق رواية عمره، ولأنه كان واعيا بما كان ينقصها، اعترف – في مقال " تاريخ خاص " – بالسر، حين قال "وضعت في قلبها قصتي شديدة الخصوصية، ليس من خلال تفصيل صغير بل من خلال إيماءة كبيرة، وذلك حين كان الجوهر الوجداني للكتاب شخصي جدا . وهو ما جعل كتابة الكتاب عملية ممتعة، لأنني لم أكن أحاور القراء فقط، بل كنت أحاور ماضي الخاص، معيدا ابتكار قصتي الخاصة .وربما كان مفتاح الحكي أن تتخفى حياتك الخاصة بمثل ذلك الأسلوب، الذي رغم أنه مازال هناك، إلا أن الكتاب يبدو كما لو كان قد كتب خصيصا من أجل تلك القصة".

فماذا فعل أورهان باموق ؟

لقد وضع أورهان باموق جزءا من (سيرة) أسرته الحقيقي كرافد رئيسي في الرواية، وهو ما عبر عنه – في ذات مقال " تاريخ خاص " – حين قال أن " ما جعل الكتاب أكثر حياة وشخصيا بالنسبة لي، هو الأسرة . كانت شكورة وولداها – الشخصيات الرئيسية في الرواية – سيرة ذاتية تامة . كان أورهان مؤسسا عليّ، وكان شوكت هو اسم أخي، وشكورة هو اسم أمي . ولزمن ما، كما هو موجود في الكتاب، كانت علاقات الأسرة مؤسسة علينا : أمّ تحاول أن توائم نفسها مع أحوالها المادية الجديدة، تحاول أن تحمى نفسها وطفليها "

لقد نجح أورهان باموق في منح رواية " اسمى أحمر" التاريخية، بعدا (شخصيا)، حين وضع جزءا من تاريخ أسرته الحقيقي فيها، محققا بذلك (حلم) حياته، بإعادة بعث (الحياة) إلى فنانين تشكيليين إسلاميين من خلال لوحة (تاريخية) كبيرة، بديعة، زاهية الألوان، كاشفا الستر – في ذات الوقت – عن أن طريق (الخلاص) الفردي والعام يكمن في الاستفادة مما يناسبنا من تقنيات الغرب، مرتكزين أثناء ذلك إلى تراثنا الخاص!

نشأة المسرح العربي الحديث

الصعود إلى الخشبة

رياض كامل

تتناول هذه الدراسة نشأة المسرح العربي الحديث، ولمّا كان الدور البارز في تلك النشأة من نصيب لبنان، سوريا، ومصر، فقد قمنا بالتركيز على أهم رواد هذا الجانر الأدبي الحديث على ساحة الأدب العربي في هذه الأقطار الثلاثة. لا تستطيع هذه الدراسة أن تقف عند جميع الرواد من ممثلين ومؤلفين لأن العدد كبير جدا، فحاولنا أن نقف عند بعض الأسماء التي تعتبر، برأينا وبرأي الكثيرين، الأبرز والأهم. وكان من الطبيعي أن نضع حدا تاريخيا لها، فتوقفت الدراسة عند العقد الثاني من القرن العشرين، كونه عقدا هاما ومفصليا في تاريخ المسرح الحديث في البلاد العربية. لا يحسبن أحد أن الدراسة عمدت إلى الربط بينهما ربطا توثيقيا أو منهجيا. قمنا بالتركيز على النشأة والتحول والتطور منذ البدايات وحتى التاريخ المشار إليه. وبالرغم من أهمية الدور الذي لعبته بلاد الشام في هذه العملية إلا أن الاستمرار والمتابعة والرقي كان من نصيب مصر، التي استقطبت أهم المسرحيين وأهم الفرق المسرحية الشامية، نظرا للظروف السياسية التي مرت بها بلاد الشام، ولربما كانت مصر هي الدولة الأكثر حظا من حيث الاستقلال السياسي والفكري. رأينا لهذا التواصل أهمية قصوى تجعلنا نعلن أن التناغم بين مسرحيي بلاد الشام ومصر قد ولّد حركة مسرحية عربية مثمرة جعلت لها عدوى مباركة اخترقت حدود مصر إلى الدول العربية المجاورة لها.

***

احتل المسرح الأوروبي فترة طويلة من الزمن مكان الصدارة في تدريج الفنون على اختلاف أشكالها، واستقطب حوله، برأي الباحث الفرنسي جان ديفينيو، جمهور الصفوة منذ القرن السابع عشر وحتى يومنا هذا. فقد كتبت الأعمال المسرحية، آنذاك، وعرضت أمام طبقة النبلاء والبرجوازيين والمثقفين، كما تم توفير المعلومات الضرورية لأبناء هذه الطبقة كي يفهموا المسرح ويتذوقوه ويدركوا أساليبه الفنية ومضامينه الاجتماعية. أين يقف مسرحنا العربي إزاء ذلك؟ وهل كتب وما زال يكتب ليعرض أمام «النخبة»؟ وهل كانت طريقه معبدة وذات جذور، أم كانت طريقا وعرة محفوفة بالمخاطر؟

إذا قمنا بمراجعة نشأة المسرح العربي في كل من سوريا، لبنان ومصر فسنرى أن الطريق أمام رواد المسرح كانت طريقا وعرة وشاقة، فقد تكبد هؤلاء من المشقة ما يجعلنا نحني رؤوسنا إجلالا وتقديرا، لإصرارهم على ولوج عالم جديد كل الجدة على الذائقة العربية التي اعتادت على تمجيد الشعر والشعراء لقرون طويلة من الزمن، واعتبارهم الشعر الفن الأرقى، وربما الفن الوحيد. وكانت عملية «إقحام» أنواع أدبية جديدة على الذوق العربي أمرا ليس يسيرا ولا سهلا. وكلنا يعلم الطريق الشاق الذي سار به الطلائعيون من كتاب الرواية العربية، بحيث جعلت الروائي المصري محمد حسين هيكل (١٨٨٨-١٩٥٦) ينشر الرواية العربية الفنية الأولى زينب (١٩١٣) تحت اسم مستعار وهو «فلاح مصري».

أما في مجال المسرح فإن الأمر أكثر صعوبة وحدّة، إذ كان على الطلائعيين أن يواجهوا المجتمع بأكمله، وأن يتصدوا للمعارضين الذين هاجموا هذا الفن لدوافع «أخلاقية»، مما عرّض بعضهم للاعتداء الجسدي. ففي سوريا هوجم مسرح أبو خليل القباني (١٨٣٣-١٩٠٣) وتم إتلاف محتوياته، خاصة وأنه قام بتجنيد صبية لأداء دور الإناث في بداية مشواره، فيما قام مارون النقاش اللبناني (١٨١٧-١٨٥٥) بتجنيد أصدقائه وأفراد عائلته من الشباب لعرض مسرحياته وتأدية أدوار الذكور والإناث، كما جاء على لسان الرحالة الانجليزي دافيد اركيوهارد[١]. كما تعرض هو الآخر لانتقاد رجال الدين والمحافظين، مما جعله يحول مسرحه إلى كنيسة قبيل وفاته بفترة قصيرة[٢]. أما بالنسبة لمسرح يعقوب صنوع في مصر فقد صدر أمر من الخديوي إسماعيل نفسه، بعد سنتين من افتتاح المسرح بإغلاقه، وذلك بعد أن كان قد كرم صاحبه وخلع عليه لقب موليير مصر.

***

تختلف آراء الدارسين والباحثين العرب في كل مرة يتم فيها بحث مسيرة الأنواع الأدبية على اختلافها، ما عدا في مجال الشعر، فالكل يجمع، هنا، على أنه نوع أدبي قديم وأصيل عرفه العرب ومارسوه قبل الإسلام، وأنه قد تم الاعتماد على أصوله في مرحلة البعث والإحياء والتجديد. أما فيما يتعلق بالرواية والقصة والمسرح فإن الأمر مختلف تماما. ففي مجال القصة والرواية هناك من يحاول ربط هذين الجانرين الأدبيين بالتراث العربي القديم، مثل «ألف ليلة وليلة»، «كليلة ودمنة»، قصص الأنبياء، «رسالة التوابع والزوابع» لابن شهيد، «حي بن يقظان» لابن طفيل وكتاب «البخلاء» للجاحظ و»رسالة الغفران» لأبي العلاء المعري وغيرها. وهناك من يرى أن فن المقامة هو النواة الأولى للقصة القصيرة. وهناك من يرى أن هذا الفن القصصي قد وفد إلينا من بلاد الغرب منذ نهاية القرن الثامن عشر، وبداية القرن التاسع عشر. وأتباع هذا الرأي كثيرون من باحثين وأكاديميين. وهناك رأي ثالث يأخذ مسار الوسط معتبرا أن الفن القصصي الحديث هو مزيج ما بين التراث العربي القديم والرواية الغربية الحديثة.

وفي مجال المسرح، ايضا، هناك من يحاول البحث عن الروابط التي تجمع القديم بالحديث، والشرق بالغرب، فالباحث الدكتور علي الراعي المعروف بدراساته المتواصلة والمكثفة للمسرح العربي يرى «أن العرب والشعوب الإسلامية عامة قد عرفت أشكالا مختلفة من المسرح، ومن النشاط المسرحي لقرون طويلة قبل منتصف القرن التاسع عشر»[٣]. وهو في أبحاثه يعود إلى الطقوس الدينية في شبه جزيرة العرب قبل الإسلام

والتي لم تتطور، حسب رأيه، إلى فن مسرحي. ثم يستعرض بعض الفنون التي تعود إلى العصر العباسي معلنا أن المسلمين «قد عرفوا شكلا واحدا على الأقل من الأشكال المسرحية المعترف بها وهو مسرح خيال الظل»[٤]. وفي ذلك يقول محمد مندور في كتابه المسرح: «لقد ظللنا حتى السنوات الأخيرة نشهد في البلاد المصرية فنونا شعبية تشبه المسرح أو السينما الحديثين، ومن أهمها خيال الظل الذي يسمونه بالإنجليزية Shadow play وبالفرنسية L›ombre chinoise أي الظل الصيني"[٥]. ويضيف مندور ان هذه التمثيليات التي يعرضها صاحب خيال الظل تسمى «البابات» وهي لا تعرض في بيوت ثابتة بل في خيام متنقلة أو في أحواش مسورة بالخشب، وتعرض على ستار من قماش أبيض «تنعكس عليه من الخلف ظلال عرائس من الورق المقوى أو الجلد المضغوط، وقد وضع خلف تلك العرائس مصباح يعكس ظلا على الستار، والعرائس مكونة من أعضاء تتحرك بواسطة مفاصل، وقد علقت تلك العرائس واتصلت بها وبأجزائها المختلفة خيوط تتجمع في يد صاحب الخيال، وبفضلها يحرك تلك العرائس حسبما يشاء، ووفقا لمقتضيات الحوار الذي يلقيه صاحب خيال الظل القابع خلف الستار، فيسمعه المشاهدون ويرون الصور المتحركة التي تصاحبه»[٦].

لقد عرف خيال الظل في مصر وفي بلدان عربية وشرقية منذ القرون الوسطى، كما يزعم بعض المؤرخين أن الفاطميين قد عرفوه أيضا، لكن لا توجد هناك بابات مكتوبة إلا منذ عصر الظاهر بيبرس لصاحبها المعروف محمد بن دانيال (١٢٤٨-١٣١١). وهناك خيال ظل تركي يختلف بعض الشيء عن خيال الظل العربي والمصري. وهناك صندوق الدنيا الذي كان صاحبه يحمله على ظهره هو والدكة كي يجلس عليها المشاهدون، وكان صاحبه يطوف الشوارع والحارات للعرض، حيث يرى المشاهدون من خلال فتحة زجاجية صورا ملونة متعاقبة فيما يقوم صاحب الصندوق بتفسير ما يراه المشاهدون بصورة مستفزة وجذابة[٧].

وفي رأي محمد مندور فإن «هذه الفنون الشعبية لم تخلق أدبا ولا خلفت تراثا أدبيا، ولكنها ولا شك مهدت العقول والحواس للإقبال على فن التمثيل، بل والسينما، وإن كنا نخشى أن يكون تأثيرا سيئا، وربما رجع اليه السبب في أن جمهورنا العربي والمصري لم يستطع حتى الآن ان يتخلص تخلصا تاما من نظرة الاستخفاف وأحيانا الازدراء لهذين الفنين»[٨].

لا شك أن خيال الظل هو أكثر الفنون الشعبية قربا من المسرح الحديث، ففي صندوق الدنيا يقوم عارض الصور بدور المنشد والراوية، وفي الأراجوز توجد شخصيات تتحرك وتنفعل وتقول حوارا، ولكن هذا الفن في أساسه يعتمد على الدمى، أما خيال الظل فهو يمتاز عنهما باستعمال الصورة والضوء معا، ويعرض لصور من الحياة فيها عديد من الشخصيات يقف من ورائها عدد من اللاعبين المحترفين[٩].

يرى مندور أن فن المسرح لم ينشأ في العالم العربي الحديث نتيجة لتطوير أي فن قديم في البلاد أو أي فن شعبي كخيال الظل والأراجوز، الأمر الذي يختلف عنه في أوروبا، إذ أن هذا الفن المسرحي هناك هو استمرار للمسرح الإغريقي الذي بقي يتطور ويمر في مراحل تطوره حتى وصل إلى ما وصل إليه الآن. ذلك يعني أن المسرح الأوروبي اليوم هو استمرار للمسرح الأوروبي القديم، بينما المسرح العربي لم يعرف في العالم العربي القديم، إنما هو وليد العصر الحديث الذي اختلطت فيه الحضارة الشرقية بالغربية مولدة

المسرح العربي الحديث[١٠]. كيف حدث هذا التلاقح بين الحضارتين؟ وهل نظر الجمهور العريض إلى هذا الفن نظرة احترام وتقدير؟

***

يشير الباحثون والدارسون في كتاباتهم إلى أن الفضل في نشأة المسرح العربي الحديث يعود لمارون النقاش الذي واجه ما واجه من معارضة، كما ذكرنا آنفا، خاصة وأن معظم الفنون الشعبية التي عرفها العرب قبل النقّاش كانت تميل إلى الفكاهة والتندر بمنأى عن الجدية، وبالذات أن بعض هذه الفنون قد شابها الكثير من المجون التي تجافي المنطق العربي الشرقي وتتنافى مع عاداته وأخلاقه. وكان على النقاش أن يعمل بجد كي يحول النظرة السائدة لإدراك أن ما يقوم بعرضه هو عمل أدبي محض يحمل رسالة أخلاقية وفكرية راقية.

لقد كان مارون النقاش مولعا بالأدب والفنون والعلوم واللغات، كما جاء على لسان أخيه نقولا النقاش (١٨٢٥-١٨٩٤) في كتابه «أرزة لبنان»، ويضيف أنه تعلم التركية والإيطالية والفرنسية فضلا عن الموسيقى التي اتقنها جيدا. وبفضل عمله بالتجارة فقد تسنى له أن يصل إلى المدن السورية وأن يطلع على حياة الناس وعاداتهم وتقاليدهم في بيئاتهم المختلفة. سافر سنة ١٨٤٦ إلى الاسكندرية والقاهرة، ثم ذهب إلى إيطاليا، وهناك تعرف على فن المسرح، وشاهد المسرحيات والأوبرات. أعجب النقاش بهذا الفن لما فيه من نصائح ومواعظ لعامة الناس. قام حال رجوعه إلى بيروت بتعليم بعض أصحابه من الشبان أصول التمثيل. وفي سنة ١٨٤٧ قدم في بيته، إلى أصحابه مسرحية «لبخيل»، ودعا إليها كامل قناصل البلدة وأكابرها، وفي سنة ١٨٥٠ قدم في بيته أيضا مسرحية «أبو الحسن المغفل» (أو هارون الرشيد) التي دعا لحضورها والي الإيالة ونخبة من رجال الدولة العثمانية المتواجدين في بيروت آنذاك، إضافة إلى قناصل الدول ووجهاء البلدة. ثم أنشأ المسرح الشهير الملاصق لبيته وقدم به مسرحية «السليط الحسود». وفي سنة ١٨٥٤ سافر إلى طرسوس لأجل التجارة ولكن نفسه كانت حزينة بسبب ما لاقاه من جحود من أهل بلده، وفي سنة ١٨٥٥ أصابته حمى شديدة أودت بحياته[١١].

نلاحظ أن مارون النقاش قد دعا إلى مسرحه الكبراء والوجهاء من العرب والأتراك والأجانب، وأنه قام بنقل المسرح الأوروبي إلى الشرق حسب أصوله الغربية، كما أقر هو نفسه بذلك في الخطبة التي ألقاها قبيل عرض مسرحيته الأولى. ففيها يتطرق إلى تفوق الغرب على الشرق في هذا المجال، وإلى أهمية هذا النوع الأدبي الذي يستقطب حتى الملوك للمشاهدة والاستفادة مشيرا إلى أنواع المسرحيات هناك، فيقول إنها «تنقسم إلى مرتبتين كلتاهما تقر فيهما العين، إحداهما يسمونها بروزا، وتنقسم إلى كوميديا ثم إلى دراما وإلى تراجيديا ويبرزونها بسيطة بغير أشعار، وغير ملحنة على الآلات والأوتار، وثانيتهما تسمى عندهم أوبرا، وتنقسم نظير ذلك إلى عبوسة ومحزنة ومزهرة، وهي التي في فلك الموسيقى مقمرة»[١٢].

أشار دافيد أركيوهارت في كتاباته التوثيقية إلى مدى حماس مارون النقاش لنقل المسرح إلى لبنان كما رآه في أوروبا تماما[١٣]، ومع ذلك نراه يدخل بعض التعديلات على مسرحه، مراعاة للذوق السائد في تلك الأيام، كما يتضح ذلك جليا في كتابات ابن أخيه سليم النقاش: «...ولما رأى عدم ميل أبناء وطنه إلى هذا الفن المفيد

نظرا لعدم معرفتهم بمنافعه زاده فكاهة فجعل في الرواية الواحدة شعرا ونثرا وأنغاما، عالما أن الشعر يروق للخاصة والنثر تفهمه العامة، والأنغام تطرب»[٤١]. وبالرغم من المجهود الكبير الذي قام به مارون النقاش، إلا أنه لم يلق من الدعم ما كان يأمل، ورأى أن هذا الفن لن ينجح في البلاد العربية فأوصى، كما أسلفنا أعلاه، أن ينتقل المسرح لملكية الكنيسة المارونية. لكن اسمه ما انفك يتكرر كلما دار الحديث عن رواد المسرح الحديث، خاصة أن تلاميذه قد تابعوا طريقه.

لقد فضل مارون النقاش أن يؤلف أعماله المسرحية متبعا أسلوب الأوبرا، رغم صعوبته، كما يشير إلى ذلك الباحث محمد مندور، مضيفا أن الروايات الثلاث التي قدمها النقاش كانت، إما من نوع الأوبرا أو الأوبريت، وبذلك فهو يرى أن النقاش، بعمله هذا، قد حدد الصورة التي اتخذها فن المسرح في العالم العربي الحديث، والتي استمرت عشرات السنين في كل من لبنان وسوريا ومصر[٥١].

حاول نقولا النقاش أخو مارون النقاش وتلميذه متابعة طريق أخيه، ويبدو أنه كان متأثرا بالفن المسرحي الإيطالي، فكان هو وتلاميذه يتبعون أسلوبا بعيدا عما هو مألوف في بيئتهم التي وجدوا فيها. أما التلميذ الثاني الذي تخرج من مدرسة مارون النقاش فهو سليم خليل النقاش (ت١٨٨٤) ابن اخي مارون الذي ألف فرقة مسرحية في بيروت، وكانت أولى الفرق التي وفدت على مصر من لبنان، وهو يعتبر صاحب الخطوة الثانية الجديرة بالالتفات والتقدير، بعد خطوة عمه[٦١].

***

ومن أهم رواد المسرح الذين عرفتهم بلاد الشام، كان أحمد أبو خليل القباني، الذي يعتبر المؤسس الأول للمسرح الحديث في سوريا، إذ يقول الباحث محمد نجم: «لا نعرف للتمثيل تاريخا في سوريا، قبل ظهور أحمد أبو خليل القباني فيها»[٧١]. عائلته من أصل تركي، وبالتحديد من قونية، هاجرت إلى دمشق واستقرت هناك، تعلم القراءة ومبادئ العلوم في أحد الكتاتيب، ثم انتقل إلى إحدى المدارس الابتدائية. وفي بدايات شبابه أخذ يحضر حلقات الدرس في المساجد والبيوت، ثم احترف مهنة القبان، وفي هذه الأثناء كان ينمي ميوله الموسيقية والغنائية، فاكتسب الكثير من أساتذته حتى أشادوا له بذلك[٨١].

لقد عمل في مجال المسرح في سوريا منذ سنة ١٨٧٨ حتى سنة ١٨٨٤، ويقال إنه التقط أصول هذا الفن من مشاهدته لمسرحيات فرنسية تم عرضها في إحدى مدارس دمشق، كما ويقال إنه تعلم أصول هذا الفن من اللبنانيين، وقد شاهدهم يمثلون في كل من بيروت ودمشق. كان ابو خليل القباني يؤلف المسرحيات ويلحنها ويخرجها، ويشترك في تمثيلها والغناء فيها. ومن أهم مسرحياته، «محمود نجل شاه العجم» و«ناكر الجميل» و«عنترة» و«أسد الترعة» و«لوسيا وأنس الجليس» و«كسرى أنو شروان»[٩١].

كان ابو خليل القباني، بحد ذاته ظاهرة فنية، فقد اكتسب فن الموسيقى والغناء وألف الأزجال والأشعار، ولم ينقل هذا الفن عن الغرب، ولم يسافر إلى هناك لغرض اقتباسه. بعد النجاح الذي لاقاه في بلاد الشام قام بعض المعارضين لهذا الفن باعتراض مسيرته المسرحية والفنية، باعتباره مناقضا للقيم والأخلاق الدينية، حسب رأيهم،

وكان آنذاك منهمكا في التحضير لمسرحية «ابو الحسن المغفل». رفع هؤلاء اعتراضا إلى الحكومة العثمانية في الآستانة، رافضين القبول بظهور هارون الرشيد على المسرح على شكل أبي الحسن المغفل، فصدر عنها أمر بمنع التمثيل في سوريا، وهكذا قضي على المسرح في هذا البلد[٣٠]. ويضيف الباحث جوزيف زيدان سببا آخر وهو إدخال ممثلتين لبنانيتين[٣١]، وجدنا ان اسمهما «الآنستان بيبة ومريم»[٣٢]، كما جاء على لسان أحد الكتاب.

لقد اعتمد القباني بشكل واضح على القصص الشعبية التي اعتاد قصاصو المقاهي على قصها للزبائن، وعلى السير الشعبية، ولم يعتمد النص الأدبي، في المقام الأول، أساسا لمسرحياته التي ألفها، بل جعل الإنشاد والرقص والغناء أهم عناصر مسرحه المهمة، مما جعل أحد الباحثين يعلن بأن «القباني هو صورة متطورة للقاص الشعبي، متخذا المسرح أداته في القص»[٣٣]. ولقد رأى بعض الدارسين أن مسرح القباني أضعف صياغة من مسرح مارون النقاش، لأن معرفة القباني بالمسرح الأجنبي اقتصرت على اللغة التركية، فعمد إلى الموسيقى والإنشاد والرقص لتغطية ضعف البناء المسرحي، «فكانت النتيجة العملية لكل هذا نشأة البراعم الأولى لفن الأوبريت في البلاد العربية»[٤٢].

***

لعب رواد المسرح في كل من سوريا ولبنان دورا هاما ومفصليا في وضع اللبنات الأولى للمسرح العربي، لكن هذا الفن تطور وانتعش في مصر. يعزى ذلك إلى شبه الاستقلال الذي تمتعت به مصر، في تلك الحقبة الزمنية، وبعدها الجغرافي عن مركز الخلافة العثمانية. فقد قام الخديوي اسماعيل ببناء دار للأوبرا (١٨٦٩)، بينما تعرضت بلاد الشام، في تلك الفترة، لحركة قمع فكرية عثمانية تركية، مما حدا بكثير من الفنانين والشعراء إلى النزوح من بلاد الشام إلى مصر. وكانت أول فرقة مسرحية وفدت آنذاك (١٨٧٦-١٨٧٧) هي فرقة سليم النقاش حيث نزلت في الاسكندرية الأكثر تحررا. تألفت الفرقة من اثني عشر ممثلا وأربع ممثلات، قامت بتقديم بعض التمثيليات المترجمة عن اللغة الفرنسية[٥٢]، خلف سليم النقاش في الإشراف على الفرقة زميله يوسف خياط (١٨٧٧-١٨٩٥). كما ظهرت فرق شامية أخرى لعبت دورا مهما على ساحة المسرح المصري وهي فرقة سليمان القرداحي (١٨٨٢-١٩٠٩)، وفرقة سليمان الحداد (١٨٨٧)، وفرقة اسكندر فرح (١٨٨١-١٩٠٩)، هذا إضافة إلى فرقة أبو خليل القباني التي وصلت مصر هي الأخرى في نفس الفترة الزمنية (١٨٨٤-١٩٠٩) لتتابع عملها المسرحي الذي بدأته في سوريا[٦٢].

يؤكد الباحث محمد مندور على أهمية ما قام به أهل الشام، مشيرا إلى انتقال أهم تلك الفرق من هناك والإقامة في مصر، كما ذكرنا أعلاه، ويضيف أنه كان لهؤلاء السوريين، بنوع خاص، فضل في ظهور رائد فن الأوبرا والأوبريت المصري الشيخ سلامة حجازي (١٨٥٢-١٩١٧) الذي أخذ هذا الفن عن القباني قبل أن يستقل ويكون فرقته الخاصة التي عملت من سنة ١٩٠٥-١٩١٤[٧٢]. لم يقتصر دور السوريين على دورهم الريادي في إنشاء الفرق والمسارح بل ساهموا مساهمة كبرى في ترجمة وتعريب وتحضير الكثير من المسرحيات الغربية قبل وأثناء وبعد مساهمة المصريين في تلك الحركة[٨٢]. إن ظهور هذه الفرق الشامية في سنوات السبعين من القرن التاسع عشر على أرض مصر مثلت نهاية مرحلة وبداية لمرحلة جديدة، فقد

أصبح المسرح تجاريا وأكثر تنظيما عما كان عليه من قبل[٢].

قدمنا أعلاه استعراضا موجزا لدور رواد المسرح في بلاد الشام، وبالتحديد في لبنان وسوريا، وبدا للقارئ والمتابع أن هذا الفن الحديث قد وضع لبناته الأولى هناك. وعليه يطرح السؤال ما هو الدور الذي لعبته مصر نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين؟

***

يشير الباحثون إلى عدم وجود فن مسرحي عربي في مصر، بشكله المألوف اليوم، في القرن الثامن عشر، بل نراهم يتحدثون عن انتشار الفنون الشعبية الاستعراضية على اختلافها، وهم يعتمدون في معلوماتهم هذه على ما رواه بعض الرحالة، واولهم الدانمركي كارستين نيبور الذي وصل الاسكندرية سنة ١٧٦١[٣]. يتحدث نيبور عن عروض الشوارع بشكل دقيق، مشيرا، أولا، إلى فن الغوازي اللواتي يعملن لقاء أجر زهيد. تتكون هذه الفرق من مجموعة راقصات غجريات غير متزوجات يرقصن في الأماكن العامة وفي البيوت في مناسبات الأفراح. وكان مصدر رزقهن الزهيد يتقاضينه حين يؤدين رقصاتهن مقابل بيوت الأوروبيين المنتشرة عند الشاطئ[١٣].

بعد ذلك يتحدث نيبور عن فنّيْ الأراجوز وخيال الظل. فيقول إن فن الأراجوز منتشر في أرجاء القاهرة، وإن لم يتطور، برأيه، رغم تقادم السنين، ويضيف انه فن جدير بالاهتمام لولا ان متفرجي القاهرة يجعلون تمثيلياته مقززة. أما خيال الظل فهو محبوب جدا في الشرق، وإن لم ترق له باباته نظرا لسخريتها من عادات الأوروبيين ولباسهم. كما يتحدث عما شاهده من فنون شعبية أخرى واستخدامهم الحيوانات في ألعابهم، خاصة القرود، للإمتاع والمؤانسة[٣٣].

بعد ذلك ينتقل للحديث عن فن المسرح الذي فاجأه حين يكتشف أن هناك عددا كبيرا من الممثلين من مسلمين، مسيحيين ويهود يمثلون حيثما يدعون، وفي الهواء الطلق، لقاء أجر زهيد جدا. فقام نيبور باستدعائهم ليمثلوا في بيت صديق إيطالي لم يُعجب بهذا التمثيل لا هو ولا أصدقاؤه. كانت بطلة المسرحية امرأة قام رجل ملتح بأداء دورها دون أن يوفق في إخفاء لحيته[٣٣].

بعد خمسة وثلاثين عاما يمر بمصر سائح أوروبي آخر يدعى بلزوني، وهو إيطالي الجنسية قام بتسجيل بعض ما شاهده من تمثيل الفنانين الجوالين المعروفين باسم «المحبظين»، شاهد مسرحيتين قدمتهما فرقة شعبية مصرية في احتفال أقيم في شبرا سنة ١٨١٥[٤٣].

بعد هذا التاريخ بحوالي خمسة عشر عاما نجد المستشرق إدوارد لين يتحدث عن فرق «المحبظين» الذين يضحكون الناس بنكات هابطة مفسدة. وكان هؤلاء يُشاهدون في حفلات الزواج والختان في بيوت الكبراء، وأحيانا في ميادين القاهرة العامة يتحلق المشاهدون حولهم. لم يكن بين هؤلاء «المحبظين» أي امرأة، بل كان يقوم بهذا الدور رجال وصبيان في لباس امرأة[٥٣].

***

هذه «الفنون» الشعبية لم تخلق مسرحا عربيا حديثا، أما المسرح بمفهومه الحديث فقد عرف طريقه إلى مصر مع حملة نابليون إلى مصر (سنة ١٧٩٨)، فقد شهدت قيام أول مسرح **أوروبي** للتمثيل في العالم العربي، أنشأه الجنرال مينو سنة ١٧٩٩ وأطلق عليه، كما يقول جرجي زيدان، «مرسح الجمهورية للفنون»، وقد ذكر الجبرتي أن أفراد الجالية الفرنسية كانوا يعرضون فيه مسرحياتهم أمام الفرنسيين للتسلية والترفيه، مرة كل عشرة أيام، ولكنه كان قصير العمر[٦٣]. ثم لا تذكر المصادر شيئا عن اهتمام الغربيين بالتمثيل في مصر حتى وصل إلى الحكم محمد علي باشا (١٨٠٥)، فمُهدت الطريق أمام الأجانب بالذات الفرنسيين منهم لإقامة مسرح جديد، ومن ثم إقامة مسارح أوروبية حديثة في عصر سعيد باشا، بالذات في القاهرة التي سبقت الاسكندرية في هذا المجال[٧٣].

شهدت فترة الخديوي اسماعيل، الذي حكم مصر ست عشرة سنة (١٨٦٣-١٨٧٩)، انتعاشا وانتشارا للعديد من الفنون، وقد عرف عنه ميله إلى تمدين مصر لتقترب أكثر من الغرب، فاهتم، بشكل خاص، بإقامة مسارح أوروبية على أرض مصر أواخر الستينات من القرن التاسع عشر. فقد أنشأ مسرح الأزبكية سنة ١٨٦٨، ليقدم خدماته للفرق الأجنبية الوافدة إلى مصر، ثم بنى مسرح دار الأوبرا ليتمكن من استيعاب عرض أوبرا «عايدة» بمناسبة افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩، كانت هاتان القاعتان أوروبيتي الطابع كليا. بعد ذلك تم بناء عدد من المسارح في القاهرة والاسكندرية لخدمة الفرق الأوروبية الوافدة إلى مصر[٨٣].

***

لعل أول خطوة جدية في سبيل إقامة مسرح عربي في مصر هي تلك الخطوة التي قام بها يعقوب صنوع (١٨٣٩-١٩١٢)، المولود في القاهرة لأبوين يهوديين. كان صنوع ذا ثقافة واسعة ومتشعبة، درس في صباه التوراة ثم درس الإنجيل والقرآن. كان أبوه مستشارا للأمير أحمد يكن حفيد محمد علي فأرسله الأمير إلى إيطاليا، بعد أن لاحظ عليه سمات الذكاء والنبوغ. درس على نفقته ثلاث سنوات (١٨٥٢-١٨٥٥)، فتسنى له بذلك أن يطلع على ثقافة البلاد. وكان يتقن العربية والإنجليزية والإيطالية والألمانية والبرتغالية والأسبانية والمجرية والروسية والبولونية والعبرية[٩٣]. انهمك حال عودته إلى مصر في العمل الصحافي يكتب المقالات في الصحف والمجلات، ويكتب الدراسات والقصص القصيرة والشعر في عدة لغات، العربية، الفرنسية، الإيطالية والإنجليزية[٤٠].

عاشر صنوع الكبراء ودخل بيوتهم وعلم أبناءهم اللغات والعلوم الأوروبية، وبناتهم الفنون الزخرفية والموسيقى. رأى، بفضل ذكائه وخبرته التي اكتسبها في إيطاليا، أنه من الضروري بناء مسرح حديث على طراز غربي لإيمانه أن المسرح أداة فعالة في إنهاض الشعوب، فقام باختيار الممثلين وتعليمهم فن المسرح، ومن ثم التأليف لهم[١٤]، وهناك من يقول إن المصلح جمال الدين الأفغاني قد نصحه بإنشاء مسرح يتعرض للأوضاع السياسية في مصر وأن ينشر هذه الأفكار بين طبقات الشعب الفقيرة[٢٤].

يقر صنوع هو أيضا بفضل المسرح الأوروبي عليه، كما أقر بذلك من قبله مارون النقاش، وذلك في محاضرة له كان قد ألقاها في باريس سنة ١٩٠٣ يتحدث فيها عن مسرحه وعن مساهمته في إنشاء المسرح العربي الحديث، جاء فيها: «ولد هذا المسرح في مقهى كبير، كانت تعزف فيه الموسيقى في الهواء الطلق، وذلك في

وسط حديقتنا الجميلة (الأزبكية)، في ذلك الحين أي في سنة ١٨٧٠. كانت ثمة فرقة فرنسية قوية تتألف من الموسيقيين والمطربين والممثلين، وفرقة تمثيلية إيطالية، وكانتا تقومان بتسلية الجاليات الأوروبية في القاهرة. وكنت أشترك في جميع تلك التمثيليات التي تقدم في ذلك المقهى [...]، وإذا كان لا بد لي من أن أعترف، فلأقل إذن، إن الهزليات والملاهي والغنائيات والمسرحيات العصرية التي قدمت في ذلك المسرح هي التي أوحت إلي بفكرة إنشاء مسرحي العربي، [...] وقبل أن أقدم على إنشاء مسرحي المتواضع، قمت بدراسة جدية للكتاب والمسرحيين الأوروبيين، [...] وعندما أحسست بأنني أصبحت متمكنا، إلى حد ما، من الفن المسرحي، كتبت غنائية في فصل واحد، باللغة العامية، وأقحمت فيها بعض الأغاني الشعبية [...] ولقد شجعني نجاح هذه المسرحية على ألا أتوقف أبدا، بل مضيت في سبيلي قدما، وكان علي أن أؤلف فرقة تمثيلية حقيقية تضم ممثلات من النساء، لا من رجال تنكروا في أزياء نساء. ولقد وفقت في ذلك الحين في العثور على فتاتين فقيرتين جميلتين كانتا على جانب كبير من الخلق القويم. [...] وبعد مرور أربعة أشهر على قيام هذا المسرح القومي، دعاني الخديوي إسماعيل وفرقتي إلى التمثيل على مسرحه الخاص في قصر النيل، وبعد أن مثلت مسرحيتين، قال لي أمام الوزراء وكبار رجال القصر: نحن ندين لك بإنشاء مسرحنا القومي فإن كوميدياتك وغنائياتك ومآسيك قد عرّفت الشعب على الفن المسرحي، فاذهب فإنك موليير مصر، وسيبقى اسمك كذلك أبدا»[٣٤].

تابع صنوع في مسيرته يؤلف المسرحيات ويخرجها ويدرب الممثلين على تأدية أدوارهم حتى بلغت مسرحياته اثنتين وثلاثين[٤٤]، معظمها تصوير للواقع الذي تعيشه مصر وانتقاد للتخلف والواقع الاجتماعي في تلك الأيام[٤٥]، «وفي هذه المسرحيات يسير الأثر الأوروبي والأثر الشعبي جنبا إلى جنب داخل القالب الغربي، وإن كانت الحياة العملية الحافلة التي عاشها صنوع، قد جعلته أكثر من سلفيه[٤٦] قربا من الناس العاديين وأقدر على ملاحظتهم وهم يضطربون في حياتهم اليومية»[٤٧].

لفت صنوع نظر المؤرخين والمحللين والدارسين حتى رأينا محرر الساتردي ريفيو يصف، في عددها الصادر في ٢٦ تموز/ يوليو سنة ١٨٧٦، دور صنوع بخالق المسرح العربي وحده لكونه المؤلف والممثل والمدير والملقن، ويضيف ان ما يثير الاعجاب حقا هو تقمصه شخصية الفلاح المصري حين يقوم بهذا الدور فيحلو لك سماع ملاحظاته اللاذعة وضحكاته البريئة، إلى جانب عبراته الصامتة وهي تتساقط على خديه الضامرين، فهو قادر على ان يجمع في شخصه شعبا بأكمله[٤٨].

يلاحظ الراعي بعد قراءته لإنتاج صنوع المسرحي ان تصويره للسادة في مسرحه تصوير ضعيف، فهم عادة أناس باهتون، بينما شخصياته الشعبية قوية وواضحة. ويرى أنه قد لجأ إلى كل الحيل الفنية لكي يستنبط الضحك، فاستخدم النكات اللفظية والجنسية، كما استعمل الهزل والفكاهة الراقية، فقدم من ناحية تهريجا وقدم ايضا أفكارا، لقد فهم ان المسرح فرجة ولكن يجب أن يحمل رسالة وهدفا[٤٩].

استمر صنوع في تقديم عروضه على المسرح الذي أنشأه مدة سنتين، ولكن بعض موضوعاته كتعدد الزوجات، ونقده للإدارة الحكومية وللخديوي نفسه بسبب بعض المظالم، وقيام علماء الأزهر بتقليده وتأليف مسرحيات

عربية وتمثيلها، ولأسباب أخرى جعلت الخديوي إسماعيل يصدر قراره سنة ١٨٧٢ بإغلاق المسرح[٥٠].

يرى علي الراعي أنه بختام صنوع لأعماله يكون قد اكتمل للمسرح العربي «المجلوب» الأنماط الثلاثة التي ظل يصب فيها أعماله منذ منتصف القرن التاسع عشر وحتى الآن وهي: المسرحية الجادة، التي تعتمد بالأساس على النص الأدبي، والمسرحية الكوميدية الانتقادية ذات الأساس الشعبي، والأوبريت، أو المسرحية الغنائية. ويضيف أن المسرح العربي ظل يقدم الأنماط الثلاثة «مقتبسة أو مؤلفة تأليفا متهافتا» حتى ظهر المؤلف المحلي[٥٠]، الذي سنأتي على ذكره لاحقا.

بعد إغلاق مسرح صنوع توقف التمثيل العربي في مصر مدة أربع سنوات إلى أن بدأت الفرق الشامية التي أشرنا إليها سابقا، تفد إلى مصر، وتقوم بدور فاعل في نشر المسرح العربي في مصر بل وفي بعض الدول العربية الأخرى، كتونس والجزائر. ومن الأمور الهامة التي تنسب لهذه الفرق أنها فتحت المجال لتعاون شامي مصري، كمشاركة الشيخ سلامة حجازي في فرقة يوسف الخياط والقرداحي والحداد واسكندر فرح مغنيا أحيانا، ومغنيا وممثلا أحيانا أخرى، ومشاركة المغني المصري الشهير عبده الحمولي (١٨٣٦-١٩٠١) في فرقة القباني[٥٠]. ومع ذلك فإن «بعض النقاد المصريين أمثال لويس عوض يدّعون أن هذه المرحلة الشامية في تاريخ المسرح المصري هي مرحلة عابرة، رغم أنها امتدت حتى أواخر سنوات العشرين من القرن العشرين، وظلت قادرة على إيقاف تطور مسرح مصري قومي مثل ذلك الذي أنشأه صنوع ومحمد جلال عثمان»[٥٠].

ذكرنا أن من أهم إفرازات اللقاء الشامي المصري هو بروز فنانين مهمين في تاريخ المسرح العربي الحديث ومنهم الشيخ سلامة حجازي[٥٠] الذي يبدأ تاريخه الخاص في أوائل سنة ١٩٠٥ حين ألف أول جوق خاص به، وفيه يقول محمود تيمور: «في شخصية الشيخ سلامة التقت موهبتان أصيلتان، موهبة التلحين وموهبة التمثيل. بهما أصبح طرفة فنية نادرة [...] وأذكر أن الشيخ سلامة حجازي عرّج على إيطاليا في بعض جولاته، وأحيا هناك حفلات سمعه فيها المغني العالمي كاروزو وشهد له، ويروى أن الفنانين الايطاليين قالوا: «لو ان ذلك الفنان المصري كان من قومنا لجعلنا منه كاروزو آخر».[٥٥]

لقد جدد الشيخ حجازي كثيرا في مجال الغناء إذ الغى التواشيح والمقدمات والليالي والتقسيمات الموسيقية التي كانت تسبق الغناء وتمهد له تمهيدا طويلا، وبذلك يكون قد مهد للموسيقى والغناء المسرحيين ومهد الطريق لعملاق الموسيقى المسرحية الشيخ سيد درويش[٥٠]. أما في مجال التمثيل فهناك من يرى أن التمثيل قد انتقل من طوره الأول إلى طوره الثاني يوم ان احترف الشيخ سلامة التمثيل العربي، ففي عهده ارتقى اسلوب المعربين وترجمت عدة روايات عن الفرنسية والانجليزية[٥٠].

***

وقبل الانتقال الى الحديث عن المؤلف المحلي علينا أن نوضح نقطة هامة جدا وهي أن معظم المسرحيات التي عرضتها الفرق الشامية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر هي مسرحيات مترجمة أو معدة، بالأساس عن اللغة الفرنسية، لكتاب معظمهم شاميون، فاللغة الأوروبية الأساس في مصر منذ محمد علي

وحتى الاحتلال الانجليزي لمصر (١٨٨٢)، هي اللغة الفرنسية. ويذكر أن مسرحية «هملت» التي عرضتها فرق القباني وحجازي ويوسف وهبي ترجمت عن الفرنسية لا عن اللغة الانجليزية[٨٥].

ولعل ما قام به الباحث علي الراعي يعطي الإجابة الوافية لهذه القضية بالتحديد حين يتحدث عن الإرهاصات التي سبقت ظهور الكاتب المحلي، ويتوقف عند المسرحية الاجتماعية «صدق الإخاء» (١٨٩٤) لمؤلفها إسماعيل عاصم التي ناقشت ترف الأغنياء وتبذيرهم، والخلل في حرية التعليم وحق تكوين الأحزاب، وتفرق أهل مصر عن حقهم الذي فتح المجال للأطماع الغربية، وسهل للغريب احتلال أرضهم[٩٥]. تكمن أهمية المسرحية في كونها «البشير الأول بقيام المسرحية الاجتماعية المؤلفة [...] أما المصدر الثاني لأهمية هذه المسرحية على وجه الخصوص، فهي أنها مضت قدما مع رحلات الفرق الفنية، فاقتحمت تونس الخضراء»[٠٦].

وكما هو الأمر بالنسبة للرواية العربية الحديثة، التي سبقتها إرهاصات عديدة، من تعريب وتمصير وترجمة إلى أن ظهرت رواية التسلية والترفيه والرواية التاريخية، هكذا حدث في مجال المسرح أيضا. يشير الراعي إلى المؤلف إبراهيم رمزي (١٨٨٤-١٩٤٩) الذي كتب عددا من المسرحيات التاريخية، الاجتماعية والغنائية وأهمها: «الحاكم بأمر الله» (حوالي ١٩١٤)، و«أبطال المنصورة» (١٩١٥)، و«بنت الإخشيد» (١٩١٦)، و«البدوية» (١٩١٨)، و«إسماعيل الفاتح» (١٩٣٧)، و«شاور بن مجيد» (١٩٣٨)، والمسرحية الاجتماعية «صرخة طفل» (١٩٢٣). وفي الفترة نفسها يظهر كاتب مصري آخر وهو محمد تيمور (١٨٩٢-١٩٢١) الذي أخرج مسرحيات: «العصفور في القفص» (١٩١٨)، و«عبد الستار أفندي» (١٩١٨)، و«الهاوية» (١٩٢١)، وهي مسرحيات ذات أسس أجنبية فرنسية في الغالب الأعم، قام تيمور بتمصيرها وتقريبها من الواقع المصري، مبتكرا شخصيات وحوادث قريبة من الواقع المحلي. وأخيرا يظهر الكاتب الكبير توفيق الحكيم (١٨٩٨-١٩٨٧) الذي كان له دور هام جدا في دعم الحركة المسرحية في مصر ابتداء من مسرحيته المفقودة «الضيف الثقيل» (١٩١٩)، حتى أول مسرحية وصلتنا كاملة وهي «المرأة الجديدة» (١٩٢٣)[١٦].

***

يعتبر الكثيرون العقد الثاني من القرن العشرين إحدى أهم المحطات في تاريخ المسرح العربي الحديث، ويعود الفضل فيه للمسرحي جورج أبيض (١٨٨٠-١٩٥٧). ولد أبيض في بيروت وانهى مرحلته الأولية من الدراسة ولما يبلغ الثانية عشرة، فترك مدرسة الفرير والتحق بمدرسة الحكمة في بيروت، وفيها اتقن اللغة العربية التي كانت تهتم بها هذه المدرسة، ونال شهادتها سنة ١٨٩٧. ثم عين في بعض الوظائف، ولكنه لم يستقر بها إذ غادر لبنان إلى مصر وحل في الاسكندرية أواخر سنة ١٨٩٨[٢٦].

ويعتبر عمله «أول خطوة حقيقية نحو إيجاد فن صحيح، مبني على الدراسة الأصولية، ومتصل بتراث المسرح الأوروبي العتيد»[٣٦]. فإلى جانب ظهور المؤلف المحلي والملحن المسرحي ظهر لأول مرة الممثل المدرب بالأسلوب العلمي[٤٦]، فقد عاد من فرنسا في عام ١٩١٠ على رأس فرقة فرنسية لتقديم العروض باللغة الفرنسية، وذلك بعد ان كان الخديوي عباس حلمي قد أوفده إلى هناك سنة ١٩٠٤، ودرس فيها

أصول المسرح على يدي الممثل الفرنسي المرموق سيلفان، فأتيح له بذلك أن يلتقي بأساتذة كبار وأن يشاهد الفرق الفنية الكبيرة[٥٦].

وفي عام ١٩١١ كان الزعيم المصري سعد زغلول وزيرا للمعارف الذي قام بتعديل كل المناهج الدراسية الانجليزية التي وضعها الانجليز لتصبح عربية، فدعا إليه جورج أبيض الذي قام على الفور بحل فرقته الفرنسية وإرجاع أعضائها إلى فرنسا، وألف بدلها فرقة عربية، وعكف بعد ذلك عاما كاملا على إعداد وتعريب المسرحيات التي مثلها باللغة الفرنسية. وما لبث ان استقطب حوله مجموعة من أفضل المواهب والمحترفين، مما حفز كبار رجال القلم على التفرغ لأعمال الترجمة والتأليف، ومن أوائل الترجمات كانت «أوديب ملكا» لسوفوكليس ترجمها فرح أنطون، و»عطيل» ترجمها خليل مطران. وكان أول ما افتتحت به الفرقة نشاطها مسرحية شعرية بعنوان «جريح بيروت» من تأليف الشاعر الكبير حافظ إبراهيم[٦٦].

لقد لاقت خطوة جورج ابيض، سنة ١٩١٢، العربية ترحيبا وتشجيعا واسعا فأقبل عليه الجمهور للمشاهدة من جميع الطبقات، وانضم إلى فرقته نخبة من المثقفين ومن ذوي المكانة الاجتماعية الذين كانوا حتى ذلك الحين يرفضون الانخراط في هذه الفنون مثل الممثل والكاتب المسرحي الكبير يوسف وهبي (بك)، مما أدى إلى ارتفاع مكانة الممثل والنص المسرحي معا. هذه الخطوة جعلت البعض يعلن أنها بداية مرحلة وانتهاء مرحلة لها خصائصها المميزة[٧٦]، فقد قدم جورج أبيض مسرحية «مصر الجديدة ومصر القديمة» للكاتب المسرحي فرح أنطون، وقد اعتبرت آنذاك بأنها أول مسرحية مصرية[٨٦].

ومن الخطوات الهامة الجديرة بالدراسة والمتابعة هي الخطوة التي قام بها عزيز عيد (١٨٨٤-١٩٤٢) حين بدأ يهتم بفن الإخراج، بصفته فنا مفصولا عن التمثيل أو إدارة الفرق المسرحية، فعمل مع أبرز الأسماء في تلك الحقبة الزمنية، فشهد له الكثيرون بدوره الهام مثل الفنانة روز اليوسف والأستاذ زكي طليمات[٩٦].

في هذه الأثناء كانت الحرب العالمية الأولى تهز العالم كله من مشرق الأرض وحتى مغربها، وكان من الطبيعي أن يحدث تراجع مؤقت في المسرح وفي غيرها من الفنون ، لكن ما ان وضعت الحرب أوزارها حتى انتعشت الحركة المسرحية في مصر، وشهدنا تواصلا أكبر وتبادلا ثقافيا بين الشرق والغرب، مما أفرز فرقا مسرحية جديدة وجيلا من المثقفين من كتاب ومترجمين ومسرحيين. كما بدأنا نسمع بأسماء ممثلات ومغنيات مصريات بدأن يظهرن على خشبة المسرح ويأخذن بعض الأدوار المركزية مثل منيرة المهدية (١٨٨٥-١٩٦٥) وغيرها.

***

رأينا أن المسرح بمفهومه الحديث قد وفد إلينا من الغرب، وبالتحديد منذ حملة نابليون على مصر، ما يذكرنا بمسيرة القصة والرواية الحديثتين، رغم الاختلاف بين الموروثين. لكننا نرى أن الموروث القصصي أعمق واوسع من الموروث التمثيلي.

يقر المسرحيون الاوائل بتأثرهم من المسرح الغربي، في أخذهم عن المؤلفات الغربية، لكنهم خنعوا للموروث،

فحاولوا أن يمزجوا بين الحضارتين لجذب المشاهدين، ثم في فترة لاحقة كان عليهم أن يؤلفوا مسرحيات ذات طابع عربي شرقي. ونحن نجزم هنا أن التحول في المواضيع والمضامين قد حدث بصورة تدريجية.

بالرغم من تأثر كل من مارون النقاش وصنوع من المسرح الأوروبي وبالرغم من تقليدهما لأصوله، إلا أننا لاحظنا لجوء كل منهما إلى المواءمة بين الشرق والغرب، فكلاهما أدخل عناصر شعبية. فقد اشتهر صنوع، بالذات، بدور ابن البلد، فيما أن ابو خليل القباني قد حافظ على العديد من عناصر الفنون الشعبية الشائعة في أيامه.

لقد اضطر بعض الرواد إلى إدخال بعض الفنون الشرقية لاجتذاب المشاهدين الذين اعتادوا على الفنون الشعبية السابقة للمسرح الحديث، ولنقل إنها عملية مجاراة للذوق السائد لتسويق أعمالهم من ناحية، ولإيمانهم بأهمية المسرح الحديث ودوره في يقظة الأمة. فمن المعروف أن مارون النقاش، على سبيل المثال قد عرض مسرحية هزلية محلية معروفة في الاستراحة بين الفصول أثناء عرضه لمسرحية «أبو الحسن المغفل» إرضاء للحضور الذي تجاوب معها بانفعال شديد.

يستطيع المتابع للدراسات أن يرى أن الفنون الشعبية كانت منتشرة في العالم العربي منذ مئات السنين، وأنها أخذت أشكالا مختلفة من قطر لقطر، وإن كان هناك الكثير من التشابه بين هذه الفنون. كما نلاحظ أن هذه الفنون قد سبقت ظهور المسرح الحديث، وقد اختلفت آراء الدارسين في تقييم دور هذه الفنون، فمنهم من يرى أن لها دورا سلبيا في جعل البعض ينظر إلى المسرح والسينما في بداياتها نظرة استخفاف، والبعض يرى أنها، رغم ذلك، مهدت لظهور المسرح والسينما. وفي هذا يقول الباحث جوزيف زيدان: «بدون أن أضع نفسي في موقف حرج بالقول إن خيال الظل المعروف للعرب منذ سنة ١١٧١م هو مسرح ذو مكانة عالية رغم أنه لا يخضع للنموذج الأرسطوطاليسي، فإني أريد أن أقترح وجود علاقة بين هذا النوع وبين المسرح العربي الحديث الذي ظهر حوالي منتصف القرن التاسع عشر»[٧٠].

أما فيما يتعلق بدور المرأة فقد وجدنا تجاهلا شبه تام لدورها، بل إن مجرد قيام ذكور بأداء دور المرأة كان من ضمن الأسباب التي أدت إلى إغلاق مسرح النقاش ومسرح القباني. وحين عملت في الفنون الشعبية فإنها لم تلق تشجيعا ولا تقديرا، بل استنكارا وتحقيرا. وكانت عملية تجنيدهن عملية مضنية وشاقة وتحمل نوعا من المغامرة. إنني اعتقد أننا أحوج ما نكون إلى القيام ببحث يتناول دور المرأة في هذا المجال لنتمكن من إعطاء الإجابة الوافية.

لا شك أن المراحل اللاحقة هي مراحل مهمة في تاريخ المسرح العربي الحديث، وبالتحديد المرحلة التي تلت انتهاء الحرب العالمية الأولى وهي تستحق دراسات موسعة يجب أن تشمل دولا وأقطارا عربية شتى لأن المسرح لم يعد يقتصر على مصر وبلاد الشام، بل تعدى إلى مجمل العالم العربي من مشرقه حتى مغربه. إننا على دراية أن هناك العديد من الدراسات التي تناولت هذا الجانب ولا تزال أقلام عديدة تتناوله في شتى أقطار الوطن العربي، آملين أن نجد نحن وغيرنا الوقت الكافي لتناول مسيرة المسرح الفلسطيني.

سيظل بعض الدارسين والباحثين مصرّين على تناول موضوع الشرق والغرب وعملية المثاقفة، ما دام هناك

إبداع، إذ لا يضيرنا أبدا ،برأيي، أي اقتباس من الآخر او أي تبادل ثقافي، ألم نأخذ من الفرس والرومان واليونان في القرون الوسطى؟ ألم تتمكن لغتنا العربية بفضل هذا التبادل الثقافي أن ترقى وتتوسع أكثر؟ وهل يتنكر أحد لدور العرب في «ألف ليلة وليلة»، و «كليلة ودمنة»، رغم أن أصولهما ليست عربية؟ ألم يتبوأ العرب حينذاك موقع الصدارة في العلم والأدب بعد أن كانوا قد استفادوا وأفادوا؟

هذه الأسئلة وغيرها من الأسئلة المشابهة قد تمت الإجابة عليها من خلال ما أفرزه التاريخ، وما كرمت به قرائح المبدعين.

الهوامش:

١- انظر: محمد يوسف نجم، المسرحية في الأدب العربي الحديث ١٨٤٧-١٩١٤، ط٢، بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٧، ص٣٥.

٢- المصدر نفسه، ص٣٨.

٣- علي الراعي، المسرح في الوطن العربي، ط٢، الكويت، عالم المعرفة، ١٩٩٩، ص٣٣. يستعرض الباحث الفنون الشعبية والعروض التمثيلية التي عرفها العرب إبان العصر العباسي والتي تهدف إلى السخرية والإضحاك، ويشير إلى التبادل الثقافي مع البلدان الأجنبية، وإلى ممثلين يأتون من الشرق الأدنى والأقصى ليعرضوا تمثيلياتهم في قصور الخلفاء. حول هذه الفنون انظر ص٣٣-٤١.

٤- المصدر نفسه، ص٣٣.

٥- محمد مندور، المسرح، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٣، ص٢٠. هناك من يعيد أصول هذا المسرح إلى الصين وهناك من يعيدها إلى الهند، أنظر: خيري شلبي، في المسرح المصري المعاصر، القاهرة، مكتبة الدراسات الأدبية، ١٩٨١، ص٩١.

٦- مندور، مصدر سبق ذكره، ص٢٠.

٧- للمزيد من التفصيل انظر: المصدر نفسه، ص٢٠-٢٥.

٨- المصدر نفسه، ص٢٥.

٩- خيري شلبي، مصدر سبق ذكره، ص٨٩.

١٠- مندور، المسرح، ص٢٧-٢٨. وفي ذلك يقول علي الراعي: «لم يكن هذا شأن شكسبير حين جلس يكتب مسرحياته السبع والثلاثين، فقد استند فيها بوضوح إلى فن الأقدمين من يونان ورومان...»، انظر الراعي، ص٦٩، وهذا هو رأي الباحث خيري شلبي انظر: ص٨٩.

١١- نجم، ص٣١-٣٥، محمد مندور، المسرح النثري، القاهرة، دار نهضة مصر، د.ت، ص٤-٦، علي شلق، النثر العربي، بيروت دار القلم، ١٩٧٤، ص٣٠٤، عامر عطية، لغة المسرح العربي، ج١، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٦٧، ص٣٤-٣٥.

١٢- انظر: نجم، ص٣٣-٣٤، مندور، المسرح النثري، ص٥.

١٣- انظر: الراعي، ص٧٠.

١٤- انظر: نجم، ص٣٨، الراعي، ص٧٠.

١٥- مندور، المسرح النثري، ص٥-٧.

١٦- حول هذين الرائدين ودورهما انظر: نجم، ص٤١-٥٠.

١٧- المصدر نفسه، ص٦١.

١٨- المصدر نفسه، ص٦١-٦٢.

١٩- مندور، المسرح النثري، ص١١.

٢٠- لمزيد من التفصيل انظر: نجم، ص٦١-٦٨.

٢١- جوزيف زيدان، "المسرح العربي الحديث، الرحلة إلى البدايات" المجلة (مجمع اللغة العربية-حيفا)، ع١، ٢٠١٠، ص١١١.

٢٢- انظر: نجم، ص٦٦، من اللافت للنظر أن نجم لم يذكر اسم هذا الكاتب أبدا بل أبقاه مجهولا، ولم يشر أبدا إلى دور هاتين الفتاتين في التعجيل بإغلاق مسرح القباني.

٢٣- انظر: الراعي، ص٧١.

٢٤- الرأي أعلاه منسوب للأستاذ زكي طليمات، انظر: المصدر السابق.

٢٥- مندور، المسرح، ص٢٩-٣٠، ورد في مقالة الباحث جوزيف زيدان أن عدد الممثلات ثلاث وليس أربع، انظر: زيدان، ص١١٠.

٢٦- مندور، المسرح النثري، ص١٧-١٩، زيدان، ص١١٢.

٢٧- مندور، المسرح النثري، ص١٨.

٢٨- المصدر السابق، ص١٩.

٢٩- زيدان، ص١١٠.

٣٠- انظر: الراعي، ص٥٠، نجم، ص٧٣-٧٤، زيدان، ص١٠٨، يشير الراعي إلى وصول الرحالة إلى الاسكندرية سنة ١٧٦١، بينما يشير نجم إلى وصول الرحالة إلى القاهرة سنة ١٧٨٠، وكلاهما يسردان وصفا لمسرحية هزلية لفتت انظار الرحالة نيبور لقربها فنيا من المسرح الحديث يقوم فيها رجل بدور امرأة، وحين نتابع القراءة يتبين لنا أن الحديث يدور حول نفس المسرحية، مع اختلاف في سنة العرض والمدينة. أما الباحث جوزيف زيدان فإنه يشير هو الآخر إلى أن الرحالة قد زودنا بأقدم وصف كهذا سنة ١٧٦١ حين شاهد مسرحية هزلية في مصر.

٣١- الراعي، ص٥٠.

٣٢- المصدر نفسه، ص٥٠-٥١.

٣٣- المصدر نفسه، ص٥١-٥٢، نجم، ص٧٣.

٣٤- الراعي، ص٥٢-٥٣.

٣٥- نجم، ص٧٤-٧٥، الراعي، ص٥٣.

٣٦- انظر: نجم، ص١٧-١٩، زيدان، ص١٠٩.

٣٧- للمزيد من التفصيل انظر: نجم، ص١٩-٢٦، عطية، ص١٦-٢٢.

٣٨- زيدان، ص١٠٩.

٣٩- نجم، ص٧٧-٧٨، شلق، ص٣٠٥،

40- Shmuel Moreh, Philip Sadgrove, Jewish Contribution to Nineteenth-century Arabic Theatre, Plays from Algeria and Syria, A Study and Texts, Published by Oxford University Press, 1996, p21.

٤١- نجم، ص٧٧-٧٨.

42- Shmuel Moreh, Philip Sadgrove, p22.

٤٣- نجم، ص٧٩-٨٣، مندور، المسرح، ص٣١-٣٥. للمزيد انظر: شلق، ص٣٠٥-٣٠٦، أحمد محمود الحفني، الشيخ سلامة حجازي رائد المسرح العربي، القاهرة، دار الكتاب العربي، ١٩٨٦، ص٥٥-٥٧.

٤٤- يقول الباحثان شموئيل موريه وفيليب سادغروف في كتابهما المشترك أنه لا توجد نصوص تؤكد ذلك انظر:Shmuel Moreh, Philip Sadgrove, p22.

٤٥- الراعي، ص٧٢.

٤٦- المقصود مارون النقاش وابو خليل القباني.

٤٧- الراعي، ص٧٢.

٤٨- نجم، ص٧٩.

٤٩- الراعي، ص٧٢-٧٣.

٥٠- نجم، ص٩١. للمزيد من التفصيل حول أسباب الإغلاق أنظر: Moreh and Sadgrove, p23

٥١- الراعي، ص٧٣.

٥٢- للمزيد من التفاصيل حول الفرق الشامية الوافدة من بلاد الشام إلى مصر ودورها انظر: نجم، ص٩٤-١٣٤، الحفني، ص٦٥-٦٧، سعاد أبيض، المسرح العربي في مائة عام، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٠، ص٥٢-٥٣، زيدان، ص١١٠-١١٢.

٥٣- زيدان، ص١١٤.

٥٤- للمزيد من التفاصيل عن حياته واعماله ودوره انظر: كتاب الحفني المذكور أعلاه عن الشيخ سلامة حجازي، نجم، ص١٣٥-١٤٦.

٥٥- محمود تيمور، طلائع المسرح العربي، القاهرة، مكتبة الآداب، د.ت، ص٧-٨.

٥٦- مندور، المسرح، ص٣٧-٣٩.

٥٧- مندور، المسرح النثري، ص٢١

٥٨- زيدان، ص١١٢.

٥٩- الراعي، ص٧٣-٧٤.

٦٠- المصدر نفسه، ص٧٤.

٦١- المصدر نفسه، ص٧٤-٧٧.

٦٢- للمزيد من التفاصيل انظر: ابيض، ص٣١-٥٨، وسعاد ابيض هي ابنة الفنان جورج ابيض.

٦٣- نجم، ص١٥٧.

٦٤- الراعي، ص٨٠.

٦٥- نجم، ص١٥٢-١٥٣، الراعي،ص٨٠.

٦٦- للمزيد انظر: ابيض، ص١١٥-١٢٧، الراعي، ص٨٠.

٦٧- الراعي، ص٨٠-٨١، مندور، المسرح النثري، ص٤٣-٤٥.

٦٨- الراعي ، ص٨١.

٦٩- انظر: الراعي، ص٨٠-٨١.

٧٠ - زيدان، ص١٠٨.

رواية العائلة*

تأليف: سيلبيا توبرون

الترجمة عن الاسبانية: أحمد يعقوب

" لدينا الفن كي لا نجهز على الحقيقة "

نيتشة

البناء الروائي للفاعل

في دراساته حول الهستيريا، وانطلاقا من منظور تكوينه العلمي، وبوصفه اختصاصياً في مرض الأعصاب، يتفاجـأ فرويد من طبيعة خطاباته ذاتها، ويقول:

"بالنسبة لي يدهشني... أن الملفّات الطبية التي أكتبها، تُـــقرأ كأنها روايات، فتفتقد بهذا القول للسمة القاسية لما هو علمي". وهو يدرك أن ذلك ليس بسبب تفضيلاته الشخصية، إنما بسبب طبيعة الفاعل الذي يشغله. وفي الحقيقة، فالعلاجات الطبية التقليدية، مثل العلاج بالصدمة الكهربائية، تكون فاقدة للقيمة عند دراسة الهستيريا، ومع ذلك فإن «سرداً تفصيلياً للمسارات النفسية، كالذي اعتدنا على تلقيه من الكتّاب، يسمح بفهم مصدر حالة هستيرية «. وقد عوّض فرويد الإبستمولوجيا الطبية للبصر مقابل إبستمولوجية التحليل النفسي للسمع: فلم يعد «المريض» يتكلم كمعطٍ حقيقيٍ للمعلومات، يموضع إحداثيات المكان وخصائص الألم، إنما يخلق حكاية تاريخية عليه أن ينبثق كفاعل فيها.

ولا يشير غرض الموضوع إلى أعراض وإشارات لمنظومة الباثولوجية المرضية، التي قد تم تثبيتها من قبل، إنما الى اكتشاف أو بناء اتجاهاتها، وما يهم هو قيمتها الرمزية، التي تُـــرسل إلى عالم من الرغبات، الرغبات التي لم يتم الاعتراف بها بشكل واع كما هي.

---

* دراسة نشرت في ١٩٩٩Revista de Occidente

نلاحظ أن فرويد لا يتحدث عن الهستيريا، إنما عن هستيرية ما، ولا يقصد معرفة هوية الباثولوجية المرضية كماهي، إنما اكتشاف أصل الجندر الوراثي ومعاني حالة فردية. اذ إن استيعاب الذاتية الفردية يتطلب ركائز أخرى مختلفة عن التي تستخدم في مجالات عمل القوانين العلمية، فمنشأ العوارض (المرضية) ، فقط، يمكن أن يــؤرّق في الرواية.

لهذا لا يجب أن نتفاجىء عند عثورنا في أعمال «فرويد» على مصطلحات مثل رواية عائلية أو نظريات جنسية طفولية، أو المقارنة المسحوبة بين السرد في التحليل النفسي السريري والأدب.

من المهم الإشارة الى نص فرويد المعنون» الرواية العائلية للمصاب بالاضطراب العصبي» (منشور في ١٩٠٩) ، والذي يبدأه مؤكداً أن «حقيقة حالة فكاك الفرد، الذي ينمو، من سلطة الوالدين، هي إحدى الحقائق الأكثر أهمية، لكن أيضا من الأكثر إيلاما للتطور». فهي مهمة لأنها تتركز بشكل مباشر في الحركة الديالكتيكية التي تربط الفاعل مع العائلة من جهة. هذا الربط نجده في عمل فرويد كله. حيث الكائن البشري، فقط، يمكنه تعويض نفسه كما هو وسط علاقات ذاتية متداخلة، والتي يكون وسطها العائلة، بأي شكل تتخذه.

من جانب آخر، فإن الوظيفة التعويضية للعائلة تدخل في توتر مع الاحتياجات للانفصال الذي يجب على الفرد إتمامه حتى يتمكن من الوصول ليصبح فاعلاً "طبيعيا"، إذا كان من الممكن الوصول لذلك خارج منظومة الانتماء العائلي التي تقرها التبعية وانحدار السلالة وتحرك فواصل الفرق بين الأجناس وبين الأجيال. فإذا كان تعريف،ما يمكن تسميته، "هوية شخصية" يتحدد من قبل موقع الفرد في تسلسل جنيني ولادي، فإن الانقطاع مع تحديداته يكون مهماً جداُ مثل الرفع التأليهي لها نفسها، لكن هذا التحرر، ليس فقط لا غنى عنه لكل كائن بشري، إنما ـكما يؤكد فرويد أن تقدم المجتمع يعتمد بشكل أساس على تلك المعارضة بين الأجيال. اذ أن بعض المختلات عصبياً يكنّ محكومات بالفشل في تحقيق تلك المهمة.

أما بالنسبة للصغار، فالآباء يمثلون لهم السلطة الوحيدة والمنبع لكل معتقد. وتكون الرغبة الشديدة جداً والمبهمة للبنات والبنين هي الوصول ليصيروا كباراً مثل الأم والأب على التوالي. لكن التطور الثقافي يقودهم لمعرفة خصائص آبائهم ومقارنتهم بآخرين. ويقودهم إلى الشك في شخصية الأب الوحيدة التي لا يمكن التساوي معها. في الوقت نفسه، فإن تجاربهم غير المشبعة في العلاقة مع الآباء ، تحثهم على انتقادهم.

وفي هذا المسار يتدخل ضغط التمرد الجنسي، المثار بالإحساس بالإذلال. ولا تنقص المناسبات التي يمكن للطفل فيها أن يشعر أنه مغبون أو منزاح في ما هو متعلق بحب الآباء، الذي عليه أن يتقاسمه مع إخوانه. فالانطباع بأن حبه ليس متبادلا يتم التعبير عنه في فكرة (بشكل شائع يتم تذكرها الواعي في المراهقة) بأنه طفل تم تبنيه أو التقاطه. وهذا لا يحدث فقط للأشخاص المضطربين عصبياً، بل للكثير من أولئك المتأثرين بشكل عام ببعض القراءات،(أو علينا أن نضيف اليوم، الأفلام أو المسلسلات التلفزيونية)،الذين يفسرون بهذا المنهج السلوكيات العدوانية لآبائهم سواء كانت واقعية أو متخيلة.

هذا الإقصاء البدائي للآباء يسميه « فرويد» برواية عائلية تتحدث عن نشاط غريب خاص جدا، تتركز ثيماته في

العلاقات العائلية التي تتضمن ما هو جوهري إن كان بخصوص المريض العصبي أو لكل عبقري عظيم. وهي تتمظهر أولا في الألعاب الطفولية، وفيما بعد في الأحلام الليلية التي تضغط كثيراً حتى إلى ما بعد مرحلة البلوغ.

هذه الأحلام الليلية مثل كل فنتازيا تتجه إلى تحقيق الرغبات وإعادة خلق الحياة الواقعية بشكل أساس لهدفين هما: الإيروتيك والشغف مع أنه خلف الثاني يختبئ الأول لمرات كثيرة. عندئذ تنشغل مخيلة الطفل بوظيفة تحرره من الآباء وتعويضهم بآخرين، بشكل عام، آخرين ينتمون إلى طور اجتماعي أكثر رقيّا.

لكن عملية تعويض الآباء بآخرين أفضل وأرقى لا تستجيب لرغبات الانتقام عند الطفل، فقط، إنما في الوقت نفسه تكون تعبيراً عن الحنين للأوقات السعيدة الماضية التي كان الطفل يرى الأب فيها الرجل الأكثر نبلاً وقوة، ويرى الأم المرأة الأكثر جمالا وروعة. في المحصلة يبتعد الطفل عن الأب الذي يعرفه في الفترة الحالية ، ويعود إلى ذاك الأب الذي رسمه في سنواته الأولى. وهنا تعكس الفانتازيا الأسف على ضياع تلك المرحلة السعيدة. فالرواية العائلية تعيد له المبالغة في تقييم الآباء تماما كما كان يجربها في الماضي.

وشكل مديح وتعظيم الأباء يأتي من المواد التي تكون في متناول الطفل، ويأتي من التقاطاته من الحياة الاجتماعية. وبهذه الطريقة فإن الدوافع المحركة والضاغطة تتشابك بالدوافع المتناسقة بفعل الآداب والمجتمع واختلافاتها الطبقية والمواقعية.

في هذا النص كما في نصوص أخرى يحرك فرويد ربط المفاصل بين المتخيل الفردي والمتخيل الجمعي، بين الفنتازيا والحقيقة الاجتماعية. وهناك عامل آخر، فإذا كان في المضمار الأول للرواية العائلية يتجاهل الطفل الشروط الجنسية للإنجاب، ففي المضمار الثاني يكتشف العلاقة الجنسية بين الأبوين وأدوارهما المختلفة وذلك عندما يصل الطفل إلى عمر يمكنه أن يفهم أنّ « الوالد على يقين دائماً- pater sempre certus - " بينما الأم هي اليقينية.

إذن هنا تتحدد الرواية العائلية، بتمجيد الأب لكن بلا شك في الأصل الأمومي. فيبدأ الطفل يتخيل حالات إيروتيكية تبعثها رغبة تعليق الأم التي هي الفاعل والغرض للفضول الأكبر جنسيا.

وفي حالات غير وفية وعلاقات غرامية خفية يذكر " فرويد" أيضا حالة اختلاف بين كلا الجنسين:

الطفل يجد نفسه اكثر ميلاً ليجرب دوافع عدائية نحو الأب، ولديه رغبة شديدة ليتحرر منه أكثر من الأم، ومع ذلك فإن خيال الطفلة في هذا المجال يكون "أكثر ضعفا" من الآخرين، فهي لا تنشغل بالخصوصيات التي للرواية العائلية الأنثوية.

وبالرغم من ذكر الاختلاف، يمكننا الإشارة، بالاستناد إلى (ماريان هيرش Marianne Hirsch)(١) أنّ الفانتازيا المتعلقة بالمنشأ وبالتمرد ضد سلطة الأبوة ترتبط بقوة بخلق الخيال، فالطفلة لا تجرب في

١- ماريان هيرش(١٩٤٩-) أستاذة الأدب والنقد المقارن في جامعة كولومبيا، وهي أيضاً بروفيسورة في معهد أبحاث المرأة، الجندر والجنسانية.

العلاقة مع الأم صراعا على السلطة كالذي يعيشه الطفل مع والده، وهكذا سيكون للنساء احتمالات أقل لتطوير عمل خلاق. ومع ذلك، علينا أن نأخذ بالحسبان كما يؤكد « فرويد « أن الرواية العائلية تنسج في لحمة حبكتها عناصر من الواقع الاجتماعي، كالاختلاف المراتبي بين الطبقات، وينتظر فيها أن يتم أيضا تثمين الاختلافات المراتبية بين الحالة الجنسية الذاتية لكل مجتمع أبوي /بطريركي.

هناك قراءة خاصة للرواية العائلية تختص بالأبناء الصغار الذين من خلال تلك الخيالات، تماما كما يحدث في المكائد التاريخية، يجردون أشقاءهم من امتيازاتهم وبالكاد لا يترددون في أن يعزوا للأم علاقات الحب والتنافر الأخوي القائمة بينهم. وأحد أشكال تحقيق ذلك هو تأكيد الشرعية الذاتية وإعلان شرعية الأشقاء. وفي مجال آخر يتم إلغاء علاقة الانتماء العائلي مع الأخت التي تجذب جنسياً مؤلف التخيل.

في النهاية، إن الرواية العائلية هي تساؤل تحقيقي متخيل للأصول: فالكائن الإنساني فقط يمكنه تعويض نفسه كما هو من خلال الطريقة التي يؤرخ بها تجربته، والتي مجالها العلاقات العائلية، لكن إذا كانت التجربة السيكولوجية الفردية لبنيوية العائلة هي من خاصية خطابية، فعلى الفاعل نفسه أن يبني ذاته بالسرد وبالوهم. ومن خلال الوهم المخادع يتبوأ الطفل التناص الأوديبي، حسب التحليل السريري للجنس البشري للفاعل في ثقافتنا، في الوقت نفسه الذي يعيد الخلق بطريقة خاصة.

الرواية العائلية، إلى حد معين، توازن التنافر بين الواقع الاجتماعي والقانون والرغبة، و بين الوقت الذي يلعب بالاختلاف بين الرجل والمرأة، الأب والأم، آباء و أبناء، أبناء وبنات ، أخوة كبار وصغار.

على هذا المنوال تتحرك الرغبة بين مفاصل السرد كسرد مفرد في الوقت ذاته الذي تتموقع فيه تجربة العائلة في جنس كل السرد.

الرواية العائلية إبداع أدبي اختلاف بين الأجناس

مع أن «رولان بارت» يرى في «لذة النص» أن كل سرد هو كشعراء الخيول في الجيش. فثمة من يركب خيل أوديب، في القياس الذي يتم فيه التحدث بالتاريخ. وهذا شكل من تحري الصراعات ذاتها مع القانون، والدخول في «ديالكتيك» الحب والحقد.

فالرواية العائلية لا يتم تقديمها كنموذج صلب، إنما كنموذج للتوخي، أن تكون متعددة الوجوه، وأن تطبق على كل طبقات الرغبة، تماما، وأن يكون باستطاعتها أن تُثمِّن في التطورات الأدبية نفسها.

على سبيل المثال فإن «مارثا روبرت» تعتبر بأن المرحلة الأولى للفانتازيا نحو الجنس تتعلق بأدلة قطعية للّـقيط وتدرس تطورها وتناميها في الأحاديث الفانتازية وفي روايات كل من (شريتن، ترويس ، سرفانتس ، هوفمان، نوفالس، ملفايل ،كافكا.) فإن «روبرت» تعرف المرحلة الثانية التي تم تجنيسها كإثبات للزنديق، وتضعها في أصل التخيل الواقعي لـ(بلزاك و دوستوفسكي وتولستوي وبروست وفوكنر و ديكنز) مع ذلك فإن «روبرت» تتبع الرسم البياني الفرويدي وتلاحظ أن الطفل فقط،لا توجد أية إشارة إلى طفلة، يرفع

الأب إلى مملكة الفانتازيا، بينما الأم تبقى بشكل ثابت راسية في الواقع،مطرودة من المسار،الذي تسميه المؤلفة «عملية التخيل». فالتخيل ينقح موقع الأم ويتحرى حالتها الجنسية، لكن لا يعوض هويتها.

هذه الأم الواقعية تتحول إلى غرض لألعاب الفنتازيا للطفل، فيحولها إلى صنم معبود، بينما الأب يرتقي إلى طبقة ذات امتياز أو إلى الأرستقراطية، وكنتيجة تم خفض الأم.

(م.هيرش M.Hirsch) يعتبر أن في هذا النموذج لا توجد للطفلة فرصة لتعوض الأم بشكل تخيلي بالشكل الذي يكون بمقدورها إكمال التعارض بين الأجناس، وبين تحرير اللعب التخيلي للطفلة، إذ من الضرورة إلغاء الأم من التخييل/الوهم.

إن " فرويد" نفسه وفي عمل عنوانه (الشاعر والفانتازيا) يلاحظ أن الرجال ينزعون الى أن يحلموا بالقوة والشغف، بينما فانتازيا النساء تتحدد في المجال الإريوتيكي متركزاً في هيئة الأب أو الأخ الذي يصل إلى امتصاص رغباتهن الشهوانية.

لكن "هيرش" يؤكد على دليل إثبات "أنوثة"،الذي يمكن استقراؤه من النص الفرويدي، بأنّ غرض فانتازيا الطفلة هو الجنس،وسلطة الآباء والإخوة، والأزواج، يتم تبادلها في هذا الاقتصاد السيكولوجي . لأن هويتها الأكيدة هي عدم اليقينية دائما ـ " sempre incertus ـ" ودورها هو المرغوب دائما. ففي تخييل الطفلة للأب سلطة مخولة لترميزية الذكورة " falo \o \ penne " القضيب أو العصا، على خلاف الطفل الذي يحلم بتحقيق السلطة المتعلقة بموقع الأبوة آخذا مكانة الأب، بينما الطفلة تربط ذهنيا الإثارة والشبق والطموح، لأنها تتوق للوصول إليه من خلال الزواج.

في المحصلة.إن الرواية العائلية الأنثوية المتضمنة في تأكيدات " فرويد " تتأسس على إلغاء الأم والارتباط مع زواج/أب. ومع ذلك، إذا اهتممنا بمفهوم " فرويد " للنفي/negation، سنجد أن إلغاء الأم ليس أكثر من الاعتراف والتعزيز بأهميتها الغامرة. كما في المثال الذي يقترحه "فرويد" نفسه بهذه الميكانيكية الدفاعية، على أنها شكل من اعتراف شيء قد تم اضطهاده مع أنه يلفظ تحت شكل قواعدي سلبي، إنه الإشارة لمريض يقول: " تسألني من هذه الشخصية التي تظهر في منامي ؟ ليست أمي".

"فرويد" يفهم أن هذا هو شكل من الاعتراف مع أنه ليس إقرارا ضمنيا أنها أمه. بينما يوحي "هيرش" في الروايات الواقعية للقرن التاسع عشر التي كتبتها نساء: " أنه شكل اضطهاد لما هو أمومة الذي يولد التخييل".

هذا لا يشمل دراما علاقات الابن مع السلف الجنسي نفسه، إنما يشمل الزواج كوسيلة وحيدة تسمح لتواريخ النساء أن يشاركن في دينامية الشهوانية،والطمع ،والسلطة ،والشرعية التي تعوض الدوافع للتخيل الواقعي.

مع ذلك يتضح أن الرواية بسبب تعدد أصواتها، تسمح بدراسة التلاعب الداخلي بين الأصوات المختلفة التي تكشفها الخطابات في الصراع والتساؤلات عن المفاتيح والمصطلحات الثقافية السائدة. بهذا الشكل في

روايات القرن التاسع عشر التي كتبتها نساء يمكننا العثور على إثباتات تساهم، بل في الوقت نفسه، تطرح أسئلة لمجموع الصيغ الصرفية الأنثوية الضمنية في نموذج رواية فرويد العائلية.

في أعمال مثل "Emma" لـ"جان اوستن"،يمكن ملاحظة محاولة لمكافأة البطلة بإضاعة الأم ، ولتعويض الآباء السلطويين برجال آخرين موهوبين. مواصفات يمكن أن نسميها أمومة تم جمعها إلى السلطة الأبوية. في هذا المتحول لدافع الزواج، فإن الفاعل الذكوري يأخذ شكل الأخ القادر على تقديم التأثير، في الوقت نفسه،الذي يعرج على مسائل الشرعية والسلطة المركزيتان في الدلائل. إضافة لذلك فإن دستورها الأخوي / سفاح القربى، يمكن له أن يمنع تحول البطلة إلى أم، ما يجبرها على الاختفاء من البرهان كفاعل للتحول إلى غرض مادة لفنتازية ابنها.

"الرواية البطريركية "... ما هو متخيل اجتماعي

من المهم الملاحظة أن الرواية العائلية التي درسها «فرويد»،من خلال تحليل حالات خاصة،والتي تظهر مجالاتها غير المحصية في أعمال التخيل، يمكن ربطها مع ما يعجبني أن أسميه «الرواية العائلية للثقافة البطريركية .»

ومن وجهة النظر الأنثروبولوجية، إن» الأمومة والأبوة» هما مفهومان يرتبطان مع مفاهيم القربى والتبعية وحركة انتقالهما، وفي الوقت نفسه، مشكلة الانتماء العائلي تنقلنا إلى الشكل الذي من خلاله تعيد المجموعات البشرية المختلفة حضورها وتنظيرها لمسارات الإنجاب من حيث المفهوم والحمل والدور الذي يخص كل واحد من الجنسين في تلك المسارات.

بهذا المعنى فإن «فرانسواز هيريتير» تؤكد أنه لم يثبت قطعيا أن نظماً مختلفة جذريا في تمثيل هذه السيطرة تتطلب ترميزا ما، يختلف جذريا مع آلية عمل الأمومة والأبوة. و بالعكس، فإن الأنثربولوجيا ترصد الكيفية، من خلال تباين الثقافات، وترسم الخطوط الأولية بالنسبة لخلق المفاهيم لمشاركة كلا الجنسين في تشكيل أجيال جديدة من البشر.

إن مفهوم ما هو أنثوي، أمومي يحلو تقليصه إلى المادة، وإلى الهدوء وإلى السلبية، بينما مفهوم ما هو ذكوري /أبوي يتقدم بوصفه منتِجا بتفوق. ومن الضروري التوضيح أن خلق هذه المفاهيم ليس له طابع كوني، لكن يبدو أنها الأكثر تداولا. ففي بعض المنظومات التفكيرية يتم اعتبار السائل المنوي شيئاً مادياً، وبالطريقة نفسها الدم الأنثوي.

مفهوم "أنثى" لم يتم التفكير فيه دائما على انه ملتصق و فاعل إيجابي، بينما أعطيات الأب /الأم تتغير في متون ثقافية متباينة. في المحصلة يمكننا الادعاء بوجود رواية عائلية تسيطر على المتخيل الجماعي وتوازي ما يبنيه الفرد عندما يؤرخ تجربته العائلية المركزة في «لا تماثل جذري» بين مفاهيم الأمومة والأبوة: وبينما الأول سيأخذ مساره الطبيعي مقلصا اتساعه البيولوجي، فإن الثاني سيرفع إلى مقولة مفهوم روحي.

في مصادرنا التاريخية يمكن ملاحظة اللاازدواجية لصورة الأب: فبعد الأبوة الاجتماعية نفسها للمجتمعات الأمومية، أخذت تموضعها في الأبوة البيولوجية، وبدأ الأب يؤسس تبعيته الذاتية انطلاقا من " تجعد " الأم معوضا ومزيحا لها.

في الميثولوجيا الأولمبية على سبيل المثال فإن " زيوس" خلع الآلهة خالقة الأرض عن عرشها واستحوذ على قدراتها الخلاقة .

وحسب رواية (هيسيود Hesiode)(٢) فإن «زيوس» كان قد بلع عشيقته (ميتس Metis) وهي حامل بـ" أثينا" لأنه لو لم يفعل ذلك لكان قد تم خصيه وخلعه عن عرشه.

"سفر التكوين هذا" جعل أثينا تولد من رأس والدها وهي عاجزة عن خلعه عن عرشه. بالطبع فإنها لم تنجب من (ميتسMetis) الكائنة الأنثى القادرة على إعطاء ولادة وريث لـ«زيوس».

يلتقط «اسخيلوس» فكرة أنها ليست الأم،إنما الأب الذي ينتج .أما «أرسطو» فكان عليه أن يعيل العقل بعد مضي قرن على ما كان «اسخيلوس» قد فعله، حيث الابنة هي فقط من يعطي المادة وتنتظر بهدوء لتكون مخصبة، بينما الذكر ينقل الشكل والروح في المفهوم القدري الذي يجعل من الكائن الحي كائنا إنسانيا.

لقد لاحظ «نيكول لوراكس Nicole Loraux»(٣) أن المشروع السياسي الأثيني كان يطمح إلى تشييد مكان مديني (مدينة)، حيث الطفل يتم تعريفه منذ ولادته كمواطن، الأمر الذي يتطلب إقصاء لمخطط ثان هو الأصل الأمومي المقموع من قبل مجازية الوطن. وكمثال فإنه يذكر المدونات الجنائزية المنقوشة على قبر(ديمستينس Demostenes)(٤) والتي تمنح الأثينيين منشأ ثنائياً لا يتضمن أن يكون قد ولد من أب ما وأم ما،إنما يربط « كل واحد في فردانيته إلى أب ما والجميع بشكل جمعي (...) إلى الوطن».

بهذا الشكل يؤكد « لوراكس« أن أرض الآباء تحتل مكانة الأم إلى درجة قصوى تمحو فيها معانيها: وبدلاً من معادلة بحدين أم- أب ، فإن الثنائي أب - وطن ينتقل ليتولى فعالية ثنائية زوجية أبوية.

هكذا يتحقق الحلم الإغريقي بـ «الحصول على ولد خارج النشاط الإنجابي» (حلم تجعله تقنيات إعادة الإنتاج ممكنا في أيامنا).

الأثينيون استقبلوا أثينا عذراء لم يدنسها منيُّ الذكر." الوجود من كائنات صافية سياسيا" ففي الأسطورة يوجد

---

٢ - هسيود أو هيسيود أو هزيود أو هيسيودوس هو شاعر إغريقى مشهور، وهو يصور عصر حكم الأرستقراطية في بلاد الإغريق. ولقد أمدتنا الأشعار التى نظمها هيسيود ببعض المعلومات الضئيلة عن نسبه وأصله وشخصيته.

٣ - نيكول لوراو (١٩٤٣- ٢٠٠٣) مؤرخة فرنسية لأثينا الكلاسيكية. ولدت في باريس وتوفيت في الأرجنتين، درست الكلاسيكيات في الجامعة قبل أن تكتب رسالة الدكتورة تحت اشراف بيير فيدل ناكت. من أهم أعمالها المعروفة «ابتداع أثينا: الخطب الجنائزية في المدينة القديمة، وكان لها تأثير في ظهور الجندرة كمقولة مهمة في تحليل تاريخ الإغريق القديم. وصفت كـ «مؤرخة بنائية بارزة».

٤ - ديموستيني (ديموستيني أو ديموسثينيس، ٣٨٤ ق.م- ٣٣٢ ق.م) كان رجل دولة إغريقي وخطيباً بارزاً في أثينا القديمة. تشكل خطبه تعبيراً هاماً للمهارة العالية للثقافة الأثينية القديمة، وتوفر فهماً شاملاً لسياسة وثقافة اليونان القديمة أثناء القرن الرابع قبل الميلاد.

إخضاع للذكر. بينما في الحقيقة يوجد قطع بين بث الحيمل وولوج المرأة ، فالأرض Gea تفتح لتستقبل حيامل (هيفايستوسHephaestus)(٥) المتجهة إلى أثينا التي تبقى هكذا منبوذة من خلق المواطنين.

في الرواية التوراتية نعثر على عملية مشابهة: في الأسطورة التي صهرتها الحضارة اليهودية المسيحية، فإذا كان آدم قد خلق من قبل الرب المذكر من غير تداخل أي مفهوم أنثوي، فإن حواء عندما خـــُلقت من ضلع أدم أصبحت كائنة مخلوقة مرتين من الرجل. بهذه الطريقة عند تعليق المفهوم الأنثوي في خطة إخضاع للذكر، فإنه يتم انتزاع ملكية الطاقات من الأول ليرسو المزاد على الثاني.

أسطورة ولادة حواء تبيّن كيف الخلق يغتصب، كأن للخلق خصائص الإنجاب. وبشكل قاطع فإن الخلق الأبوي يرمز إلى السلطة التي يستولي البطريركي بها على زوجته وأبنائه.

إن أسطورة المفهوم الطاهر تمثل خيارا آخر للرواية نفسها: اللاهوت الكاثوليكي يعرف بالروح المقدس الحقيقة الفاعلة نفسها للبذرة الإنسانية مع أنه في هذه الحالة يكون الأب من طبيعة قدرية غيبية.

إن معاني الأبوة هي نفس المعاني عندما يتم التطرق للأب الإنساني . ومع أن مريم هي وحيدة بين كل النساء، فإنها في الوقت نفسه نموذج لمعاني الأمومة.

في التقاليد المسيحية كما يدعم (كارول دلاني Carol Delaney) نظرية الإنجاب التي أخذت مثلها من هذا النموذج، هي سيرة تم بعث الروح فيها أو انها اقتلعت من طبيعتها في النظرية الشعبية التي سيطرت على الغرب خلال آلاف السنين.

هنا المفهوم سيكون أحادي السلالة، والإنجاب الذي يفترض أن الابن يتكون بشكل جوهري في منبع وحيد.

هذه النظرية – من الخير أنها ليست عالمية وليست محددة على المسيحية - ملتصقة بالعقيدة اللاهوتية للوحدانية. وهذا لا يعني أن يتم التطرق لعقيدة نشرتها الأديان التوحيدية، إنما تسجيلها بطريقة رمزية، في السلوكيات والقيم والقوانين والدساتير، في المنطق الثقافي لهذه التقاليد.

٥ - هيفيستوس أو هيفايستوس أو هيفست هو ابن لزيوس كبير الآلهة وابن لهيرا وأخ لهيستيا، ربة الصبا والشباب والجمال والإله آرس رب الحرب. وهو رب الحدادة والنار والصناعة والبرونز في الميثولوجيا الإغريقية. هو من شج رأس أبيه زيوس لتخرج منها أثينا، وزوج للربة أفروديت.

قصة الولادة: هوى هيفايستوس من السماء عند ولادته إلى قعر بركان فتشوه جسده وصار الإله الأعرج، وأقبح الآلهة منظراً، عكس أخيه الجميل فمالت عنه أمه، وربته الحوريات في البحر فحذق الصناعة والحدادة، وصار إله النار. لم يحتفل أحد بولادته فقد انتظرته هيرا نفسها بصبي جميل ليحبه زيوس ويتوقف عن خيانتها ولكنه كان شاحباً وقبيحاً.

زواج هيفستوس، تزوج هيفيستوس أفروديت إله الجمال والرغبة كعقاب فرضه زيوس عليها فخدعته ومالت إلى أخيه الجميل آرس مما أورثه مرارة كبيرة، كما أنه هو صانع باندورا أول امرأة في الأرض، وهو الصانع المفتان، وباني بروج أوليمبوس الإثني عشر، أو منازل الآلهة، كما أنه صانع أسلحتهم، وهو الذي فلق رأس زيوس لتخرج منه آثينا بكامل قوتها وزينتها.

ما يمكن تأكيده ليس أن المرأة لا تعطي شيئا للإنجاب، بل عندما تستقبل الأم وتتغذى فإن الأب يخلق ويبث.

في حالة ولادة العذراء، إنه الرب الذي يخلق الابن، بينما مريم، فقط هي وسيط لتمظهر خلقه، ومن خلالها تصبح الكلمة لحما. فيما بعد فإن مساهمتها هي ما تفعله بابن الله شخصا من لحم ودم، لكن منشأ وجوهر وهوية المسيح تتأتى بشكل خاص من الأب. فالأب والابن هما شيء واحد.

دور مريم ثانوي، مستقبل ومغذٍ، هذا التمثيل لوظيفة جلي الوعي التي ليست خاصة بالمسيحية، إذ أن أرباباً كثراً لديانات أخرى قد تحدثو عن عذراء، من قبل تداخل مفهوم روحاني،إنها هي ذاتها التي نعثر عليها في النظريات الشعبية حول التوالد.

في التقاليد التوحيدية «الأبوة» لا تعني بشكل واضح الوعي بأن الإنسان لديه دور في تكوين الولد، فالأبوة تعني أن الدور الذكوري يمكن تأويله باعتباره الوظيفة التوليدية والخالقة.

في العهد القديم كما في القرآن يتم التأكيد على أنه يوجد مفهوم واضح فقط. يظهر في مستويات القدر والبشر. القدر هو خلق وطاقة، وهو المبدأ الذي يشجع العالم، وهو ذكوري .

وبشكل ضمني أو واضح، فإن سبب التحالف البنيوي والترميزي بين الله والبشر أن هؤلاء يتقاسمون حياملة، بالشكل الذي تكون فيه رفعة شأنها تبدو وكأنها شيء طبيعي. فعندما خلق الله الإنسان الأول منحه السلطة لتواصل الخلق بواسطة حياملة، دون أية مرجعية إلى المفهوم الأمومي.

كذلك في سفر التكوين يمكننا أن نقيّم التفتيش عن متوالية للأنساب ذكورية المعالم واستثنائية،التي تؤسس بشكل دقيق جدا لمن يلد الآخر.الدور الذكوري في الإنجاب يعكس في نهايتة الواسعة قدرة الرب عند خلق العالم. وحسب مفهوم القدرية، فإن الحركة الرمزية والمنهجية بين الأفكار حول المفهوم ، مفهوم القدرية، تقود بشكل قسري إلى تبجيل الأب.

انطلاقا من زاوية المنظور هذه من المهم الاشارة الى أن الإكتشاف المهم في ثقافتنا لم يكن، كما يؤكد أحيانا بغير عبقرية، تأكيدا للعلاقة الفيزيولوجية الكائنة بين رجل وابنه، إنما الاعتراف بعطاء المرأة في توالد الأجناس.

ومع أن (فون باير Von Baer)(٦) اكتشف البويضة عام (١٨٢٦) فإن طبيعة تركيبتها ووظيفتها كانتا محط جدال في الدوائر الطبية والعلمية طوال القرن التاسع عشر. بشكل عام يتم الإقرار بأن البويضة كانت

٦ - كارل إيرنست فون بير (١٧٩٢-١٨٧٦) – إستوانيا، عالم الأجنة والطبيعة الاستواني وأحد المكتشفين للتطور في العلم الحديث، ويصنف في عداد العلماء الأكثر فعالية وبراعة في زمانه. تلقى فون بير علومه الطبية والتشريح المقارن في جامعات ألمانيا. وفي عام ١٨١٩ أصبح مدرساً للتشريح وعلم الإنسان وعلم الحيوان في جامعة كالينينغراد في روسيا ثم عمل مديراً لقسم التشريح في عام ١٨٢٩، وأخيراً أميناً للمكتبة الأكاديمية في سان بيترسبرغ. من أشهر أعماله (أوراق في أصل بيضة الثدييات والإنسان، ١٨٢٧) الذي شرح فيه تطور الحيوانات وكذلك (البحث في تطور الأسماك، ١٨٣٥).

تحتوي وبشكل جوهري على مواد مغذية.

ومع إعادة الإكتشاف الوراثي لـ(ماندلMendel)(٧) في القرن العشرين صار بالإمكان معرفة أنها تضم نصف العطاء الوراثي لمستقبل الابن. لهذا تم الإقرار أن الرجل كما المرأة يساهمان بشكل جوهري وخلقي عند إعادة الإنتاج (دون ذكر أن الحمل والولادة يتم إنتاجهما في الجسم الأنثوي دون تداخل متناظر من الذكوري).

مع ذلك هذه النظرية لم يتم استيعابها من قبل العالم الغربي حتى أواسط القرن العشرين الذي انتبه إلى الاختلافات الموجودة بين الوعي العلمي والنظريات الشعبية، بين المعطيات التي تعطي الحقيقة والسبب والبناء الفانتازي في خدمة تحقيق الرغبات.

حالياً فإن تلك النظريات الشعبية الأحادية عادت للظهور من خلال الشروحات التي تقدم للأطفال حول إعادة الإنتاج (التاريخ العبقري للبذرة)، وفي لغة الحياة اليومية، وفي الخطاب اللاهوتي، وبما في ذلك في الخطاب الأكاديمي.

المعرفة العلمية التي تبرهن الخاصية الثنائية في الوراثة للإنجاب ، تم تأشيرها من قبل علاقات السلطة، لكنها لم تقر بشكل رمزي لأن الرموز تتغير بشكل بطيء جدا. لكنها تواجه شرحا معارضا لأن التغيير في معاني الأبوة والأمومة سيمثل إشكالوية في التعريف المفهومي للفرق بين الأجناس والتي ستتسبب بتنقيحات في المنظومة الاجتماعية، والثقافية التي أقرتها ومنحتها شرعيتها. في المحصلة ستكون محاولة اعتداء على الرواية العائلية المسيطرة في المتخيل الجمعي.

هل هناك انحدار لصورة الأب؟

بالتأكيد إن تمجيد صورة الأبوة التي تميز ثقافتنا ما انفكت تثير تساؤلات طوال التاريخ. ففي القرن التاسع عشر، بشكل خاص عندما تطور النقد الهادف لقلب نظام العائلة الأبوي بتشجيع من عدة حركات كان هدفها تقديم إجابة اجتماعية وثقافية، حيث كان للأنوثة فيها دور مميز.

ففي ١٩٣٨ أشار «جاكس لاكان» إلى التراجع الاجتماعي للصورة المتخيلة عن الأب لارتباط ذلك بظروف وشروط عدة ـ منها :

العودة إلى فردية الحقائق القصوى للتقدم الإجتماعي، ظهور جماعات متوترة بسبب التمركز الاقتصادي والكوارث السياسية ،وعلينا أن نضيف اليوم الحركات المهاجرة، وتغيير دياليكتيكية العائلة الزوجية.

---

٧ - غريغور يوهان مندل (١٨٢٢- ١٨٨٤، التشيك)، عالِم نبات، هو أبو علم الوراثة، وعالم نبات وراهب نمساوي أجرى الكثير من التجارب واكتشف القوانين الأساسية للوراثة. أدت تجاربه في تكاثر نبات البازلاء إلى تطور علم الوراثة وكانت تجاربه هي الأساس لعلم الوراثة الذي يشهد تقدماً في عالم اليوم. ويكيبيديا

هذا الانحدار يعطي شكلا،حسب لاكان، لأزمة سيكولوجية والمفترض أنها ليست غريبة عن التحليل النفسي السريري.

كانت مدينة « فيينا» آنذاك مركزا لدولة كانت وعاء ذوبان للأشكال العائلية الأكثر اختلافا، انطلاقا من الأكثر قدما وقد تم هجره حتى الأكثر تطورا وتناميا، ومن آخر المجتمعات المتعصبة للفلاحين العبيد حتى الأشكال الأكثر تقليصا للرجل البرجوازي الصغير، والى الأشكال الأكثر انحطاطا للثنائية غير المستقرة مرورا بالبطريركية الإقطاعية والبضائعية، وكانت المكان الذي تخيّل أحد أبناء البطريركية اليهودية عقدة أوديب فيه، ومع ذلك فربما المصادفة العليا للعبقرية لم يتم شرحها في « فيينا» و على أية حال، فإن الأشكال العصابية المسيطرة في نهايات القرن (١٩) هي التي أوضحت أنها تعتمد بشكل عريض على ظروف وشروط العائلة.

يعتبر « لاكان « أن الاختلال العصابي كان قد تطور منذ حقبة بدايات تحليل النفس السريري، بمعنى عقدة طبائعية تؤلف نواة القسم الأكبر لمرضى العصاب ،التي تضع تعريفا « العصاب الكبير المعاصر»، وهي المحددة بشكل أساس من قبل شخصية الأب، " فإنها تفتقد دائما لنمط ما، غائب، مذلول، منقسم أو مصطنع» ،هذا النقصان الذي يمكننا تعريفه على أنه فشل رمزي، هو المسبب للنوبات الاجتهادية من جانب، و لجدلية الإشادة من جانب آخر.

(فرانسواز هورستيل Fancois Hurstel)، ومن منظور تاريخي قانوني افترض أيضا في نهايات القرن التاسع عشر «مسرحاً افتتاحياً» شرعياً للأبوة المعاصرة ، بغرض التجاوب مع المطالبة في فرنسا لإصدار قانون حول إلغاء الحقوق المدنية والأهلية لولاية الأب عندما يتم الاعتراف بكرامة الأب.

فالقانون كان يحدد انفصالا بين الآباء في مقولتين، أخيار وأشرار، وينبذ بعض الآباء وأحيانا بعض الأمهات، لصالح الاختصاصين الذين تحولوا إلى «آباء أخيار»، وهذا عقاب لصورة الأب الذي أهدرت قيمته، والذي لا حاجة له.

بهذا القانون ينهار مبدأً قدسية سلطة الأب على أبنائه التي تركت لتكون شيئا لا يمس وأصبحت خاضعة لآراء الأمان والمنفعة العامة تحت سلطة الجماعة. وكان الأدب أحد الفضاءات المحظوظة التي تم فيها نشر خطوب الدهر لانحدار وظيفة الأبوة.

ربما كانت مسرحية الأب (أوغوست ستراينديبرغ August Strindberg)(٨) إحدى الأعمال التي تظهر بوضوح كبير الخوف من أن الأبوة لن تكون أكثر من ماهية مجازية، حسابية، وفعلا للغة فارغة.

مع أن الظروف التي كتب الدراماتورغ فيها هذه القطعة خلال شهور كانون الثاني/ ديسمبر وشباط/ فبراير من عام ١٨٨٧ كانت ظروفاً ذات معانٍ كبيرة، كما يستشف من مراسلاته في تلك الحقبة. ففي السادس من

٨ - أوغست ستراينديرغ (١٨٤٩- ١٩١٢- السويد)، روائي وكاتب مسرحي سويدي، عاش حياة حافلة بالإنتاج الغزير وبالأحداث المثيرة والعجيبة وهو من معاصري تشيكوف Chekhov وبه يكتمل الثلاثي الرائد الذي قاد حركة المسرح الحديث منذ أواخر القرن الماضي إلى مطالع القرن العشرين.

شباط من ذاك العام كتب إلى الناشر(البرت بونيير Albert Bonnier)(٩):

" أحدنا لا يختار الثيمة التي سيكتب عنها... الآن وبالضبط تقلقني مسألة حقوق المرأة، ولن أتركها حتى أكون قد بحثت وجربت في هذا المجال. لقد أكملت الحدث الأول عن الأب.»

وقبل هذا بقليل كان قد أكد في إحدى رسائله:» أكتب للمسرح الآن لأنه إذا لم أفعل فستأخذه وسائل الإعلام الزرقاء، فالمسرح هو سلاحي».

المسرحية كما مسرحيات أخرى لـ»ستراينديرغ « هي سيرة ذاتية أو في الأقل تشكل صورة لحالته في الماضي والحاضر، مع أن القسم الأكبر من أعماله ظهر ثانية في روايته التي تعتمد السيرة الذاتية « مديح الأبله».

الأب يفترض الصراع بين كلا المخصبين للذرية السلف /الجد، ليقرر حول مصير ابنتهما، في إخراج مسرحي عنيف «للحرب بين الجنسين»، وقلق على تقدم الأنثوية التي تدافع في مطالبها عن بعض الرجال مثل « آبسن».

يعني مثل صورة تبشيرية مرعبة (كالتي لأبوكاليبس في الإنجيل) عن العقاب الذي يجب إنتاجه من قبل تنقيح في علاقات السلطة بين الجنسين، في هذه الحالة ما يخص ولاية الأب، حيث هو فقط قادر على الاستيعاب كعملية قلب للمصطلحات. يعني مثل فرض سيطرة النساء على الرجال.

القبطان تناسخ شخصية البطريرك المهزوم والذي يجادل عند بداية المسرحية أنه «لست مكتفيا بأنني أعطيت الحياة للطفلة، أريد أن أعطيها روحي أيضا».

هذه الرغبة التي نجدها في الديالوغ مع زوجته، تستند إلى استحضار القوانين التي تحمي وتبرر:

القبطان: القانون يقضي أن تتم تربية الطفلة من خلال إيمان والدها.

لاورا: وهل لا يجوز للأم أن تعطي رأيا في ذلك؟

القبطان: على الإطلاق. لقد باعت حقوقها منذ الولادة من خلال عقد شرعي ولقد تنازلت عن كل أشيائها الخاصة، مقابل أن يقوم الزوج بالإنفاق عليها وعلى ابنائهم.

عند هذا الدفاع عن حقوق الأب، فإن نصوص القانون تكون نصوصا أخرى عندما يتعلق الأمر بتحريره من

٩- الأب ألبرت جيرهارد بونير، ناشر سويدي. نشر كتاباً اعتبر هجوماً مباشراً ضد معظم المجتمع واتهم صديقه ستراينديرج بتهمة التجديف، ولأن ستراينديرج كان مقيما في سويسرا لا يريد العودة إلى السويد كان هناك احتمال أن ألبرت سيتحمل المسؤولية القانونية وربما يحكم عليه بالسجن، ونجح في إقناع ستراينديرج أن يأتي إلى السويد لمحاكمته في خريف عام ١٨٨٤، وتمت تبرئة ستراينديرغ، ولكن الأب ألبرت الناشر تعرض لانتقادات هائلة لكسب المال على مثل هذه الكتابات، واعتبرت الانتقادات موجهة للخلفية اليهودية لألبرت. في فصل الشتاء وربيع عام ١٩٠٠ عانى من مرض السرطان ألبرت ومات صاحب ثاني أكبر دور النشر وبثروة تبلغ ٣,٥ مليون كرونة، ودفن بونير في المقبرة الشمالية في ستوكهولم.

مسؤولياته، هكذا في حالة مربية الأطفال التي حملت من خادم آخر في البيت، فإن القبطان يسترجع النص: «الحكماء يقولون إنه لا يمكن أبدا أن تكون متيقنا في هذا المضمار» ، لكن بهذا النمط اقترح سلاحا على زوجته التي تؤكد «يا للغرابة !!عندها ، كيف يكون للأب كل هذه الحقوق على الإبن؟». ستستخدم «لاورا» هذا اللايقين الذكوري من أجل حث التطور، استحواذ حقيقي عند زوجها. في الواقع حتى هو لا يقدر على أن يكون متأكدا أنه هو الأب الحقيقي لطفلته، بسبب وجود تماثل تناظري ينتج له عدم تحمل، فالمرأة تقدر أن تكون متأكدة من يكون والد أبنائها، لكن الرجل فلا.

الاستحواذ، والجنون، والإنهيار حالات تنشأ في الشك حول الأبوة،» رجل لا يوجد لديه أبناء، النساء فقط تملكن هذا ، فإن المستقبل ينتمي إليها، بينما نحن نموت بلا أبناء». جنون القبطان شيء مجازي استعاري لتدمير الأبوة و الذكورية التي حسب « ستراينبرغ «ستكون تتويجا لانتصار مطالب حقوق النساء والأمهات.

هذا الخطر كما يكشف عنه «ستراينبرغ» يوّلد حسرة ما، يصعب السيطرة عليها، كامنة وراء بناء حفر قضيبي على أنه مخطط لحلم لانتصاب مؤبد و بقدرة رمزية لا حدود لها.

إذا كان « ستراينبرغ « يظهر لنا نموذج التصفية والإلغاء الذي نشأ من خلال مسألة الوظيفة الأبوية، فإن (هنريك ابسن Henrik Ibsen)(١٠) يقلب المصطلحات: التدمير يتأتى، بالنسبة له، من الطابع المتخيل لصورة الأب، والتي مع رفعها إلى الدرجة المثالية العليا تكوّن المسار العكسي لنفي عدم كفايتها أو للتحريف.

في ١٨٨١ في «أشباح» نقرأ أن (إلينا الفينغ Elena Alving)(١١) قد ربت ابنها « Oswaldo " بعيدا عن

١٠- هنريك إبسن (١٨٢٨- ١٩٠٦، النرويج)، حائز على جائزة نوبل للأداب، هنريك يوهان إبسن كاتب مسرحي نرويجي كبير، كان من أهم العاملين على ظهور الدراما الواقعية المعاصرة. يعرف بـ "أبو المسرح الحديث". له ٢٦ مسرحية. اعتبر من أهم كتاب المسرح على مر التاريخ.

١١ - ايلينا ألفين، بطلة رواية أشباح الدراما (١٨٨١) للنرويجي هنريك إبسن. أرملة الكابتن Alving تشامبرلين، وكانت حفلة زواجهما فخمة، وسرعان ما أدركت أن زوجها كان رجلا سيئا بالفعل من الناحية الأخلاقية. كان في شبابه قد حاول الهرب من ملجأ أقامه قس . كان يلوم العروس كثيرا كي يخفي عيوبه قبل الزواج . بعد عشر سنوات من وفاته، وللتخلص نهائيا من "أشباح" الذاكرة، قررت ايلينا بناء رياض الأطفال بالمال الذي ورثته عن زوجها . كان ابنهما أوزفالدو الذي عاش في باريس لمدة عشر سنوات، والذي وضعت عليه هيلين Alving كل آمالها. ولكن سرعان ما عادت "أشباح" الماضي مرة أخرى: كان أوزفالدو يغازل الخادمة ريجين ، لأن ايلينا عرفت أنها كانت في الواقع ابنة مغامرة من زوجها . يكشف أوزفالدو أيضا لأمه أنه كان يعاني من مرض وراثي خطير، والناجم عن مرض والده بالزهري ، والذي سيقوده قريبا إلى الشلل وفقدان الوعي. وتركز الدراما على العلاقة بين الأم والابن الغارقيين في يأسهم، والقصة تصل ذروتها عندما يطلب أوزفالدو من والدته التدخل كي لا يتم تدمير عقله تماما، من خلال مساعدته على التخلص من الحياة غير المجدية عبر إعطائه المورفين.

الوسط العائلي كي تجنبه كل احتكاك وتواصل مع الحقيقة المؤلمة لحياة الحرية المنفلتة التي كان يعيشها والده، وكي تنقل له صورة مثلى عنه.

تخوض " معركة موت وحياة كي لا يكون لأي كان تخمين من أية طبقة رجال كان والد ابني " و كي لا يرث أوسفالدو أيّ شيء منه. من أجل تحييد تأثير الأب, الذي به " أوسفالدو" يتعايش حتى السنة السابعة. "إلينا " غير مؤهلة لسرد ذكريات ابنها، هكذا عندما يقول:" أتذكر أنه في إحدى الليالي دخلت غرفة والدي وكان سعيدا جدا ومنتعشا جدا..."

الأم تجيب :" بخٍ !! لا يمكنك تذكر تلك الفترة" لكن "أوسفالدو" يتشبث:" بلى، أتذكر بشكل تام، لقد أجلسني على ركبتيه ووضع غليونه في فمي، كان يدخن كثيراً ، قال، هيا إنها جرعة جيدة "ودخنت قدر ما استطعت، حتى أحسست بالشحوب، ومن جبهتي كان يتقاطر العرق... عجبا ! عندما رأني كذلك بدأ يضحك بكل هواه..!"

تريد الأم أن تنزع بصدق أي مسرح يؤدي إلى نشوة الأب ، بسبب عدم الدخول في قيمته الرمزية كمسرح للإغراء،مؤكدة أنه " كان مجرد حلم قد رآه أوسفالدو" .

إن محاولة تحويل مسلسل حقيقي إلى حلم يعكس الأمنية الشغوفة لجعل الواقعة حلما لأبوة مشرفة، يرجع " أوسفالدو" إلى المنزل بعد سنوات عدة من الغياب ليحضر افتتاح ملجأ قد أقامته " إلينا " لتكرّم ذكرى زوجها في السنة الثانية لوفاته. لكن المسار المخطط والمقدس للسيدة " الفينك " التي كانت قد ضحت بحياتها كلها لأجله، يفشل، وفي الجانب الآخر يرجع "أوسفالدو" كأنه الطيف .

بالطبع كان قد ورث منه الحالة المزعومة لمرض السفلس" الأولاد يدفعون خطايا الأباء" ومن جانب ثان " لن يبقى شيء يذكر بذاكرة والدي ". الذاكرة التي صارت دخانا هي الوهم المختلق من قبل أمه، وهو نفسه تناسخ الطيف لأب فاجر، حيث امتداده يجر معه حياة الطفل .

الأطياف على أية حال، لا تلمح فقط إلى الوراثة البيولوجية " في دواخلنا لا تجري فقط دماء آبائنا وأمهاتنا ، تقول إلينا، إنما أيضا نوع من فكرة مدمرة ، نوع من عالم ميت. إنه شيء لا يعيش، مع أنه ليس بسبب ذلك ندعه أن يكون في عمق أنفسنا " . تلك الأطياف هي تخيلات مثالية منقولة من أجيال لأجيال، يضحون بأجساد وأرواح الكائنات البشرية من أجل ضمان أبديتهم الذاتية.

المكان الفارغ : معاداة الرواية العائلية

يمكن أن نسأل أنفسنا إذا كانت نواة المرض العصبي المعاصر تتجاوب بشكل حقيقي ، كما يقول « لاكان «. عند انحطاط صورة الأب الذي انتقل ليصبح والدا غائبا أو لا حاجة له ، الأمرالذي يجعلنا نفترض أنه في

مرة ما لم يكن كذلك . أو إذا لم يتم التطرق لاستحالة إقامة الحداد بسب فقدان الأب الذي لم يوجد أبدا، بينما الوالد المثالي الموعود من قبل الخطاب الفلسفي،والديني والعلمي، يكون عاجزا عن إعلان الوهم الذي يشحن الألياف العصبية للرواية العائلية. تماما في متخيل الفرد كما في متخيل الثقافة.

في الواقع إن الرغبة في امتلاك والد مثالي تشكل جزءا من التوق الطفولي لتلك القوة التي ذكرتها فيما سبق، يتم تعظيم الأب من أجل مشاركة ، بشكل أو بآخر، القوة الكبيرة التي تمت إضافتها إليه إكتساباً. أما الفرضية عن الحسرة واللوعة أمام انحدار وظيفة الأبوة فإنها تترجم الصعاب كي تتم الموافقة على أنه لا يوجد أب خالد، وجبار ويخلق تلقائيا من نفسه، إذا لم يكن من الوهم الطفولي الذي يسمح بتحقيق تلك الخصائص عبر تطابق الهوية مع الصورة التي تم رفعها إلى درجة المثالية. من وجهة نظر ما هو اجتماعي، فإن فرضية الانحدار لوظيفة الأبوة تعود على الحسرة . وكان « كلاود ليفورت Claude Lefort «(١٢) قد حددها بـ" الحاجة الطارئة لمكان فارغ « والمرتبطة بظهور عدة أشكال مختلفة للتوتاليتارية.

بالنسبة لـ»ليفورت» هذا المكان الفارغ يحكم تاريخيا بتدمير جسد الملك كرأس للسلطة السياسية. مع تحلل طبيعي للجسد الاجتماعي و فصل الأفراد عن هذا الجسد الذي كانوا قد وجدوا فيه مكانهم الطبيعي.

(جورج بيلينسكي Jorge Belinsky)(١٣) لاحظ أن هذا المكان الفارغ يأخذ وظيفة مشابهة لوظيفة اغتيال الأب الُمولّد في الأسطورة التي خلقها « فرويد «. والذي في حالته ، تكون اللوعة أمام الفراغ ، تقود إلى نشوء ظهور فضاء ما هو ديني ، خالد ، لأمر ما.

يمكننا أن نستخلص أن هذا المكان الفارغ ينشأ كالتالي : منذ أصول جذور الثقافة ومنذ نشوء الإنسانية، ومع صعوبة تحمله، يشدّ الانتباه لتقديس الأب الذي جسده المادي قد استلب بلا عنف من أجل إعادة ظهوره، فيتنقل في خاصته الغيبية،الخالدة . وبمصطلحات « بيلينسكي « فإن الأب قد تم اغتياله لأنه كان عليه أن لا يموت، وبشكل أفضل أن يكون خالداً.

أريد التأكيد على أية حال أنه إذا كان هذا المكان الفارغ يولد حسرة يمكنها أن تقود إلى للتوتاليتارية والى الأصولية الدينية فهي أيضا فضاء يفتح على الملأ، بالقياس الذي فيه فقط ، يكون وجود الفراغ قادرا على

١٢- كلاود ليفورت ١٩٢٤- ٢٠١٠) فيلسوف فرنسي معروف بتأملاته حول التوتاليرية والتي من خلالها قدم في الأعوام ١٩٦٠ و١٩٧٠ فلسفة الديمقراطية كنظام سياسي حيث السلطة هي مكان فارغ غير منتهٍ يتكون دائما حيث تتوتر الافكار والمصالح المتضاربتين.

١٣- (جورج بيلنسكي ارجنتيني ١٩٤١) استاذ نظرية التحليل النفسي في الجامعة الوطنية في روساريو الارجنتين ويقيم في برشلونه

جعل الخلق الثقافي ممكناً، وكذلك الحاجة الطارئة لما هو جديد و مقلق، فقط ، إنكار العثور على غرض المتعة المطلقة يجعل التسامي ممكنا.

من جانب آخر ، الرواية العائلية ، تقدم احتمالا إضافيا لإشباع الرغبة الطفولية لمطلق القوة، كذلك فإن المكان الذي فيه تشغل دور المبتدأ هو مكان المهندس المعماري لماضيها نفسها، كسارد في الحقيقة يعيد خلق تاريخه ويهرب، بشكل متخيل من التحديدات العنيدة التي تؤشر مصيره، إنه هو من يقرر ما إذا كان أصل منشئه يغير معاني الوقائع كي يحقق أن يكون للوقائع معنى .

فإن « ما هو مولد للمنشأ لا يفصح عن نفسه أبدا بطريقة الوجود الخام الغبي وكتمظهر لما هو وجهه وإيقاعه ، يتم الكشف عنه فقط في معالجة ثنائية بما يعرّفه على أنه ترميم، و إعادة تأهيل، من جانب، وبشكل تام استنادا له بوصفه شيئا غير تام ولم ينته بعد من جانب آخر» . من وجهة النظر هذه فإن الرواية العائلية لها قراءة ثنائية.

إذا كانت تفترض نفي الحقيقة الخارجية فإنها تمثل في الوقت نفسه الاعتراف بحقيقة نفسية، وتسييرها في تاريخية الابتداء، وفي الوقت نفسه، تكوّن الآباء والسيطرة الإبداعية المنشأ .

هكذا تتنقل (الرواية العائلية) لتشكل جزءا من السرد الذي ينتجه هو نفسه لخدمة الوهم النرجسي الذي يسعى لنفي وإنكار أنه من المستحيل اختيار الآباء والسيطرة على المنشأ نفسه، وهو ما سيكون مساويا للتوالد الذاتي.

من أجل استعادة جنة الطفولة المفقودة التي لم تعرف أية حدود، من الضروري تجاهل الحقيقة الخارجية التي تكون معيقا أمام تحقيق الرغبات وبشكل خاص الرغبة في كل القوة.

سارد الرواية العائلية يهرب إلى المكان الذي يناسبه في الولادة التناسلية منكرا محددات الزمان والمكان ويمارس الوهم ليكون هو نفسه الأب الجبار الذي لا يموت.

الأدب المعاصر يقدم لنا هذا الوجه الثنائي للرواية العائلية إلى جانب سيطرة المنشأ بقوة فائقة فإننا نلاحظ ذروة المسار التكويني للوهم و صناعة ما يمكن أن نسميه مناهضة الرواية أو النيجاتيف التصويري للرواية العائلية.

المثال الأكثر راديكالية على ذلك يمكن العثور عليه في نصوص السيرة الذاتية لـ(توماس بنهارد Thomas Benhard)(١٤) « سرداب الانعاش، البرد وطفل « المنشورة بين ١٩٧٥و١٩٨٢.

مع أن ترتيب نشر هذه الكتب لا يتوافق مع التسلسل التراتبي للوقائع المروية فالأربعة الأوائل تتنامى

١٤- توماس بنهارد أديب نمساوي من أصل هولندي ولد في هولندا عام ١٩٣١ وتوفي في النمسا عام ١٩٨٩. كتب روايات ومسرحيات عديدة تأثرت بتجربته القاسية لإصابته بالسل وهو لم يزل في التاسعة من عمره. يعتبر كاتباً متشائماً .

وتتطور بين الثانية عشرة والسابعة عشرة من عمر الكاتب. وفقط في النهاية يتراجع إلى طفولته.

لكن إذا كان هذا الترتيب لا يحترم التسلسل الزمني لتاريخية السيرة فإنه في المقابل يدفع ضريبة لمنطق بناء و بحث المنشأ، لاحقا جداً لإجراء تحليل النفس السريري.

يمكن القول إن هذه النصوص الصعبة الإغلاق على جنس، هي أكثر سرداً من غالبية روايات الكاتب، بمعنيين على الأقل يشكلان مناهضة للرواية العائلية ونفهم من ذلك بشكل واضح قراءة جديدة للرواية العائلية التي تستعرض جدليتها على الخلق الإبداعي و التدميري.

في المقام الأول لا يبدو أن «بنهارد» يصل إلى إشباع كل القوة النرجسية للطفولة من خلال تحقيق سرد الرغبة في الحب أو السعادة ولتكن ما تكن إشاراتها إنما من خلال اشكالوية راديكالية يكون لها قيمة تدميرية تطابقية. وهو نفسه يؤكد أنه ليس بـنّاءً للتواريخ إنما مهدما للتاريخ ...

سرده لا يسعى لخلق عالم من الخطاب يقدر على أن يجنبه اللذة لما قد رآه خصوصيا في لقائه مع حقيقة قاسية من طراز خاص، إنما المتعة لتصفية ذلك الذي قاده إلى حافة تصفيته الذاتية بنفسه بشكل أساس عندما لم يكن قد تم الاعتراف به من قبل والديه الأكثر قرباً، باستثناء العزيز جده لأمه وأبوه الذي هجر أمه ولم يعترف أبدا بالطفل ويسميه» الرجل غير المرئي» الوصي زوج الأم لكنه أبدا لم يمنح شرعية للطفل، إنه ذلك الفاقد للوعي، الوعي المختار من قبل الآم «.

الفراغ الذي تركته هاتان الصورتان الأبويتان، صورة غائبة أو غير موجودة و الثانية لاحاجة لها، واللتان أنكرتا تبوء مكانة الأبوة، فلقد تم شغله من قبل الجد «الشخصية الوحيدة التي أنارتني، الأولى، الأكثر أهمية، والوحيدة «(طفل ص٧٣).

بالنسبة لـ»بنهارد « الجد هو المعلم « حكيم جبال Ettendrorf « ومع ذلك هذه الصورة المثلى ليست فقط من قبل « توماس» إنما من قبل كل العائلة لها مستند واقعي متناقض» كان أنانياً غير قادر على العمل مع الجماعة وبالتالي ليس خدوما لأي عمل أو وظيفة. وحتى الخامسة والخمسين لم يفز بشيء. كان يعيش على حساب زوجته وابنته، اللتين كانتا تؤمنان به بلا تحفظ، وفي النهاية أيضا بحفيده «(ص٦٠).

وفيما يخص الأم يقول بنهارد: «.. حب أمي لي أنا الابن الشرعي، كان يبدو مخنوقا دائما بسبب حقدها على والد هذا الإبن...هذا الحب المتبادل !. وبينما كانت أمي تتابع حياتها، كان النكد واضحا في تطورها بسبب تلك الروح الخبيثة، وغير المرئية بالنسبة لي « (ص٣٥) . « كان ابنها شبحاً غولاً لم تكن تطيقه، ابن للماكينة ، ابن للشيطان» (ص٤٥).

لهذا يتناسخ بشكل خاص مع السمات الأكثر قتامة في تجربتها العائلية ، وهنا علينا أن ننتبه عند أخذ

البيانات بصيغة مطلقة،لأن معانيها تعتمد على متن وتغيرات ثيمة العلاقات مع الأم أو مع الجد، فتتناول درجات ألوان الطيف الواسعة من التحسينات المؤثرة والمبدئية . « لكن ، مرة وثانية أضرب كل الأوتار ، كي أكون قادرا على اسماع كل الجهاز العائلي، عزفت عليها جيداً أو سيئاً، يستحقون أن لا أسامح أوتارهم، فالمليئة بالتنافر تثيرني دائما أكثر من الأوتار الأخرى»(طفل ص٧٣)

مع ذلك ، السلبية لا تتقلص على توسيع تنافر عائلته كمعاداة للعائلة، «..هذا الوتر المحلول ،العائلي ،الذي يتأرجح بشكل دائم وممدود من غير «دوزان» على هاوية ،والحقيقية أنه قاتل دائما... كنا عائلة سيرك ، كانت ترقص على الوتر المحلول، اذ لم يكن يسمح أبدا ،ولا لحظة واحدة ،أن يتم النزول عن ذلك الوتر، حيث التمارين كانت تؤدى بشكل عسير يوما بعد يوم «(ص٤٠). اندفاع في الشكل الطبيعي سيكون معناه الموت . وأكثر وضوحا :» العائلة، التي لم تكن عائلة أبدا ،لأن كل شيء في هؤلاء الأشخاص كان ضد مفهوم العائلة دائما ،وخلال كل الحياة ، كان اجتماعا لأقارب بالرابطة الدموية... تسعة أشخاص لم يتمكنوا أن يروا بعضهم ولا يتطاوقون، وكانوا فقط ينتظرون من أمي ومن زوج أمي أن يتوكلا بحياتهم.

(القبو، ص٥٩)

على هذا المنوال ، بعيدا عن فبركة رواية عائلية أخاذة ، يتقدم « بنهارد « في الاتجاه المعاكس ليس ضد صياغة الوهم إنما في اتجاه اللاوهم، يرفض» التجميل والتوهين المسموح به» ويتخذ مرارا طريق التعابير المفرطة كي ينتبه لما كان يحس به ويفكر في طفولته ومراهقته :» لا يوجد آباء بالمطلق يوجد فقط مجرمون مثل منجبي الكائنات الجديدة،الذين يؤدون ذلك(ضد هؤلاء الكائنات التي تم إنجابها من قبلهم) بكل لا عقلانية وتوحش» (المنشأ ص٧٩)

نحن منجبون ، لكن غير متعلمين، على الرغم من كل ذلك ، أو ربما بفضل ذلك ، فإن نصوص السيرة الذاتية لـ»بنهارد « تأخذ بالحسبان بنائية ذاتيتها وتطور قدرتها على التسامي، أولا في المناخ الموسيقي، ولاحقاً فيما هو أدبي: أبعد كثيرا من أفكاره ومحاولات الانتحار التي طبعت طفولته ومراهقته، إنها تجربة الموت الحقيقية، في الحرب، في المشفى، في عائلته ذاتها، الأمر الذي يجبره على أن يتخذ القرار في العيش بشكل خاص، أن يحيا حياته ذاتها ، وهذا بالنسبة له كان سيعني أن يكون قدره كاتبا.

إن فانتازيا الانتحار، والإنسحار بالموت ، تمثلان رفض وجود الغائي إبادي باتجاه تشريفي، والبحث عن الحقيقة ،أولا في تفكيره ، وثانيا في الكتابة ، إنها بحث عن نفسه ذاتها، لكن إذا كان هو نفسه ذاك الذي عوضه، وذاك الذي عوضه يكون حقيقة (شخصي، عائلي، اجتماعي).

مدمر بشكل كلي،الإلغائية فقط لهذا التدمير ستجعل من الممكن تأكيد الفاعل ككائن يحيا، أي مرغوب فيه، التأكيد كفاعل يعني بالنسبة لـ»بنهارد» أن يتساءل عن أصول منشئه وأن يتخذه كغرض للبحث

تماما كما فعل (مونتين Montaigne)(١٥)، وهذا يأخذنا الى المعنى النهائي لمناهضة الرواية العائلية عند « توماس بنهارد»، ربما الأكثر تجليا ووضوحا، مع أن كليهما يتحركان في وحدة واحدة في ذاتيته الكتابية .

«بنهارد» يرفض أيضا الكلية الروائية، السرد المتحقق، كتابته تقطيع ، ويعطي نموذجا لعمل الإعادة حيث يتم فيه مزج الشيء نفسه مع ما هو مختلف بشكل من الخيارات التي من خلالها، ولأكثر من مرة تعود الإشارات نفسها في حالة توليفها بأشكال مختلفة و بتدرجات متباينة، وتقدم الموديل للمعنى وتخلق مؤثرات جديدة من حيث المعنى، « الكمال ليس ممكنا في أي شيء - يقول بنهارد - كي لا يتم الحديث عما هو كتابي وبشكل أقل عما هي ملاحظات كهذه ، التي تتركب من آلاف وآلاف القطع الصغيرة من احتمالات التنكر ،هنا تتواصل مع مقاطع من نتف، ولا شيء يذكر « .

لا يوجد أكثر من نتف لأننا محكومون بتشكيل آخرين ،الذين يطرح عليهم السؤال حول أصول منشئنا، والأسئلة تبقى لمرات عدة بلا إجابات، وأخرى لا تصل ربما إلى أن تفصح عن نفسها تلقائيا، « هم منعوا هذه الأسئلة ، وانتظروها مع أنهم كانوا يخشونها ، ولم تكن شحة في الأساليب كي لا يطرح السؤال ، لقد عثروا عليها ، فلقد رحلوا عن العالم ،في النهاية ،من غير أن يقدموا إجابة لي « (طفل ما ص ٧٥).

وبينما كانت عائلته تعيش ، كان توماس الطفل يطرح أسئلة بشكل متواصل، لكن لم يكن يحصل على إجابة أبدا، وإذا كانت هناك إجابة فلقد كانت كذبة، غير مقنعة، كذبة خالصة ووقحة ..» أنا كنت ساذجا بشكل كامل لأصدق أنه كان بالإمكان أن أنتظر من كل واحد منهم حكاية والتي فيما بعد، وفي رأسي كان لها أن تحتشد، أن تؤلف وتركب تاريخي الشخصاني هذا كان خطأي « (ص ٧٤).

إنه من المستحيل أن نملأ بحيرات لتاريخه وبشكل أساس فيما يخص الأب غير المرئي الذي اسمه لم يكن لينطق حتى في البيت، « للعيش في عدم اليقينية هذه ، فلقد تعودت ، مما تعودت عليه، أن أعتمد فقط على الافتراض..» (البرد ، ص ٦٨).

البحث عن ماضيه، البحث عن ذات نفسه، الذي يتطلب كشف السر العائلي ينفرض عليه كاحتياج من أجل أن ينجو بحياته من أجل وجوده الذاتي. لكن نهاياته لا ترحم في اللا شفافية ولا يمكن تجاوزها .

(كيف كان كل ذلك حقيقة، كنت أسأل نفسي بشكل تراتبي زمني وفتحت كل ما كان معلبا وموثوقا بإحكام، رويدا رويدا .. الحرب ونتائجها، مرض جدي، موت جدي، مرضي، مرض أمي، اليأس من كل ما يخصني، شروط حياتهم المضنية، وجودهم بلا أمل، ثم أعدت كل شيء الى التعليب وأعدت ربطه. لكن لم

١٥- ميشيل دي مونتين ١٥٣٣- ١٥٩٢) أحد أكثر الكتاب الفرنسيين تأثيرا في عصر النهضة الفرنسي. رائد المقالة الحديثة في أوروبا .

أقدر على ترك تلك المعلبات والمربوطة بإحكام ، كان علي أن أحملها معي مرة ثانية وما أزال حتى اليوم أحملها وأحيانا أفتحها وأبطلها لأعود وأصنعها ثم أربطها وفيما بعد لا أعرف أكثر مما كان من قبل ولن أعرف أبداً، وهذا ما يجعلني مكتئبا) (ص ٦٠).

«بنهارد» يقدم نفسه حينئذ كرهينة لمهمة مستحيلة، على الرغم من قوله « .. بجهدي فقط تحملت الضبابية، الظلمة، الصحراء». (طفل ما ص ١٠٧).

« اعتقدت أنه كان عليَّ أن أنقذ كل شيء من النسيان ، أن أخرجه من عقلي وأن أنقله إلى أوراق الكتابة ..» (ص ١٣٣.)

إنه يعلم أنه كلما جهد في الكتابة فإنه يمكن أن يكوّن فقط « محاولة اقتراب يائسة « إلى الهدف حيث « كل ما يمكنه الاتصال فقط يمكن أن يكون تزييفا و شكلا من الغش « (السرداب ص ٣٧)، لكنه يفرح بقيمة الصواب التي تتضمنه مع الصواب الذي يكشفه الكذب على اختلاف النقاد الذين يتفاجأون عندما يعثرون على براهين لزيف مقدم في حكاياته ذاتية السيرة .

في الواقع لا أعتقد أن « بنهارد « يمكن أن يحد نفسه ويكون راضيا بالصواب / الحقيقة التي تم تأملها من قبل الكذب، لكنه يمسح التزييف والغش كي ينقل حقيقة ذاتية تذهب أبعد من معطيات حقيقية.

إذا كانت الحقيقة ليست تواصلية ،يمكن الأخذ بالحسبان إرادة الحقيقة لما يكتب، الكتابة تسمح له أن يضع بشكل قاطع إرادة الحقيقة هذه وأن يدعم فراغ جهل المنشأ الذي لا يمكن انقاذه.

بهذه الطريقة ، اذا كان جيدا التأكيد على أن الرواية العائلية تفتح بعدا للمبتدأ ، فإن الهوية لخلق السردي هي هوية تم أسرها من قبل الأسطورة التي يقدمها ما هو متخيل اجتماعي، بينما الأم التي تم تقليصها إلى الوظيفة الطبيعية هي الشيء نفسه الذي تم تعويض الأب فيه بصورة مقدسة، والتي تقفل مكان المولد بسبب الفشل النرجسي المولد الأصلي. - ما يمنع البحث عن البدائل التي ستفتح الطريق إلى مسخ الأمومة-

أوراق الذاكرة

رفيق العمر وصديق الخير
ذكريات عن الشّاعر سميح القاسم

محمد علي طه

لا أذكر الأمر الذي أشغلني في تلك الأيّام، فمرّ شهر أو شهران ولم نلتقِ. وقد كنّا نلتقي يوميّا أو أسبوعيّا. وفي ضحى أحد الأيام هاتفني صديق مشترك لنا وقال بلهجة مغموسة بالأسى: "صديقنا مريض، سميح مريض بذلك المرض!." فأربكني. "ذلك المرض" اسم شائع ومتعارف عليه للمرض الخبيث الذي يخشى النّاس ذكر أسمه. ماتت سمّاعة الهاتف في راحتي. ونشف ريقي. غادرت البيت ولم أخبر زوجتي، على غير عادتي، بجهة سفري وميعاد عودتي. ولو أخبرتها لأصرّت على أن ترافقني فسميح صديق للعائلة. وأولادي يحبّونه. "عمّو سميح أبو مُحَمّد". وعندما يزورنا يتحلّقون حوله مستمتعين بحديثه الشجيّ. ويؤكدون لي على أنّه يختلف عن جميع أصدقائي من الأدباء والشعراء.

قدت سيّارتي إلى الرّامة. إلى البيت الشّامة على عنق جبل حيدر. كم جلسنا به وأكلنا وشربنا وتحاورنا وتناقشنا واتّفقنا كثيرا واختلفنا قليلا.

وجدته يجلس على سرير بسيط في غرفة صغيرة من غرف البيت الكبير، قريبة من المطبخ ومن أمّ العيال ومن الدّيوان. ابتسم حينما شاهدني فصافحته وجلست على كرسيّ مقابل له ولم أساله: كيف الصّحة أو كيف حالتك أو ماذا جرى لك؟ مرّت دقائق ونحن صامتان وفجأة قال ببساطة وكأنه يقول لي خبرا عاديّا: اكتشف الأطبّاء ورمًا خبيثا عندي!! قلت:سلامتك.... وعدنا إلى الصّمت .. الصّمت الناطق.

أنا لا احبُّكَ يا موتُ.

لكنّني لا أخافُك .

وأنت صغير عليّ.

وبحري تضيقُ عليه ضفافُك.

أخبرني صديقي نبيه القاسم عندما خرجنا من غرفة سميح ومن بيته أنّ الأطبّاء المختصّين يتوقعون بأن يعيش ثلاثة أشهر فقط. وطلب منّي أن نجلس معا، في الغداة، لنتشاور في ترتيبات الجنازة حتى لا يفاجئنا موتُه كما فاجئنا مرضُه. ولكنّ سميح القاسم عاش ثلاث سنوات وثلاثة أشهر وهو يصارع المرض بشجاعة:

إشرَب فنجان القهوةِ

يا مرضَ السّرطان

كي اقرأ بختك في الفنجان

إشرب!

حينما انطلقت "مواكب الشّمس" في خريف العام ١٩٥٩ مبشرةً بميلاد شاعر ما كانت أجهزة الهاتف وخطوطه يومئذ قد وصلت قرانا في الجّليل بفضل سياسة واحة الدّيمقراطيّة فأرسلنا رسالة بالبريد العاديّ من بلدة كفرياسيف الجليليّة حيث كنّا ندرس في ثانويّتها الى قرية الرّامة نصّها ثلاثة فتيان يحبّون الأدب ويخربشون قصائد وقصصًا ويقرأون بشغف دواوين علي محمود طه ونازك الملائكة وأبي القاسم الشّابّيّ وروايات عبد الرّحمن الشّرقاويّ وتوفيق الحكيم فجاء الرّدّ سريعا من صاحب "المواكب" يدعونا إلى زيارته في رامته فسافرنا بالمواصلات العامّة: محمود سليم حسين درويش وسالم يوسف جبران والضّلع الثّالث الباقي حيًّا يرزق من أضلاع ذلك المربّع الثّقافيّ الجميل يردّد "ذهب الذين أحبّهم"، ومنذ ذلك اللقاء حتّى آب ٢٠١٤ غابت ستّة وخمسون عاما. سنوات عامرة بالأحداث السّياسيّة وبالثّورات وبالانتصارات وبالانتكاسات، عامرة بالإبداع وبالعطاء وبزرع الورد والقمح النّورسيّ، وبالأمل والحبّ. ومنذ ذلك النّهار توطّدت بيننا صداقة حميمة وصفها سميح القاسم بمقطوعة أدبيّة جميلة بعنوان "في الصّداقة ومحمّد علي طه" نشرها في مجلّة الشّرق التّي كانت تصدر في مدينة شفاعمرو ويحرّرها د.محمود عبّاسيّ في عدد تكريميّ خاصّ بي.

وهذا هو النّصّ:

"واعلم أيّها الأخ العزيز، أيّدك الله وأيّانا بروح منه، أنّ الأشخاص عوالم مؤتلفة على اختلاف، مختلفة على ائتلاف، تجتمع على قيد شعرة إذا هي اجتمعت، حتّى لكأنّ قيد الشّعرة باحات من الفضاء وساحات النّور. أمّا إن هي افترقت حدّ شفرة فانّ فراسخ ظلمةٍ تحيط بالبصر وتحيق

بالبصيرة، فإذا سنبلة الودّ خواء والعرى الوثقى قبض ريح..

وأمور الأشخاص مرهونة بذواتها، وذواتها سُدُلٌ مغلقةٌ وغيوبٌ مطبقةٌ، ومهما يكن من وهمك في إدراكها فإنها تؤثر الحُجُب، وتستر العلّة والسّبب، في حالات الرّضا والغضب، وتركن إلى أسرارها موزّعةً بين جذب ودفع في دوّامة من منازع الخير ونوازع الشّرّ.

وصداقة الأشخاص مشروطة بصدق النّوايا، فإذا غاب الصّدق بطلت الصّداقة، واختلطت نواهي العقل بنهايات العاطفة، وغلت في غلوّها الغرائز، وتفتّقت أسباب الوصل، واستحكمت النّميمة، واستعظمت الخيبة، واحتقنت الحضرة فوق احتقان الغيبة.

وأمّا بعد،

فقد كلّفني بعض الصّحب مشكورين – واستجبت شاكرا – بكتابة سطور من الرّأي والوجدان في واحد من أصدقاء العمر ورفاق الخير هو الكاتب المُجيد والصّديق القديم الجديد محمّد علي طه، وقد واكب شكرَ التّكليف عنتُ التّصريف، فما أنا ممّن تغريهم الكتابة عن صديق رحل وغاب، وسهل فيه الرّصد والحساب، فكيف تطيعني هذه حين يكون موضوعها صديق يقبل على الحياة وتقبل عليه كأنما عاشقان في فاتحة العهد وذروة الوجد؟

لعلّ ثلاثة عقود من عمر صداقتنا هي دورٌ في زمننا الحديث وكورٌ في طبيعة العلاقات البشريّة الرّاهنة. وعليه فانّ قسمات المعرفة قابلة للإحصاء بكلّ ما فيها من تجاعيد التّنافر ومرايا الصّفاء. وإذا كنت ذات يوم بعيد قد لخّصتُ أبا عليّ بالتّعبير الصّارم الجّازم: هو كاتب جيّد وصديق رديء.. فانّني ذاهبٌ إلى القول في هذا اليوم: هو صديق جيّد وكاتبٌ جيّد، دون حرج من مساءلة، أو حرص من الوقوع في المجاملة.

وعلى مرّ عهدي به لاحظتُ براءة "خُبثِهِ" المدنيّ المصنوع وبراءة براءته الصّادرة عن قرويّ مطبوع، وإنها لنقطة تسجّل حتمًا لصالح الرّجل، فهو لو يستنكف عن مظاهر الحداثة وطفرات الحداثيّين، بيد أنّه لم ينغمس في لعبة الأقنعة ولم يستسلم لغواية الافتعال بل ظلّ لصيقا بالجذور طليقا بين مقالع النّور، مولعا بعبق النّعناع، وأريج الحبق النّاصع، وفوح الميرميّة الرّائع، وبوح الزّعتر اللاذع.

وبهذا يكون أبو عليّ قد حقّق المعادلة وألغى المفاضلة بين الكاتب الحقّ والإنسان الحقّ. وبهذا يكون أبو عليّ قد وفّق بين صدق الإبداع وطيب الطّباع. وبهذا يكون أبو عليّ قد هيّأ لي ولسائر الأصدقاء أنّ نقرّ به عينًا، ونصفو فيه ذهنًا، ونشاطره فرحًا، ويقاسمنا حزنًا، ولهذا نتمنّى له طول العمر وفيض الخير ودفق البِشر، واجدين فيه حسن العزاء عن أصدقاء الظّاهر، خصوم الباطن، الذين تهيّأوا ظنًّا وتكشّفوا بلا معنى.

بوركت يا أبا عليّ. بورك أهلُكَ ونَسلُكَ. وبنعمة من لدن الله تمضي والى سابغ نعمه تفضي. وعلى صراطك المستقيم تسلُك وعلى صراطنا المستقيم نسلك، إلى يوم يتقابل البصران أعشى وحديد، ويوم تأتي كلّ نفس ومعها سائق وشهيد. وسلام الله عليك ورحمته وبركاته لك ولنا.. ربِّ استجب لدعائنا وارفق بأصدقائنا وامنُن بالعفو عن أعدائنا يا أرحم الرّاحمين.. آمين!"

سميح القاسم

رفض الشّابّ سميح القاسم حلم العائلة وتقليدها بأن يكون موظّفًا يعيش متنعّمًا ويحيا مسالمًا بل حمل صليبه وقصيدته طيلة ستّة عقود متحدّيًا أعداءه القوميّين والفكريّين والطّبقيّين الذين أجاعوه أيّاما وأعواما والذين قيّدوه أشهرا وسنوات كي يسكتوه إلا أنّه أعلن منذ طفولته وهو في قطار اربد – حيفا في العام ١٩٤١ في أثناء الحرب العالميّة الثّانيّة: أبدا لن أصمتَ. صوتي سوف يزعجكُم ويقلقكم ويخيفكم ويقضّ مضاجعكم. صوتي صياح الدّيك المبشّر بالفجر يستنهض النّيام. صوتي سلاح الشّعب في قطار الحياة المتحرّك أبدا إلى الأمام حتّى أعود إلى حفرة على سفح جبل حيدر.

ورفض سميح القاسم أيضا التّجنيد الإجباريّ الذي فرضته السّلطة الإسرائيليّة على الطّائفة العربيّة المعروفيّة وحينما حاولوا تجنيده بالقوّة هرب من البيت ومن القرية ولجأ إلى عدّة أماكن. جاء اليّ واختبأ عندي في بيتنا لمدّة يومين ثمّ انتقل إلى أماكن أخرى ولكنّهم تمّكنوا من اعتقاله وسجنه في العام ١٩٦٠ وكانت هذه تجربة السّجن الأولى. وفي غرفة التّوقيف النّتنة المعتمة يجري هذا المونولوج "معركتك ليست شخصيّة فحسب، أنت تعلم أنّهم لن يعدموك ولن يحكموا عليك بالسّجن المُؤبّد. تستطيع المكوث في السّجن العسكريّ لأيّام أخرى أو لشهور وحتّى لسنوات. أنت معنيٌّ بتوعيّة النّاس بأنّ التّجنيد الإجباريّ ليست مسألة عسكريّة فالصّهاينة لا يحتاجون إلى بضعة جنود عرب لحسم الحروب. إنّها مسألة سياسيّة قبل كلّ شيء. إنّها فقرة من برنامج فرّق تَسد. وأذرعة الحكم العسكريّ تحاصرك بتهمة الشّيوعيّة في مجتمع محافظ متديّن وفي بيئة شديدة التّخلف." وهذه التّهمة كانت قبل أن يكون سميح القاسم شيوعيّا بسنوات عديدة، ويحقّ لنا أنّ نتخيّل معنى هذه التّهمة وخطورتها في قرية عربيّة صغيرة وبين أبناء الطّائفة الدّرزيّة وفي عائلة تقف على رأس هرم الزّعامة القرويّة، أبناؤها وبناتها موظّفون، وكلّ ذلك في زمن الحكم العسكريّ البغيض وظلم حزب المباي الحاكم.

توطّدت علاقتي بسميح بعدما استقال من مجلّة "هذا العالم" بسبب موقف سياسيّ وطنيّ وعمل في صحيفة "الاتّحاد" الحيفاويّة وسكن في مدينة حيفا. سكن سميح في عدّة بيوت في حيفا، في شارع

عبّاس وفي شارع الكرمة وفي درج الموارنة وفي شارع يافا وفي شارع الياهو هنفي قرب ساحة الحناطير التي تسمّى اليوم ساحة باريس، ولمّا تزوّج عاد إلى الرّامة وسكن مع أهله في بيتهم القديم، وبعد سنوات بنى بيتا جميلا على سفح جبل حيدر وسكن فيه مع زوجته وأولاده. هذه البيوت أعرفها جيّدا. وكم استضافني في البيوت الحيفاويّة في أيّام العزوبيّة وكم سهرنا فيها.!

كنت ألتقي به وبمحمود درويش في نهار يوم الجمعة في مكاتب "الاتّحاد" في وادي النّسناس وكنّا نذهب معا إلى "مطعم إسكندر" أو "مطعم الأمم" أو مطعم آخر صغير في شارع الخوريّ ونتناول الحمّص يقدّمه لنا النّادل حسين الطّرعانيّ أو رجب الصّلح الحيفاويّ، وكان راتبه لا يكفي ولا يسدّ مصروفات شابّ حتّى لو عاش مقتّرًا في حين أنّ سميح كان كريمًا سخيّا.

ذات يوم شكا سميح ومحمود أحدهما للآخر جيوبه الفارغة فسخر منهما زميلهما ورفيقهما الصّحافيّ الدّمث علي عاشور وقال: نحن بجوار سوق الخضار والفواكه. عبّئا صحّارة من البلاستيك أو صندوقًا خشبيًّا بمختارات من شعركما الحديث وانزلا إلى السّوق فقد تبيعان شيئا يوفّر لكما ثمن وجبة غداء. اقترح محمود يومئذ على سميح أن يستدينا من رفيقهما وزميلهما الصّحافيّ محمّد خاصّ مبلغا من المال فوقفا معا أمام محمّد خاصّ الجالس على كرسيّه وراء طاولته في مكاتب "الاتّحاد" وأنشد سميح :

يا محمّدُ، يا أميرًا، يا ابن من كانت وتبقى.

أبدَ الدّهر أميرة.

أعطنا خمسين ليرة!!

نظر محمّد خاصّ إليهما شزرا وقال: أنا فقير مثلكما فانصرفا عنّي! فقال سميح القاسم:

يا محمّد، يا شهيرا، يا ابن من كانت وتبقى.

أبد الدّهر شهيرة.

أعطنا أربعين ليرة!

فقال محمّد خاصّ بحزم: أغربا من أمامي!

قال سميح القاسم:

يا محمّد يا كبيرا، ويا ابن من كانت وتبقى

أبد الدّهر كبيرة

أعطنا ثلاثين ليرة!

فقال محمّد خاصّ:أغربا عن وجهي. أنتما تستدينان منّي ولا ترجعان لي شيئا. انصرفا من هنا.

وهنا هتف سميح القاسم:

يا محمّد،

يا فقيرا يا ابن من كانت وتبقى

أبد الدّهر فقيرة

أعطنا عشرين ليرة!

وهنا قال محمّد خاصّ: معي عشر ليرات خذاها وأمري لله.

وعندما استفسرا عن هذا التّحوّل المفاجئ من زميلهما قال: بعد قافية أمير وأميرة، وشهير وشهيرة، وكبير وكبيرة، وفقير وفقيرة، لم يبق الا حقير وحقيرة، فقرّرت النّجاة بجلدي وبجلد أمّي.

ولعلّ ما حدث معهما مع المحامي حنّا نقّارة يلقي ضوءاً آخر أسطع وأقوى على حالتهما الماديّة القاسيّة.

كان حنّا نقّارة المحامي الوطنيّ المثقّف، محامي الأرض والشّعب الذي غنّت له النّساء في منطقة الشّاغور في الخمسينات:

طارت طيّارة فوق الليّه

الله ينصركوا يا شيوعيّه

حنّا نقاره جاب الهويّه

غصبن عن رقبة بن غوريونا

"والليّه" هي منطقة بين عكّا والشّاغور وأمّا بن غوريون فهو أوّل رئيس حكومة في إسرائيل.

وكان حنّا نقّارة محبّا للأدب وللشّعر ويعتزّ بأنّه تلميذ الكاتب اللبنانيّ مارون عبّود وأنّه صديق الشّاعر أبي سلمى. وكانت تربطه بسميح القاسم ومحمود درويش وتوفيق زيّاد وعصام العبّاسيّ علاقات متينة (وربطتني به علاقة قويّة) وكان يدعوهم أحيانا إلى بيته للطّعام والشّراب.

يقول سميح القاسم: ذات ظهيرة سأل صليبا خميس وهو صحافيّ شيوعيّ ترأسّ لسنوات تحرير صحيفة "الاتّحاد" وتحرير مجلّة "الجديد" الثّقافيّة: أين سنتغدى اليوم؟ قالا: لا مطاعم اليوم فلا نقود معنا اليوم.

قال صليبا: أمس ربح حنّا نقّارة قضيّة دسمة وعلينا أن نتغدّى على حسابه. وقد كلّمته بالأمر فرفض مدّعيًا أنّه متعبٌ ويريد النّوم. واقترح أن تبتزّاه شعريًا، وأنتما تعلمان أنّ أمّ طوني، زوجة حنّا نقّارة تتضايق كثيرا من الاسم "فاطمة" لانّ زوجها حنّا نقّارة كان كثير الادّعاء بأنّ الفنّانة المصريّة فاطمة رشدي أعجبت به كثيرا في شبابه، وعلى سبيل التّريقة ادّعى أبو طوني أنّ زوجته طردت خدّامة أحضرها لها لا لسبب سوى أنّ اسم تلك الخدّامة كان فاطمة.

اتّصل سميح ومحمود هاتفيًا بحنّا نقّارة وقالا:

يا أبا طوني ألا تذكرُها	دعوةً وجّهتها من قبل عام
يوم أقسمتَ بأن تُدخمَنا	بألذّ الخمر في أشهى الطّعام
فلماذا صرتَ لو أبصرتنا	بجوار البيت أسرعتَ تنام
انشغالٌ وهمومٌ يا أخي	أم قضايا؟ أم ترى تخشى المدام؟
لو ترى واحدنا "فاطمة"	كنت تسخو بحلال وحرام

تعامل أبو طوني، حنّا نقّارة، مع هذا الابتزاز بالمنطق الهادئ فلم يشأ أن تستمع زوجته لهذا الكلام وقال بتسامحه المشهود وبكرمه المعهود: اختارا المطعم الذي تريدان شريطة أن تسلّماني مخطوطة القصيدة قبل الطّعام.

وفي الطّريق إلى المطعم دَعَوَا كلّ من صادفهما من جياع وادي النّسناس على حساب حنّا نقّارة. وقبل الطّعام تسلّم أبو طوني المخطوطة لكنّه لم يفطن وهو الفطين إلى أنّ الشّاعرين حفظا أبيات القصيدة عن ظهر قلب ليعودا إليها ذات جوع قادم. وهذا ما حصل كما يقول سميح القاسم في مذكّراته.

عندما كان سميح القاسم محرّرا لمجلّة "الجديد" الثّقافيّة الشّهرية في بداية السّبعينات من القرن الماضي نشر فيها معظم قصص مجموعتي القصصيّة "جسر على نهر الحزين" ما عدا قصّة واحدة فقط هي قصّة "اللجنة" نشرتها "الجديد" عندما كان محرّرها محمود درويش، وعندما علم سميح أنّني أودعت المجموعة في مطبعة كلبونة في نابلس لإصدارها على حسابيّ الخاصّ اتّصل بي وعرض عليّ إصدارها بدار "عربسك" التّي أسّسها في تلك الأيّام وكانت الدّار قد أصدرت يومئذ باكورة إصداراتها رواية "المتشائل" للكاتب إميل حبيبي، وحينما وافقت على شروطه المغريّة في تلك الأيّام صمّم سميح الغلاف، فقد كان يهوى الرّسم، وكتب التّظهير وصدرت الطّبعة الأولى من المجموعة بألفي نسخة.

وعندما كنت محرّرا أدبيّا لصحيفة "الاتّحاد" في مطلع الثّمانينات من القرن العشرين حدث حصار بيروت الشّهير، فلأوّل مرّة تحاصر إسرائيل عاصمة عربيّة، وتحاصر منظمّة التّحرير الفلسطينيّة، قيادتها وكوادرها، والعالم العربيّ صامت، والعالم الغربيّ راضٍ. وفي عصر أحد الأيّام وكان الحصار يزداد ضراوة والطّائرات الإسرائيليّة تقصف بيروت الغربيّة بحممها جاء سميح إلى "الاتّحاد" يحمل قصيدة طويلة وناولني إيّاها وطلب نشرها في الملحق الأدبيّ في عدد يوم الجمعة القادم. قرأت القصيدة فوجدتها رائعة. تشاورت مع الكاتب إميل حبيبي، رئيس التّحرير فاقترح أن ننشرها على الصّفحة الأولى من الجريدة حيث الأخبار الهامّة، وهذا الأمر سابقة في الجريدة، ومن الطّريف أن أحد عاملي المطبعة وهو شيوعيٌّ قديمٌ وأصيلٌ اتّصل بي محذّرًا ولائمًا كيف أجيز نشر قصيدة فيها نقد للاتّحاد السّوفييتيّ وكيف يساوي الشّاعر الشيوعيّ بين متحف الارميتاج ومتحف اللوفر؟ فأجبته بأنّ القصيدة جيّدة جدّا وما عليه إلا أن يصفّها. فردّ: لن أصفّ القصيدة وسوف أشكوك إلى رئيس التّحرير. أخبرته بأنّ رئيس التّحرير هو من قرّر نشرها على الصّفحة الأولى فضرب كفًّا بكف وهو يقول "بدأ الخراب!" ورفض أن يصفّ القصيدة فقام عامل آخر من عمّال المطبعة بذلك.

كنت شاهدًا على ميلاد عدّة قصائد لسميح فقد كنّا في أحد الأيّام في زمن الانتفاضة الأولى نشارك في مظاهرة في القدس ضدّ الاحتلال الإسرائيليّ وحينما كنّا في شارع صلاح الدّين (سميح وإميل حبيبي ونبيه القاسم وأنا) تعرّضنا لقنابل الغاز، وفي هذه الأثناء كان تلاميذ المدارس المقدسيّون عائدين من مدارسهم إلى بيوتهم، فراحوا يرجمون جنود الاحتلال بالحجارة المخبّأة في حقائبهم المدرسيّة وهم يهتفون "كديما كديما... يا أولاد الكلب كديما" وكلمة "كديما" العبريّة تعني إلى الأمام أو تقدّموا ومن هنا بدأت قصيدة سميح "رسالة إلى غزاة لا يقرأون" :

تقدّموا تقدّموا
كلّ سماء فوقكم جهنّمُ
وكلُّ أرضٍ تحتكُم جهنّمُ
تقدّموا
يموت منّا الطّفل والشّيخ ولا يستسلمُ
وتسقط الأمُّ على أبنائها ولا تستسلمُ
تقدّموا بناقلات جندكم، وراجمات حِقدكُم
وهدّدوا وشرّدوا ويتّموا وهدّموا

لن تكسروا أعماقنا

لن تهزموا أشواقنا

نحن قضاءٌ مبرمُ

تقدّموا.

انتسب سميح القاسم إلى الحزب الشّيوعيّ في أثناء عدوان حزيران ١٩٦٧ وهو معتقل في سجن الدّامون وكتب قصائد ذات بعد ماركسيّ لينينيّ كما كتب قصيدة عن لينين وقصيدة عن غورباتشوف وقصيدة عن ماير فلنر. (السّكرتير العام للحزب الشّيوعيّ الإسرائيليّ) ودرس الماركسيّة في المدرسة الحزبيّة في موسكو في السّبعينات. كان ماركسيّا لينينيّا أُمميًّا ولكنّه مثل عدد غير قليل من الشّيوعيّين العرب لم يكن ملحدا بل كان مؤمنًا بالله وبالأنبياء وقد أسميتُ هذا النّوع من النّاس "مؤمناً علمانياً" وأُعجِبَ سميح بالتّعبير وصار يستعمله. ويظهر إيمان سميح في قصائد عديدة كما يظهر تأثير المذهب الدّرزيّ عليه في ديوان "سبحة للسّجلات" وفي قصائده عن أبي ذرّ الغفاريّ. وفي فترة ما راودته فكرة النّبوّة واتّفق مع الرّئيس الجّزائريّ أحمد بن بللا في لقاء في باريس بعد إطلاق سراح بن بللا على تأسيس مذهب دينيّ جديد وعصريّ واتّصل سميح بي بعد عودته إلى البلاد عارضًا عليّ أن أكون ثالثهما ودار بيننا حديث طويل وحوار عميق هادئ أحيانا وساخن أحيانا أخرى. وقد قال لي يومئذ فيما قاله: "كان هارون عضدا لموسى، وكان يوحنّا مساعدا لعيسى وكان سلمان الفارسيّ سندا لمحمّد فلماذا لا تقوم بهذا الدّور؟" وقال أيضا سنبدأ بمجموعة صغيرة ثمّ تتطوّر وتتوسّع. هكذا بدأت الدّيانة المسيحيّة والدّيانة الإسلاميّة. وفي تلك الفترة كتب كتاب "الإدراك" الذي يبشّر برسالته النّبويّة. وهذا الكتاب لم يُثر أي نقاش ولم يكتب أحد عنه أبدا على عكس مجموعاته الشّعريّة.

في إحدى زياراته لربوع الاتّحاد السّوفييتيّ زار جمهوريّة جورجيا وعاصمتها تبيليسي وزار مسجدا يكتب عنه في مذكّراته "أمر الخليفة معاوية ببنائه يوم أرسل جنوده لحماية جورجيا وأرمينيا من جيوش بيزنطة ومطامعها (أنا أشكّ في هذه المعلومة التّاريخيّة. م.ع.طه) وأصرّ معاوية يومئذ على أن يُبنى المسجد خارج حدود المدينة كي لا يزعج الجنودُ العربُ (لا يكتب الجنود المسلمين.م.ع.طه) سكّان البلد المدنيّين. أبدى إمامُ المسجد أسفه لانعدام المصليّن. ورأى سميح صندوقا معلّقا على الجدار وعلم أنّه للتّبرّعات لصيانة المسجد وترميمه وتأثيثه. يقول سميح: "أصابتني قشعريرةٌ. المسجد ليس مجرّد مكان للصّلاة. ليس بيتا آخر من بيوت الله. انّه قطعة حيّة من تاريخي وروحي وشرفي القوميّ وثقافتي وحضارتي" ويُخرِجُ الشّيوعيّ سميح القاسم كلّ ما معه من نقود، ولم يكن

كثيرا، ويضعه في الصّندوق ويصافح الإمام ويحاول إخفاء دموعه. وينتقده المسؤولون الحزبيّون السّوفييت المرافقون له : أنت علمانيّ. فلماذا يهمّك مسجدٌ بناه الخليفة؟ عليك التّخلّص تمامًا من الرّواسب الدّينيّة والقوميّة. ويرفض الشّاعر الشّيوعيّ معارضا الإكراه الدّينيّ والمحو الحضاريّ ويخوض نقاشا فكريّا معهم يصل إلى درجة انتقاده لستالين الذي ألغى الحرف العربيّ واستبدله بالحرف السّلافيّ في جمهوريّات آسيا الوسطى.

اختلف سميح القاسم مع قيادة الحزب الشّيوعيّ في قضايا فكريّة في بداية التّسعينات. وكنّا يومئذ عضوين في اللجنة المركزيّة للحزب. حاولت يومئذ أن أكون وسيطا بينه وبين المكتب السّياسيّ للحزب كي يبقى سميح عضوا في الحزب فنقلتُ مواقف الطّرفين محاولا جسر الخلاف فالتّوفيق. وكان قادة الحزب توفيق طوبي وتوفيق زيّاد وغيرهما حريصين جدّا على بقائه في الحزب. وكان توفيق زيّاد يرى بأنّه شرفٌ للجنة المركزيّة للحزب الشّيوعيّ أن يكون سميح القاسم عضوا فيها.

وافق زيّاد على طلبات سميح القاسم ومنها نشر مقابلة فكريّة معه في صحيفة "الاتّحاد" يطرح فيها موقفه من الفترة الحرجة في تلك الأيّام، ومن القضايا الفكريّة والسّياسيّة التّي واجهتها الحركة الشّيوعيّة يومئذ كما وافق توفيق طوبي أيضا على ذلك. ولكنّ أعضاء آخرين بالمكتب السّياسيّ للحزب رفضوا ذلك، وقد اتّصل بي الشّاعر سالم جبران، عضو المكتب السّياسيّ للحزب ورئيس تحرير صحيفة "الاتّحاد" يومئذ وقال لي بأنّه يرحّب بنشر مقابلة مع سميح القاسم عن شعره وأدبه. رفض سميح ذلك وكتب كتاب الاستقالة من الحزب وجاء إلى مكتبي في مجلّة "الجديد" التّي كنت رئيس تحريرها في تلك الأيّام وناولني إيّاه كي أنقله إلى توفيق طوبي وبقيَ في حقيبتي عدّة أيّام ثمّ أعطيته لطوبي. وعلى الرّغم من استقالته من الحزب بقيَ صديقا لدودا للحزب وكنتُ وإيّاه – على الرّغم من استقالتي أيضا من الحزب – نكتب معا في كلّ معركة انتخابيّة نداءً للنّاخبين العرب كي ينتخبوا قائمة الجبهة.

أذكر أنّ سميح القاسم دعانا مجموعة من الأصدقاء الأدباء والشّعراء للقاء مع الصّحافيّة المصريّة الأميركيّة سناء حسن في بيته في حيفا في أوائل السّبعينات. وكان اللقاء غير وديّ إلى حدّ ما وأذكر أنّ المؤرّخ والمفكّر د.إميل توما انسحبَ بعد فترة قصيرة من بداية اللقاء معبّرا عن اشمئزازه من أفكارها. لقد كتب النّاقد المصريّ د.غالي شكري عن هذا اللقاء في كتابه ولكنّه لم يكن دقيقا وقد حمّل اللقاء ما لا يحتمله.

ولم يكن سميح القاسم عاديّا في تسميته لأبنائه فقد حدّثني أكثر من مرّة وذكر ذلك في مذكّراته "إنها مجرّد منفضة"، ذات يومٍ رافقه د. نبيه القاسم لتهنئة الكاتب العبريّ عاموس كينان بمولد

طفلته البكر. وكانت تربطه بكينان الكاتب والصّحافيّ التّقدّميّ علاقة قويّة. سأل سميح عاموس: ما الاسم الذي منحتموه للمولودة؟ فرّد عاموس: أنت تعلم أنّني طيلة حياتي وأنا أناضل من أجل السّلام لذلك أطلقت على طفلتي الأولى هذه اسم "شالوم تسيون". فوجئ سميح بالشّطر الثّاني من الاسم المركّب. شالوم تسيون؟

يقول سميح : شعرت بالتواء في أعماقي فقلتُ له : أنا سأتزوّج قريبا يا عاموس وسأنجب ولدا اسميه "وطن محمّد" ويتزوّج سميح وينجب ولدا ويكتب "عندما ذهبت إلى مكتب تسجيل السّكّان في عكّا سألني الموظّف: ما اسم المولود؟ - وطن محمّد . – وطن محمّد؟ وماذا يفعل موسى وعيسى؟

بدا من لهجته عراقيّ الأصل فأجبته : عيني. أغاتي. وهل أنا موظّف في وزارة الإسكان مهمّته إسكان الأنبياء والرّسل؟!

وأمّا ابنه الثّاني فاختار له الاسم "وضّاح" وتعرفون قصّة الشّاعر وضّاح اليمن الشّهيرة وأمّا الابن الثّالث فاسماه عمر. وسميح مسلم درزيّ والدّروز فرعٌ من الشّيعة والخليفة عمر ضوء أحمر للشّيعة، وأمّا الابن الرّابع فحمل اسم "ياسر" احتراما وتقديرا لياسر عرفات وذكر سميح أنّ أمّه، أي أمّ سميح هي التّي اختارت هذا الاسم.

كان سميح لا يقرأ لأصدقائه ما يكتبه وما ينظمه، وحدث مرّة أن قال لي: اخترتُ عنوان "وما قتلوه وما صلبوه" للمجموعة الشّعريّة الجّديدة فقلت: وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبِّهَ لهم. فوافقني وأضافها إلى عنوان المجموعة. وحينما كنت محرّرا أدبيّا لصحيفة الاتّحاد في السّنوات ١٩٨٢-١٩٩٠ أشغل سميح القاسم منصب نائب رئيس التّحرير لفترة قصيرة وحدث أن كان الكاتب إميل حبيبي غائبا في خارج البلاد فانتظرنا وصول سميح في أحد الأيّام لنتشاور معه ونأخذ توجيهاته بالنّسبة لعدد الغدّ من الجّريدة . وصل سميح متأخرا وصعد الدّرجات إلى مكتبه وبعد دقائق شاهدناه يحمل حقيبته وينزل من المكتب ليغادر البناية فسألناه إلى أين أنت ذاهب؟ وماذا مع اجتماع هيئة التّحرير؟ وماذا مع عدد الغدّ؟ فالتفت إلينا وقال: لا تتدخلوا بها وأنا على ثقة من أنّ "الاتّحاد" ستخرج لوحدها. وغادر البناية وتركنا نضحك وشرّ البلايا ما يضحك.

زرنا معا عدّة دول مثل: اليونان، وتشيكوسلوفاكيا والأردن ومصر وسوريا. وفي زيارتنا لسوريا في العام ١٩٩٧ تناولنا في أحد الأيّام طعام الغداء مع أعضاء الوفد ومع المضيفين في مطعم في الزّبداني وجاء نادلٌ يرتدي الملابس العربيّة السّوريّة التّقليديّة وصبّ لنا فنجانين من القهوة السّادة فشربناهما بمتعة. أعدتُ فنجاني للنّادل وشكرته على القهوة العربيّة الأصيلة ولمّا أعاد سميح فنجانه تناوله النّادل ورماه بقوّة على الأرض فهشّمه. استغربنا ذلك التّصرف فلاحظ محافظ المدينة ذلك

فجاء إلينا وقال: هذا التّصرف معناه حرام أن يشرب أحد بعدك من هذا الفنجان! وفي أحد الأيّام وبينما كنّا نسير معا أنا وهو في شارع دمشقيّ اعترض طريقنا شرطيّ وأدّى التّحيّة العسكريّة وبدا يلقي قصيدة من قصائد سميح عن ظهر قلب. فكاد سميح يطير فرحا.

كان نقاشنا يحتدّ أحيانا في مواضيع سياسيّة وأدبيّة وعندما وضعت على طاولتي قبل أيّام مؤلفاته العديدة وبدأت أقرأ اهداءاته لي تذكّرت نقاشنا حول بعض قصائده ورواياته. يكتب على إحدى المجموعات "إلى محمّد علي طه هذه المجموعة أفضل ما في الشّعر العربيّ على الرّغم من أنفك" ويكتب على مجموعة أخرى "إلى محمّد علي طه كاتب جيّد وصديق رديء" واهداءات أخرى عديدة فيها محبّة وتقدير فتذكّرت نقاشنا في تلك الأيّام قبل صدور أو بعد صدور كلّ مجموعة شعريّة أو رواية. كانت لي ملاحظات على روايته الجميلة الصّغيرة "إلى الجحيم أيّها الليلك" وكذلك على رواية "الصّورة الأخيرة في الألبوم" وذات مرّة كنّا في سيّارته أنا وصديقي نبيه القاسم عائدين من المركز الثّقافيّ البلديّ في النّاصرة بعد ندوة أدبيّة فقال ونحن نتناقش حول رواياته: كتب ناقدٌ أنّها أفضل الرّوايات العربيّة. فسألته: من هذا النّاقد المحترم؟ فأجاب: ناقدٌ معروف من مدينة غزّة. فقلتُ : يبدو أنّ هذا النّاقد لم يقرأ رواية غيرها. وضحكنا.

كان سميح القاسم يحبّ شِعره كثيرا ويرى أنّه الشّاعر العربيّ الأول في العصر الحديث وكنت من خلال علاقتي به أشعر بأنّه لا يغار من أيّ شاعر اخر اللهم الا من صديقه ورفيقه محمود درويش واليوم وقد غادر الشّاعران الحياة أقول بثقة وبصدق أنّ أيّا منهما لم يستغب الاخر أمامي ولم ينتقده الا أنّ بعض الشّعراء والأدباء حاولوا إذكاء نار الفتنة بينهما. وكنت أجتهد دائما على أن أكون على بعد واحد منهما فكلاهما صديقي ورفيقي. وقد كتبت مقالا عن "البحر في شعر محمود درويش والصّحراء في شعر سميح القاسم" كما كتبت مقالا مقدّمة للكتاب الذي ضمّ قصيدتيهما "عابرون في كلام عابر" و "غزاة لا يقرأون" ولم أتفاجأ عندما كتب محمود درويش في اهدائي نسخة من مجموعته الشّعرية "لا تعتذر عمّا فعلت" الى صديق العمر محمّد علي طه مع محبّتي. وهذا ما كتبه سميح في رسالته اليّ ولكن لأنّ محمود درويش عاش في الغربة منذ العام ١٩٧١ أصبحت له مكانة خاصّة عندي وهذا ما أوقعني في ورطة مع سميح القاسم في احدى المرّات. فقد عاد الكاتب اميل حبيبي من الخارج في العام ١٩٨٣ وجاء الى مكتب "الاتّحاد" في وادي النّسناس بمدينة حيفا وفي جيبه شريط مسجّل بقصيدة محمود درويش " مديح الظلّ العالي" التي ألقاها في المؤتمر الوطنيّ الفلسطينيّ في الجزائر. ناولني اميل الشّريط وقال لي "تصرّف فيما تراه مناسبا" وعندما عدت الى بيتي استمعت الى القصيدة وبالقاء محمود الجميل فاخترت مقاطع منها ونشرتها على صفحة كاملة من صفحات "الاتّحاد" الكبيرة في ذلك الوقت وكتبت في الجانب الأيمن من الصّفحة عامودا كاملا

اطراء للقصيدة وجاء فيه "أهلا بك يا شاعر الشّعراء". وغضب سميح من ذلك وأظنّ أنّ هذه الجملة كانت السّبب في قوله عنّي "كاتب جيّد وصديق رديء" والذي تراجع عن شطره الثّاني فيما بعد.

في صيف ١٩٥٥ أخبرني طبيب العائلة بأنّني مصاب بداء السّكريّ فتضايقت نفسيًا لعدّة أيّام ثمّ صادقت الدّاء وتفاهمتُ معه فلا أتجاوز حدوده ولا يعتدي عليّ. علم سميح بنزول هذا الضّيف الثّقيل في جسدي فجاء من مكتبه في صحيفة "كلّ العرب" في مدينة النّاصرة ليعودني في بيتي في كابول. صافحني وقدّم لي هديّة عبارة عن زجاجة عطر فاخر وعلبة من حلويات النّاصرة الشّهيّة. وابتسم وهو ينظر الى الهديّة واليّ وسألني: ها... ماذا تقول الهديّة يا أبا عليّ؟ فقلتُ على الفور: شُم ولا تذوق! وتعانقنا.

وكان من عادته أن لا يقبّل رجلا بل كان حينما يعانقك يمدّ خدّه اليك لتقبّله.

وكنت أعامله بالمثل فيضحك مرّات ويبتسم مرّات أخرى.

اعتاد أبنائي أن يقولوا لي مازحين لي أنّ هناك "وشّة" أو "زمزمة" في رأس كلّ واحد من أصدقائي الشّعراء، ماعدا عمّو سميح. وحدث أن ماتت زوجة أخي وهي شابّة وجاء سميح مع أقارب له لتقديم واجب العزاء للعائلة، وبعد أن استقبلناهم بالتّرحاب، وبعد أن سمعنا العبارات التي تقال في هذه المناسبات سأل سميح عن سبب موتها فقلنا له مرض السّرطان. فقال:هذا شيء عظيم. أن يموت الإنسان نتيجة سبب كبير شيء مهمّ ومحترم. مثلا أن يموت أذا دهسه قطار أو سقطت طائرة به أو استشهد في معركة. وطبعا هذا موت محترم أن يموت بالسّرطان.

نظر أولادي إليه باستغراب مدهوشين في حين أنّه تابع: إذا مات الانسان بسبب كبير فهذا محترم وأمّا أن يموت لسبب تافه فهذا بهدلة. تصوّروا مثلا أن يتزحلق في الحمّام ويموت.!!

وبعد أن غادر سميح ورفاقه بيت العزّاء قال لي أحد أبنائي: يبدو أنّ عمّو سميح مثل بقيّة الشّعراء.

حاولت في هذه الصّفحات أن أختصر صداقة خمسة وخمسين عاما في صفحات معدودة فهل توفّقت؟

راجعت هذه المادّة لأنقّحها وفي أثناء قراءتي لها فرّ الدّمع من عينيّ عندما اكتشفت أنّني كتبت عن سميح وعن محمود وعن توفيق وعن حنّا وعن سالم ..... ذهب الذين أحبّهم. وبعد دقائق ابتسمت حينما تذكّرت المثل الشّعبيّ "أعوذ بالله من شابّ إذا تغرّب ومن شيخ مات أجياله أي مات مجايلوه" فهل أنا الشّطر الثّاني من المثل؟

سامحوني.. سامحوني..!!

الفنان عبد الحي مسلم .. لكل لوحة قصة

بديعة زيدان

بدأ الفنان الفلسطيني عبد الحي مسلم الرسم في العقد الرابع من عمره، بدأت الرسم في العام ١٩٧١، يقول عبد الحي مسلم، أنا رجل عسكري عملت في سلاح الجو الاردني ما بين العامين ١٩٥٥ و ١٩٧٠، ثم غادرت الاردن على اثر احداث ايلول الى سوريا ثم الى ليبيا، حيث عملت خبيراً في سلاح الجو بعد أن أرسلتني حركة فنح الى هناك مع مجموعة من المهندسين والطيارين والفنيين.

كان ميلي للفن واضحا في كافة مراحل حياتي والساحات التي خدمت فيها، إلا أن الاخوة في حركة فتح أرادوا أن أكمل عملي في ميكانيكا الطائرات.. وعندما بدأت العمل الفعلي في مشروعي الفني، لم يكن التوجه واضحا بالنسبة لي، لم يكن عندي أية دراية او دراسة مسبقة، ولكني لاحقا أدركت ان القتال من خلال الفن لا يقل اهمية عن القتال على الجبهة فللفن رسالة سامية وكبيرة اذا سخرت بالشكل الصحيح، واذا تم دعمها لتخدم قضية كالقضية الفلسطينية، وخاصة اذا وجد الفنان مؤسسة تهتم به وبفنه، إلا أنني لم أجد تلك المؤسسة فكانت جهودي فردية بحتة فاجتهدت وسعيت وبنيت علاقات خارجية بجهد فردي مني.

للحديث المتدفق والتلقائي لمسلم متعة خاصة، فهو ينتقل بك من موضوع إلى آخر، دون مقدمات، ولكن دون أن يفقدك عنصر التشويق في حكاياته .. في منزله بحي جبل القصور بالعاصمة الأردنية عمّان، كانت تجاعيد وجهه، والحشرجات التي تشارك الكلمات مساحتها في حنجرته ترسم لوحات من نوع آخر، لوحات تنبش في الذاكرة.

"أنا لست أهم من الشهداء، لست أهم من الشهيد الذي يحمل السكين وهو مدرك تماما أنه سيقتل.. أنا من جيل كان مقتنعا تماما بما يفعل ومقتنعا تماما بالقتال في سبيل قضيتنا، وكان هدفنا فلسطين فقط، حيث انني تركت خلفي زوجة وسبعة اولاد لالتحق بالثورة في سوريا ... تركتهم

في معاناة حقيقية وكما قال المثل "احنا غزينا والعذارا تشوفنا" .. عانت زوجتي معي حيث أنها انتقلت بالاولاد السبعة الى سوريا ثم الى ليبيا وكانت رحلتها صعبة جدا، ثم من ليبيا إلى الاردن".

في مطلع سبعينات القرن الماضي، بدأت رحلتي الفنية، وبدات ألمس اهمية ما اقوم به وجدواه، فبدأت أركز على عملي الفني ورسالتي.

الدوايمة

طفولتي، كانت في قرية الدوايمة غرب الخليل.. كانت بعيدة كل البعد عن الفن.. كان تفكيري من الصغر ينصب على القتال وحلمي ان اكون مقاتلاً، وما دفعني في عمر متأخر نسبيا الى الفن، أو بمعنى أدق أن مسيرتي الفنية كانت أقرب الى ردة فعل عنيفة، وتعبيرا عن غضب داخلي بعد انتقالي إلى ليبيا، وبعد أن تم ابقائي في مهمة اصلاح الطائرات.

معارض

علاقاتي كانت واسعة شملت السويد وفنلندا والنرويج وفرنسا وأميركا ولبنان وغيرها العديد من الدول التي اقمت فيها معارض فنية، فردية او ضمن جماعات وعبر شراكات مع موسسات او فنانين عرب وعالميين.

في لبنان كان معرضي الأول العام ١٩٨٢ في منطقة الفاكهاني، كنت اعمل على الرصيف، اعمالي كنت انجزها على الرصيف، واعرضها على الرصيف ايضا.. كنت اضع سلاحي بجانب المقعد الذي اجلس عليه، واصنع لوحاتي، ما اثار انتباه الصحافيين الى هذا الفنان الذي يصنع لوحاته من مواد بسيطة وعلى الرصيف بدون اي دعم مادي.. بعد الحصار انتقلت الى تونس ونقلت لوحاتي معي كنت احمل لوحاتي اينما اذهب فهي اغلى ما املك.

اما معرض صبرا وشاتيلا، فتم بتعاون ياباني.. كان لي صديق صحافي ياباني كان هو اول من دخل صبرا وشاتيلا بعد المجزرة مباشرة.. في يوم قصف شديد استمر ١٤ ساعة، وبعد هدوء القصف نزلنا الى الشوارع فوجدت لعبة في الشارع حملتها معي كانت اللعبة مليئة بشظايا القصف.. وضعتها في معرضي وكتبت حتى لعب الاطفال لم تنج من القصف ما لفت اليها العديد من وسائل الاعلام ومؤسسات حقوق الانسان.. طلبتها مني مؤسسة يابانية واخذت العمل حتى انها لم تعده إليّ حتى الان.

معرض الرصيف هذا لفت انتباه الكثيرين، وقد زارني الشهيد القائد ابو عمار مرتين، ولدينا صور

كثيرة معه .. لم تجمعني مع السياسيين اية علاقة .. كانت كل علاقاتي مع فنانين وكتاب ومثقفين، حيث انني انشغلت بعملي الفني.

مع محمود درويش

لم تربطني بمحمود درويش علاقة قوية، اذ كان ضمن الطبقة الاولى اما انا فكنت من الطبقة الاقل حظا، الا ان محمود درويش زارني برفقة إسماعيل شموط، زارا المعمل الخاص بي، واحضرا لي غراء ونجارة للعمل.. وكانا مستغربين كيف اعمل تحت القصف، كان ذلك في العام ١٩٨٢ في بيروت.

كانت اشعار محمود درويش تستفزني للعمل، وخاصة ما يتعلق بصبرا وشاتيلا، كانت أشعاره تحرضني على العمل، حيث كنت أحول القصيدة للوحة فنية، وخاصة الحزن في القصيدة .. ارسم الحزن والظلم في القصائد، وبما اننا شعب ضحى كثيرا، وتألم اكثر، فقد كان انتاجي غزيرا بغزارة الالم الفلسطيني .. كنت اشتري بكل ما في جيبي غراء، ونشارة للعمل، واحيانا اقتطع من مصروف ابنائي لأعمل.

غراء ولوحات وأفلام

قبل الهجرة كان لنا جار نجار كنت اجلس عنده اراقبه كيف يعمل، ومنه استقيت فكرة الغراء والنجارة، حيث كان يستعمل هذا المعجون في سد الثقوب في الخشب.. كنت في البداية ابرد الخشب واستعمل المسامير، واعمل كتل بالغراء لأشكل بها ما يشبه المنحوتات/ تماثيل.. في البداية كنت اصنع كتلاً صغيرة، ومن ثم بدأت محاولاتي في تكوين لوحات تضم عدداً من الشخوص لتشكل شيئاً ما مثل العرس الفلسطيني، مثلاً، حتى وصلت لاستخدام الاغاني والاشعار والامثال الشعبية الفلسطينية في لوحاتي.

نشارة الذهب هو اسم الفيلم الذي اخرجه المخرج محمد مواسي وهو فلسطيني يعيش في المانيا حضر خصيصا لرؤية الاعمال وتنفيذ فيلم حول تجربتي وحول اعمالي، ومن قبلها كان مخرج فرنسي أنجز فيلماً عني وعن اعمالي.. الكثير من الافلام رصدت حياتي واعمالي الفنية.. شعرت بالاهتمام من الجميع خارجيا إلا أن الاهمال لي ولأعمالي كان من المؤسسة الفلسطينية، وها هي لوحاتي واعمالي التي يتجاوز عددها ٣٠٠ لوحة مركونة في مخزن لا يصلح لذلك في جبل القصور بعمّان، ولا يوجد اي اهتمام من اية جهة فلسطينية رسمية، .. الفنان دون دعم لا يستطيع، لان ذلك يحتاج إلى امكانيات كبيرة.

أقسام

أحببت ان اترك مسلم، الذي تجاوز التسعين عاماً على سجيته، فلم أقاطعه، وإنما كانت لي بعض التدخلات، ولذا يبدو الحوار، وإن كنت من طرح غالبية الأسئلة، منساباً أحياناً، ولربما مشتتاً، ففي كل مرة سأعيد ركل الكرة باتجاه مسلم، الذي قال: أقسم عملي الى اربعة اقسام: قسم عن مذابح ارتكبت بحق الشعب الفلسطيني، وقسم عطاء الشعب الفلسطيني، والثالث التراث والفلكلور من اغاني شعبية ولباس وغيره، والرابع عن جزء من حركات التحرر العالمية مثل جنوب افريقيا والسنغال ونيكاراغوا.. من خلال اسفاري وتنقلاتي تعرفت على حركات تحرر وقوى داعمة لنضال الشعب الفلسطيني، وشكلنا فريقاً باسم عدد من الدول الاسكندنافية- وانا عضو مؤسس في هذه المجموعة، والوحيد بينهم فلسطينيا وعربيا.. في سوريا اصبح الوضع سيء، واصبح نقل اللوحات اكثر صعوبة.

محلياً

لم يتم تنظيم اي معرض لي في الاراضي الفلسطينية، الا انني فرحت بتكريمي من قبل ادارة متحف محمود درويش بالجائزة التي تحمل اسمه، حتى لو جاء هذا التكريم متأخرا، ولكن أن ياتي متاخرا أفضل من أن لا يأتي أبداً.. في فلسطين طاقة فنية وثقافية جميلة جدا وفعالة.. شعرت انني عوضت قلة الاهتمام بي محلياً من خلال معارضي التي تم تنظيمها عالميا.. اشتغلت سنوات طويلة، وانا محسوب على حركة فتح، لم يطبع لي بطاقات تعريف، ولم يطبع اي بروشور حتى.

الحلاج ودحبور

مصطفى الحلاج تعرفت عليه في العام ١٩٧٩، وتعرفت على احمد دحبور عن طريق مصطفى الحلاج في احدى السهرات، وكلنا تجمعنا في ضيافة مصطفى الحلاج، وكان من اصدقائنا خالد ابو خالد، ويحيى يخلف ايضا، وقد حضر الى معملي والقى نظرة على لوحاتي وصور جزءاً منها واخذ الصور الى ماجد ابو شرار.. قال لي خالد ابو خالد اننا سننظم مؤتمراً في بيروت، وارسلوا لي دعوة، وهناك تعمقت علاقتي بمصطفى الحلاج الذي توفي حرقاً، وقد كان خبر وفاته صادماً لي ولغيري، لأنه كان فقيراً، لكنه شخص رائع وصديق صديقه فعلا.. الحلاج ودرويش واسماعيل شموط كلهم خسارة للفلسطينيين جميعا.

وضع حي

توقفت عن العمل من سنة تقريبا حيث انني لم اعد استطيع النزول للمرسم.. وضعي الصحي ونظري لم يعودا يساعداني.. لوحتي عن الشهداء: شهداء الانتفاضة الاولى، اخذت مني ستة أشهر من العمل، وكانت اللوحة عبارة عن متر في ٨٠ سم، وهي تعتبر من اللوحات الكبيرة حجما واهمية في لوحاتي.

كنت اعمل في خمس او ست لوحات في نفس الوقت، فالافكار تكون قد هجمت علي في نفس الوقت، وكنت اقوم بعمل الملامح المهمة للوحة، ثم انتقل للوحة ثانية ثم ثالثة، وكنت انتهي في وقت متقارب جميعها معا.. كنت، وبينما اعمل في لوحة معينة واستمع الى الراديو ولمغن معين، وخاصة اذا كان مغن عراقي مثل الياس خضر أو شاعر مثل مظفر النواب.. اترك اللوحة وانتقل الى أخرى مباشرة.

اذا كنت اجلس مع ضيف قادم من الضفة الغربية وبينما يروي قصة معينة عن مهاجمة الاسرائيليين لقرية معينة كنت اقوم بعمل لوحة ترصد ما تحدث به ضيفي مباشرة.. كنت اعتمد كثيرا على اهل الضفة واحاديثهم.

كثير من الأمور كان بودّي أن أقوم بها، ولم يسعفني الوقت، فالمرض كان أسرع.. أتمنى الاهتمام الاكبر بالجيل الجديد من فنانين ومثقفين فيوجد بينهم العديد من المواهب المهمة.

واعترف مسلم: لا اعرف ان امسك القلم وارسم وجهاً، على سبيل المثال، او اي شي، فأنا لست قادراً على التشكيل المباشر بالغراء والنشارة.. لا ارسم الطبيعة ارسم تراثا فقط.

موهبتي فطرية

وختم: لا استطيع تقييم الفن بشكل تحليلي اكاديمي، لأن موهبتي فطرية لم تأت عبر الدراسة، ولم اصقلها بدراسة، بل اشتغلت لوحاتي بأحاسيسي، فكنت اعمل ما اتأثر به، واشكل لوحاتي دون رسم، اشكلها مباشرة بالغراء والنشارة مباشرة على اللوحات، فمثلا لوحة زفة العروس على الجمل، ونساء ورجال باللباس الفلكلوري، ولكل لوحة قصة.

دور السينما في القدس .. "كان زمان" !

يوسف الشايب

استطعت ذات مرة أن أضم بين يديّ النسخة الأصلية لإعلان يتعلق بحفلين لـ"الآنسة أم كلثوم"، في مسرح سينما عدن بالقدس، مع تفاصيل الأسعار وفق ثلاث درجات: أولى، وثانية، وثالثة وبأثمان ما بين ٣٣٠ و٥٣٠ ملاً، في التاسعة مساء من الثامن والتاسع من شهر تشرين الأول (أكتوبر) دون تحديد العام، مع ترجيح أن يكون في عشرينات القرن الماضي، وبالتحديد في عام ١٩٢٨.

ليس المهم، في معرض حديثنا عن دور السينما في القدس، هنا، تفاصيل حفل "فنانة الجماهير ومطربة الشرق الوحيدة"، بقدر البحث عن سينما "عدن" في القدس، التي اختلفت المراجع النادرة حول تاريخ تأسيسها، فهناك من قال إن تاريخ إنشائها يعود إلى العام ١٩١٤ في حين تحدثت مراجع أخرى عن عام لاحق أو عامين، وإن لم يختلف الباحثون، على قلتهم، بأن مؤسسها مصري، دون ذكر اسمه، وبأنها هي ذاتها سينما "أوديون"، كما كان يطلق عليها البعض.

وعلى ما يبدو فإن دور السينما الأولى في القدس ارتبطت بالمصريين، حيث أشارت دراسة وحيدة إلى أن أول دار سينما في فلسطين، كانت في القدس، وأسسها مصري لم يذكر اسمه، وهي دار "أوراكل"، وتأسست في عام ١٩٠٨، مع أن دراسات أخرى تحدثت عن سينما في حيفا أنشئت على يد بعض الألمان، وحملت اسم سينما "عين دور".

وبرز الاستثمار في دور العرض السينمائي بشكل بارز في ثلاثينات القرن الماضي، وفي العديد من المدن الفلسطينية، آنذاك، وخاصة حيفا ويافا والقدس، ومنها سينما "ركس" التي تم تحويلها إلى دار عرض سينمائي على يد ميشيل صيقلي، بعد أن استأجر مبنىً كانت تملكه البطريركية الأرثوذوكسية، ومعها انتشر موزعو الأفلام في فلسطين، سواء أكانت أفلاماً مصرية بما فيها أفلام الفلسطينيين الأخوين لاما، أو الأفلام الأميركية، حتى إن صيقلي كان لا يكتفي وشركاه من الموزعين بالعرض في دور السينما بما فيها "السينامات" في القدس، بل العرض في "كامب" للجيش البريطاني يدعى "سيدني سميث"، حيث كانت

تذكرة الفيلم الواحد للجندي خمسة قروش، وللضابط عشرة قروش.

ويشار إلى أن الفيلم المصري الأول الذي عرض عبر صيقلي كان فيلم "ابن الصحراء" من بطولة الفلسطيني بدر لاما عام ١٩٤٢، وتتالت الأفلام المصرية بعدها، خاصة بعد زياراته المتكررة إلى القاهرة والاسكندرية، حيث كان يبتاع نسختين من كل فيلم، واحدة لعرضها في فلسطين، والثانية في الأردن.

أما د.أحمد صدقي الدجاني ، فإنه يعود إلى أوراق مذكراته ليستعيد بعض التفاصيل عن العروض السينمائية التي كانت تتمّ في فلسطين قبل العام ١٩٤٨، وذلك من خلال تجربته الشخصية، فذكر أنه غالباً ما كانت ترتبط مشاهدته العروض السينمائية بالأعياد الإسلامية والمسيحية، وأن هذه الأفلام التي غالباً ما كانت أفلام مغامرات وخيالات وإضحاك، وهو طقس استغرق تقريباً طيلة القرن العشرين، ويذكر من الأفلام الأجنبية" طرزان، وشيتا، وسابو، وأفلام لوريل وهاردي، والأخوة جروشو، وسبنسر تراسي، وكاترين هيبورن، وسيدني بواتييه، كذلك حضرت في ذاكرته أفلام مصرية، كان أبطالها من أمثال بدر لاما، وفؤاد الجزايرلي، وعلي الكسار، وبشارة واكيم، وشرفنطح، وحسن فايق، ومحمود شكوكو، وإسماعيل ياسين، ونجيب الريحاني، ويوسف وهبي، وفاطمة رشدي، وعزيزة أمير، وأم كلثوم، وأسمهان، وليلى مراد، وصباح، وفريد الأطرش، وتحية كاريوكا، وزكي رستم، وصلاح نظمي، ويحيى شاهين، وزوزو نبيل، ومحمد عبد الوهاب، وراقية إبراهيم .. والقائمة تطول.

ومن النقاط البارزة التي يشير إليها الدجاني في أوراقه، أن السينما كانت الوسيلة الأساسية التي عرَّفت المشاهد الفلسطيني بمصر، فعبر السينما تعرّف الفلسطينيون، وشاهدوا على الشاشة الكبيرة مصر (أمّ الدنيا)، بمدنها وشواطئها ومنتجعاتها وجبالها ووديانها وصحرائها وآثارها، وأهراماتها.. و"شاهدوا القاهرة، بشوارعها ومناطقها ومبانيها وجسورها، ومحطاتها.. وشاهدوا النيل العظيم، النهر الخالد، بضفافه ومراكبه والجسور والكباري الناهضة عليه، أو بالعوامات السابحة على أطرافه، كما عرفوا، من خلال السينما المصرية، الريف المصري، والفلاح، والعمدة، والعزبة، والباشا وفيلته، وعاشوا الصراعات وقصص الميراث والحب والخيانة التي صوَّرتها تلك الأفلام".. و"تابعوا المغامرات، فانتشوا لانتصار الخير وهزيمة الشر، ورأوا في انتصار الفقير انتصارهم، ولو كان فقط على الشاشة".

ومن دور السينما الشهيرة في القدس سينما "ركس"، و"أديسون"، و"ريون"، وغيرها، وقد شهدت سينما "ركس" عملية تفجير في ٢٩ ايار/ مايو عام ١٩٤٨ راح ضحيتها خمسة مواطنين من الفلسطينيين، وهي العملية التي نفذتها منظمة أرجون الإرهابية الصهيونية، وكان من ابرز قياداتها مناحيم بيغن، الذي تزعمها منذ عام ١٩٤٣، كان شعارها يتكون من خريطة فلسطين والأردن وعليها صورة بندقية كتب حولها "راك كاخ" اي (هكذا وحسب).

ومن مذكرات الأكاديمي الفلسطيني جابي برامكي، المولود في القدس عام ١٩٢٩، أنه، ومع توتر الأوضاع ما بين الفلسطينيين واليهود، إبان الحرب العالمية الثانية، سادت في الأوساط الفلسطينية والعربية بالقدس حالة من المقاطعة لمتاجر ومحلات اليهود، وحتى دور السينما التي كانوا يملكونها، واتجهوا نحو سينما "ركس" العربية في شارع الأميرة ماري، وسينما "ريجنت" في سهل البقعة، وفي وقت لاحق سينما صغيرة تقع في الجزء الخلفي لسينما "ريكس" حملت اسم "سينما ستوديو".

وأشار برامكي إلى أن الطريف في "سينما ستوديو"، هو أن صغرها لم يكن يتيح عرض الأفلام عبر البروجكتر إلا باستخدام عاكس لتظهر الصورة كاملة، ليكتشف الحضور إذا ما شاهدوا الفيلم في دار عرض ثانية، أنهم كانوا يشهادون الفيلم بـ"الشقلوب"، أي اليمين يسار، والعكس !

وأيضاً سينما "القدس"، و"الحمراء"، و"النزهة"، والأخيرة باتت حسب روايات بعض المقدسيين مبنى المسرح الوطني الفلسطيني (الحكواتي)، في حين تحولت "ركس" إلى "سوبر ماركت" بينما استطاعت مؤسسة يبوس الحفاظ على "القدس" كدار عرض سينمائية باتت العربية الوحيدة في الجانب الشرقي من المدينة والمحتل في عام ١٩٦٧، في إطار مركز يبوس الثقافي، الذي يعمل باجتهاد منذ قرابة الخمس سنوات، ويحتضن العديد من العروض السينمائية الفلسطينية، والعربية، والعالمية.. واللافت أن عمال البناء، عثروا، أثناء عملية الترميم على افلام عتيقة وجهاز العرض القديم الذي تم الاحتفاظ به، ووضع في صالة الاستقبال كتذكار.

وتجدر الإشارة إلى أن أول مشروع في القدس لشركة المصايف، ومقرها مدينة رام الله، كان مشروع سينما الحمراءعام ١٩٥٣، حيث قامت الشركة ببناء سينما الحمراء في شارع صلاح الدين الشهير، بعد أن أسست شركة عادية تابعة لها حصة الشركة فيها خمسة وثلاثون بالمئة.

كانت بناية سينما الحمراء مفخرة دور السينما في المملكة الأردنية الهاشمية، حيث كانت الضفة الغربية تتبع الإدارة الأردنية من بين عامي ١٩٥١ و١٩٦٧، فتميزت سينما الحمراء بمعمارها، بالإضافة إلى قاعتها الواسعة الفخمة، ومسرحها الكبير.

وكانت دار سينما الحمراء المركز المفضل للندوات الثقافية والمؤتمرات المختلفة التي كانت تقام في مدينة القدس العربية، وكان لمسرحها الأثر الكبير في تشجيع المسرحيات الفنية والتمثيليات الاجتماعية الهادفة، إضافة إلى العروض السينمائية الدورية.

ومرت دور السينما في القدس كما في فلسطين بثلاث انتكاسات ارتبطت بتواريخ مهمة غيرت مسيرة الشعب الفلسطيني بأكمله، أولها نكبة عام ١٩٤٨ حيث سيطرت قوات الاحتلال على دور السينما في الجزء الغربي من القدس، كما حال دور السينما في بقية المدن التي منحها العالم اسم دولة إسرائيل، مثل: يافا، وحيفا، وعكا، وغيرها .. والثانية هزيمة حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧، واحتلال القدس الشرقية،

والضفة الغربية وقطاع غزة أيضاً.

أما الانتكاسة الثالثة لدور السينما في فلسطين عامة، والقدس خاصة، فكانت الانتفاضة الفلسطينية الأولى عام ١٩٨٧، والتي ولأسباب تتعلق بإجراءات الاحتلال، وأخرى بإعلان تأسيس حركة حماس وما واكبه من صراع بين الفصائل الفلسطينية على صورة المحافظ المتدين، بما في ذلك العلمانية منها واليسارية، والتي كان لها انعكاساتها الاجتماعية والثقافية المتواصلة إلى يومنا هذا، ليتحول ارتياد دور السينما من طقس فلسطيني يومي أو أسبوعي في القدس ومختلف المدن الفلسطينية المحتلة عام ١٩٦٧ إلى نوع من الترف، وربما "الفسوق والفجور"، ومخالفة التوجه الشعبوي أو الوطني أو الجماهيري العام، فأغلقت كافة دور السينما، وهي بالعشرات في نابلس، وجنين، ورام الله، وحتى القدس، حيث أغلقت سينما الحمراء أبوابها في أواخر ثمانينات القرن الماضي، "مع حلول الانتفاضة الأولى ونتيجة لحالة عدم الاستقرار التي سيطرت على المدينة والتي تزامنت مع انتشار أجهزة التلفزيون في البيوت ومع فرض الضرائب الباهظة على المبنى"، وفق الشركة المالكة، التي أكدت على موقعها الالكتروني أن السينما ظلت مغلقة حتى عام ٢٠٠٧، حيث قامت الشركة بتأجير البناية كما هي إلى شركة القدس للاستثمار وشريكها منير قرط لمدة خمسة عشر عاماً بموجب اتفاقية خاصة على أن يقوم المستأجر على نفقته بعمل كل ما يلزم من ترميمات وإصلاحات و إنشاءات لإعدادها قاعة متعددة الأغراض بموجب الاتفاقية المشار إليها، وقد تم تنفيذ الاتفاقية وقام المستأجر بأعمال الترميم وأعدادها كقاعة حديثة فخمة وأسماها قصر الحمراء.

إذا، لم يعد في القدس اليوم إلا سينما القدس فعلياً، والتي باتت، كما أشرت آنفاً، ضمن مركز يبوس الثقافي، خاصة أنه ومنذ قيام السلطة الفلسطينية عام ١٩٩٤ إثر توقيع اتفاقيات أوسلو، لم يتم الاستثمار في قطاع دور العرض السينمائية إلا قبل عامين عبر إدارة برج فلسطين في مدينة رام الله، التي كانت تضم أيضاً سينماتك القصبة التي تترنح تحت وطأة الديون المتراكمة، في حين تحولت سينما دنيا وكذلك الوليد إلى مجمعات تجارية، كما هو حال دور السينما الشهيرة والعريقة في نابلس التي يحتوي مركز تجاري فيها على دار عرض سينمائية يتيمة نتمنى أن تصمد في زمن الأفلام المقرصنة، و"التورينت"، في حين كانت إعادة الاعتبار لدار سينما في جنين حملت اسم المدينة أمرا مبشرا، وإن كانت الدار غير نشطة، رغم إنشائها منذ سنوات، وتعاقب الإدارات عليها.

أما الآن فتبدو الأوضاع أكثر سوءاً في القدس، فالسلطة الفلسطينية ممنوعة من أي تواجد رسمي لها، عبر دعم المؤسسات المقدسية المختلفة، وبما فيها دور العرض السينمائي، خاصة بعد انتفاضة الأقصى عام ٢٠٠٠، والتي شهدت مع اجتياح قوات الاحتلال للمدن الفلسطينية عام ٢٠٠٢، وبناء جدار الفصل العنصري، إطلاق المزيد من الرصاصات القاتلة على الفلسطينيين ومشروعهم الوطني، وحتى الثقافي، بما في ذلك دور العرض السينمائي، وخاصة في القدس التي يسعى الاحتلال إلى تهويدها، وسلخها عن عمقها الفلسطيني، وطمس معالم هويتها الحضارية والثقافية.

أوراق المؤسسة

المؤسسة تنظم مخيمات صيفية

نفّذت المؤسسة عشرة مخيمات صيفية باسم "مخيمات ياسر عرفات" بالفترة الواقعة ٢٣/ ٧ إلى ٤/٨/٢٠١٦، حيث شارك فيها قرابة ١٧٠٠ طفل من الفئة العمرية ١٤-٦ سنة، وبالشراكة مع اللجنة الوطنية للمخيمات الصيفية وبالتعاون مع جمعيات محلية، إضافة للمجالس القروية والبلدية وقد تمت هذه المخيمات في :

١) جمعية نهضة بنت الريف – دورا الخليل .

٢) مركز فنون الطفل الفلسطيني - الخليل / المدينة.

٣) مجلس قروي دار صلاح – بيت لحم.

٤) مركز ثقافة الطفل – طولكرم.

٥) جمعية حبلة الخيرية – قلقيلية .

٦) جمعية إشراق للتنمية – بيت فوريك / نابلس .

٧) جمعية الغد للتنمية – دير قديس / رام الله .

٨) نادي خربثا الرياضي / خربثا بني حارث – رام الله

٩) الموقع التنظيمي – المدرسة/ أبو قش رام الله .

١٠) الجمعية الخيرية الشبابية –المزرعة القبلية / رام الله .

وقد قامت المؤسسة بإعداد كتيب تدريبي، ونظّمت تدريباً خاصاً للمدراء والمشرفين والمنشطين لهذه المخيمات، وتابعت تفاصيل البرامج اليومية لهذه المخيمات مركزّة على تعزيز الثقافة الوطنية لدى الجيل الصاعد وتحقيقاً لرسالة المؤسسة بحفظ إرث وتاريخ القائد المؤسس ونقله للأجيال القادمة.

وقامت المؤسسة كذلك بزيارات ميدانية للمخيمات لمتابعة عملها ونشاطاتها وناقشت مع القائمين عليها تفصيلاً سبل تطويرها للسنوات القادمة، وتزامناً مع ذكرى ميلاد الرئيس أبو عمار في ٤١٨، تم اختتام هذه

المخيمات بدعوة مدراء ومنشطي المخيمات لوضع إكليل ورود على ضريح الرئيس أبو عمار والترحم عليه تزامناً مع ذكرى ميلاده، وعقدت المؤسسة اجتماعاً معهم لتقييم نهائي للبرنامج، تضمّن مقترحات محدّدة للاستمرار بتنفيذ المخيمات الصيفية للسنوات القادمة، وقامت المؤسسة كذلك بتكريمهم وتوجيه الشكر والتقدير لهم في اختتام هذه المخيمات الصيفية.

وتجدر الإشارة أن أعضاء مجلس الإدارة المتواجدين قد شاركوا بفعالية الاختتام ووضع أكليل من الورود على ضريح الرئيس الشهيد باسم المؤسسة، إضافة لأكاليل من اتحادات ومؤسسات وطنية أخرى.

من جهة أخرى وللسنة الثانية على التوالي فقد نظّمت المؤسسة وصول ٢٣ طفلاً من غزة للضفة بزيارة لمدة أربعة أيام بالتعاون مع نادي شباب رام الله، حيث جرى ترتيب برنامج لهم بكل من رام الله والقرى المحيطة، إضافة للقدس وبيت لحم، وبالتنسيق مع نادي شباب رام الله، أرسلت المؤسسة ثلاثة أطفال ومشرفة إلى باليرمو- إيطاليا (١/٨/٢٠١٦-٢٠/٧) لمخيم دولي للأطفال، انضموا لعشرين طفل من غزة و١٦ من الضفة شاركوا بهذا المخيم الدولي.

وثائق

يهتم هذا الباب من "أوراق فلسطينية"، الذي يأتي ضمن تقرير مؤسسة ياسر عرفات بإعادة نشر أهم الوثائق المتعلقة بتاريخ فلسطين الحديث، معتمدة على الأرشيف الثري الذي جمعته ووثقته المؤسسة.

فيما يلي ننشر الوثيقتين الأصليتين، وترجمتهما الوافية، للإعلان الذي عرف بـ"وعد بلفور" والصادر في الثاني من تشرين الثاني / نوفمبر ١٩١٧.

والنص الأصلي للقرار ١٩٤ الصادر عن الجمعية العامة للامم المتحدة في الحادي عشر من كانون الأول / ديسمبر ١٩٤٨.

النص الأصلي لرسالة وزير الخارجية البريطاني "آرثر بلفور" إلى اللورد "روتشيلد" والتي تتضمن التصريح الذي عرف فيما بعد بـ "وعد بلفور".

Foreign Office,
November 2nd, 1917.

Dear Lord Rothschild,

I have much pleasure in conveying to you, on behalf of His Majesty's Government, the following declaration of sympathy with Jewish Zionist aspirations which has been submitted to, and approved by, the Cabinet

"His Majesty's Government view with favour the establishment in Palestine of a national home for the Jewish people, and will use their best endeavours to facilitate the achievement of this object, it being clearly understood that nothing shall be done which may prejudice the civil and religious rights of existing non-Jewish communities in Palestine, or the rights and political status enjoyed by Jews in any other country"

I should oe grateful if you would bring this declaration to the knowledge of the Zionist Federation.

Yours sincerely,
Arthur James Balfour

"ترجمة تصريح بلفور"

وزارة الخارجية

في الثاني من نوفمبر/ تشرين الثاني سنة ١٩١٧

عزيزي اللورد روتشيلد

يسرني جدا أن أبلغكم بالنيابة عن حكومة جلالته، التصريح التالي الذي ينطوي على العطف على أماني اليهود والصهيونية، وقد عرض على الوزارة وأقرته:

"إن حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وستبذل غاية جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية، على أن يفهم جليا أنه لن يؤتى بعمل من شأنه أن ينتقص من الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن في فلسطين ولا الحقوق أو الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الأخرى".

وسأكون ممتنا إذا ما أحطتم الاتحاد الصهيوني علما بهذا التصريح.

المخلص

آرثر بلفور

النص الأصلي للقرار الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة في ١١ / ١٢ / ١٩٤٨ والذي يحمل الرقم ١٩٤.

B

The General Assembly

Recommends that Greece, on the one hand, and Bulgaria and Albania, on the other, establish diplomatic relations with each other, the absence of which is harmful to the relations between these countries;

Recommends the Governments of Greece, Albania, Bulgaria and Yugoslavia to renew the previously operative conventions for the settlement of frontier questions or to conclude new ones, and also to settle the question of refugees in the spirit of mutual understanding and the establishment of good-neighbour relations;

Furthermore recommends the Governments of Greece, Albania, Bulgaria and Yugoslavia to inform the Secretary-General of the United Nations at the end of six months, for communication to Member States of the United Nations, of the fulfilment of the above-mentioned recommendations.

Hundred and sixty-seventh plenary meeting,
27 November 1948.

C

The General Assembly

Recommends the return to Greece of Greek children at present away from their homes when the children, their father or mother or, in his or her absence, their closest relative, express a wish to that effect;

Invites all the Members of the United Nations and other States on whose territory these children are to be found to take the necessary measures for implementation of the present recommendation;

Instructs the Secretary-General to request the International Committee of the Red Cross and the League of Red Cross and Red Crescent Societies to organize and ensure liaison with the national Red Cross organizations of the States concerned with a view to empowering the national Red Cross organizations to adopt measures in the respective countries for implementing the present recommendation.

Hundred and sixty-seventh plenary meeting,
27 November 1948.

194 قرار الجمعية العامة رقم
حق العود
(1948-12-11)

194 (III). Palestine — Progress Report of the United Nations Mediator

The General Assembly,

Having considered further the situation in Palestine,

1. ***Expresses*** its deep appreciation of the progress achieved through the good offices of the

B

L'Assemblée générale

Recommande à la Grèce, d'une part, à la Bulgarie et à l'Albanie d'autre part, d'établir entre elles des relations diplomatiques dont l'absence nuit aux relations entre ces pays;

Recommande aux Gouvernements de la Grèce, de l'Albanie, de la Bulgarie et de la Yougoslavie de remettre en vigueur les conventions qui l'avaient été antérieurement ou de conclure de nouvelles conventions pour régler les questions de frontière; recommande de régler la question des réfugiés dans un esprit de compréhension mutuelle, de manière à rétablir des relations de bon voisinage;

Recommande, en outre, aux Gouvernements grec, albanais, bulgare et yougoslave de notifier dans les six mois, au Secrétaire général des Nations Unies, la mise en application des recommandations visées ci-dessus, pour lui permettre d'en informer les États Membres.

Cent-soixante-septième séance plénière,
le 27 novembre 1948.

C

L'Assemblée générale

Recommande le retour en Grèce des enfants grecs actuellement éloignés de leur foyer, lorsque ces enfants, leur père ou mère ou, à son défaut, leur plus proche parent, en manifestent la volonté;

Invite tous les Membres de l'Organisation des Nations Unies et autres États sur le territoire desquels se trouvent ces enfants, à prendre les mesures nécessaires en vue de l'exécution de la présente recommandation;

Charge le Secrétaire général de demander au Comité international de la Croix-Rouge et à la Ligue des Sociétés de la Croix-Rouge et du Croissant-Rouge, d'organiser et d'assurer la liaison avec les organisations nationales de la Croix-Rouge des États intéressés, en vue d'habiliter les organisations nationales de la Croix-Rouge à prendre dans les pays intéressés les mesures nécessaires à la mise en œuvre de la présente recommandation.

Cent-soixante-septième séance plénière,
le 27 novembre 1948.

194 (III). Palestine — Rapport intérimaire du Médiateur des Nations Unies

L'Assemblée générale,

Ayant examiné de nouveau la situation en Palestine,

1. ***Exprime*** sa profonde satisfaction des progrès accomplis grâce aux bons offices de feu le

بالانجليزية

بالفرنسية

late United Nations Mediator in promoting a peaceful adjustment of the future situation of Palestine, for which cause he sacrificed his life; and

Extends its thanks to the Acting Mediator and his staff for their continued efforts and devotion to duty in Palestine;

2. *Establishes* a Conciliation Commission consisting of three States Members of the United Nations which shall have the following functions :

(*a*) To assume, in so far as it considers necessary in existing circumstances, the functions given to the United Nations Mediator on Palestine by resolution 186 (S-2) of the General Assembly of 14 May 1948;

(*b*) To carry out the specific functions and directives given to it by the present resolution and such additional functions and directives as may be given to it by the General Assembly or by the Security Council;

(*c*) To undertake, upon the request of the Security Council, any of the functions now assigned to the United Nations Mediator on Palestine or to the United Nations Truce Commission by resolutions of the Security Council; upon such request to the Conciliation Commission by the Security Council with respect to all the remaining functions of the United Nations Mediator on Palestine under Security Council resolutions, the office of the Mediator shall be terminated;

3. *Decides* that a Committee of the Assembly, consisting of China, France, the Union of Soviet Socialist Republics, the United Kingdom and the United States of America, shall present, before the end of the first part of the present session of the General Assembly, for the approval of the Assembly, a proposal concerning the names of the three States which will constitute the Conciliation Commission;

4. *Requests* the Commission to begin its functions at once, with a view to the establishment of contact between the parties themselves and the Commission at the earliest possible date;

5. *Calls upon* the Governments and authorities concerned to extend the scope of the negotiations provided for in the Security Council's resolution of 16 November 1948[1] and to seek agreement by negotiations conducted either with the Conciliation Commission or directly, with a view to the final settlement of all questions outstanding between them;

6. *Instructs* the Conciliation Commission to take steps to assist the Governments and authorities concerned in the implementation of paragraph 5 above and to report and make recommendations to the Security Council as appropriate;

[1] See *Official Records of the Security Council*, Third Year, No. 126.

Médiateur des Nations Unies dans la voie d'un ajustement pacifique de la situation future de la Palestine, auquel le Médiateur a sacrifié sa vie; et

Remercie le Médiateur par intérim et son personnel de leurs efforts incessants et de l'esprit de devoir dont ils ont fait preuve en Palestine;

2. *Crée* une Commission de conciliation composée de trois États Membres des Nations Unies chargée des fonctions suivantes :

a) Assumer, dans la mesure où elle jugera que les circonstances le rendent nécessaire, les fonctions assignées au Médiateur des Nations Unies pour la Palestine par la résolution 186 (S-2) de l'Assemblée générale du 14 mai 1948;

b) S'acquitter des fonctions et exécuter les directives précises que lui donne la présente résolution et s'acquitter des fonctions et exécuter les directives supplémentaires que pourrait lui donner l'Assemblée générale ou le Conseil de sécurité;

c) Assumer, à la demande du Conseil de sécurité, toute fonction actuellement assignée au Médiateur des Nations Unies pour la Palestine, ou à la Commission de trêve des Nations Unies, par les résolutions du Conseil de sécurité; si le Conseil de sécurité demande à la Commission de conciliation d'assumer toutes les fonctions encore confiées au Médiateur des Nations Unies pour la Palestine par les résolutions du Conseil de sécurité, le rôle du Médiateur prendra fin;

3. *Décide* qu'un Comité de l'Assemblée composé de la Chine, de la France, de l'Union des Républiques socialistes soviétiques, du Royaume-Uni et des États-Unis d'Amérique soumettra, avant la fin de la première partie de la présente session de l'Assemblée générale, à l'approbation de l'Assemblée, une proposition concernant les noms des trois États qui constitueront la Commission de conciliation;

4. *Invite* la Commission à entrer immédiatement en fonctions afin d'établir, aussitôt que possible, des relations entre les parties elles-mêmes et entre ces parties et la Commission;

5. *Invite* les Gouvernements et autorités intéressés à étendre le domaine des négociations prévues par la résolution du Conseil de sécurité du 16 novembre 1948[1] et à rechercher un accord par voie de négociations, soit directes, soit avec la Commission de conciliation, en vue d'un règlement définitif de toutes les questions sur lesquelles ils ne se sont pas encore mis d'accord;

6. *Donne pour instructions* à la Commission de conciliation de prendre des mesures en vue de l'application du paragraphe 5 ci-dessus et de faire rapport et des recommandations au Conseil de sécurité, selon qu'il conviendra;

[1] Voir les *Procès-verbaux officiels du Conseil de sécurité*, Troisième Année, n° 126.

ities concerned to achieve a final settlement of all questions outstanding between them;

7. *Resolves* that the Holy Places — including Nazareth — religious buildings and sites in Palestine should be protected and free access to them assured, in accordance with existing rights and historical practice; that arrangements to this end should be under effective United Nations supervision; that the United Nations Conciliation Commission, in presenting to the fourth regular session of the General Assembly its detailed proposals for a permanent international regime for the territory of Jerusalem, should include recommendations concerning the Holy Places in that territory; that with regard to the Holy Places in the rest of Palestine the Commission should call upon the political authorities of the areas concerned to give appropriate formal guarantees as to the protection of the Holy Places and access to them; and that these undertakings should be presented to the General Assembly for approval;

8. *Resolves* that, in view of its association with three world religions, the Jerusalem area, including the present municipality of Jerusalem *plus* the surrounding villages and towns, the most eastern of which shall be Abu Dis; the most southern, Bethlehem; the most western, Ein Karim (including also the built-up area of Motsa); and the most northern, Shu'fat, should be accorded special and separate treatment from the rest of Palestine and should be placed under effective United Nations control;

Requests the Security Council to take further steps to ensure the demilitarization of Jerusalem at the earliest possible date;

Instructs the Conciliation Commission to present to the fourth regular session of the General Assembly detailed proposals for a permanent international regime for the Jerusalem area which will provide for the maximum local autonomy for distinctive groups consistent with the special international status of the Jerusalem area;

The Conciliation Commission is authorized to appoint a United Nations representative, who shall co-operate with the local authorities with respect to the interim administration of the Jerusalem area;

9. *Resolves* that, pending agreement on more detailed arrangements among the Governments and authorities concerned, the freest possible access to Jerusalem by road, rail or air should be accorded to all inhabitants of Palestine;

d'aider les Gouvernements et autorités intéressés à régler de façon définitive toutes les questions sur lesquelles ils ne se sont pas mis d'accord;

7. *Décide* que les Lieux saints — notamment Nazareth — et les sites et édifices religieux de Palestine devraient être protégés et leur libre accès assuré, conformément aux droits en vigueur et à l'usage historique; que les dispositions à cet effet devraient être soumises à la surveillance effective des Nations Unies; que, lorsque la Commission de conciliation des Nations Unies présentera à l'Assemblée générale, pour sa quatrième session ordinaire, des propositions détaillées concernant un régime international permanent pour le territoire de Jérusalem, elle devra formuler des recommandations au sujet des Lieux saints se trouvant dans ce territoire; qu'en ce qui concerne les Lieux saints situés dans les autres régions de Palestine, la Commission devra demander aux autorités politiques des régions intéressées de fournir des garanties formelles satisfaisantes en ce qui concerne la protection des Lieux saints et l'accès de ces Lieux; et que ces engagements seront soumis à l'approbation de l'Assemblée générale;

8. *Décide* qu'en raison des liens qu'elle a avec trois religions mondiales, la région de Jérusalem, y compris la municipalité actuelle de Jérusalem plus les villages et centres environnants, dont le plus oriental sera Abu Dis, le plus méridional Bethléem, le plus occidental Ein Karim (y compris l'agglomération de Motsa) et la plus septentrionale Shu'fat, devrait jouir d'un traitement particulier et distinct de celui des autres régions de Palestine et devrait être placée sous le contrôle effectif des Nations Unies;

Invite le Conseil de sécurité à prendre de nouvelles mesures en vue d'assurer la démilitarisation de Jérusalem dans le plus bref délai possible;

Donne pour instructions à la Commission de conciliation de présenter à l'Assemblée générale, pour sa quatrième session ordinaire, des propositions détaillées concernant un régime international permanent pour la région de Jérusalem assurant à chacun des groupes distincts le maximum d'autonomie locale compatible avec le statut international spécial de la région de Jérusalem;

La Commission de conciliation est autorisée à nommer un représentant des Nations Unies, qui collaborera avec les autorités locales en ce qui concerne l'administration provisoire de la région de Jérusalem;

9. *Décide* qu'en attendant que les Gouvernements et autorités intéressés se mettent d'accord sur des dispositions plus détaillées, l'accès le plus libre possible à Jérusalem par route, voie ferrée et voie aérienne devrait être accordé à tous les habitants de la Palestine;

Instructs the Conciliation Commission to report immediately to the Security Council, for appropriate action by that organ, any attempt by any party to impede such access;

10. *Instructs* the Conciliation Commission to seek arrangements among the Governments and authorities concerned which will facilitate the economic development of the area, including arrangements for access to ports and airfields and the use of transportation and communication facilities;

11. *Resolves* that the refugees wishing to return to their homes and live at peace with their neighbours should be permitted to do so at the earliest practicable date, and that compensation should be paid for the property of those choosing not to return and for loss of or damage to property which, under principles of international law or in equity, should be made good by the Governments or authorities responsible;

Instructs the Conciliation Commission to facilitate the repatriation, resettlement and economic and social rehabilitation of the refugees and the payment of compensation, and to maintain close relations with the Director of the United Nations Relief for Palestine Refugees and, through him, with the appropriate organs and agencies of the United Nations;

12. *Authorizes* the Conciliation Commission to appoint such subsidiary bodies and to employ such technical experts, acting under its authority, as it may find necessary for the effective discharge of its functions and responsibilities under the present resolution;

The Conciliation Commission will have its official headquarters at Jerusalem. The authorities responsible for maintaining order in Jerusalem will be responsible for taking all measures necessary to ensure the security of the Commission. The Secretary-General will provide a limited number of guards for the protection of the staff and premises of the Commission;

13. *Insiructs* the Conciliation Commission to render progress reports periodically to the Secretary-General for transmission to the Security Council and to the Members of the United Nations;

14. *Calls upon* all Governments and authorities concerned to co-operate with the Conciliation Commission and to take all possible steps

Donne pour instructions à la Commission de conciliation de signaler immédiatement au Conseil de sécurité toute restriction de l'accès de la Ville que pourrait tenter d'imposer l'une quelconque des parties, pour que le Conseil prenne les mesures appropriées;

10. *Donne pour instructions* à la Commission de conciliation de rechercher la conclusion, entre les Gouvernements et autorités intéressés, d'accords propres à faciliter le développement économique du territoire, notamment d'accords concernant l'accès aux ports et aérodromes et l'utilisation de moyens de transport et de communication;

11. *Décide* qu'il y a lieu de permettre aux réfugiés qui le désirent, de rentrer dans leurs foyers le plus tôt possible et de vivre en paix avec leurs voisins, et que des indemnités doivent être payées à titre de compensation pour les biens de ceux qui décident de ne pas rentrer dans leurs foyers et pour tout bien perdu ou endommagé lorsque, en vertu des principes du droit international ou en équité, cette perte ou ce dommage doit être réparé par les Gouvernements ou autorités responsables;

Donne pour instructions à la Commission de conciliation de faciliter le rapatriement, la réinstallation et le relèvement économique et social des réfugiés, ainsi que le payement des indemnités, et de se tenir en liaison étroite avec le Directeur de l'Aide des Nations Unies aux réfugiés de Palestine, et, par l'intermédiaire de celui-ci, avec les organes et institutions appropriés de l'Organisation des Nations Unies;

12. *Autorise* la Commission de conciliation à désigner les organes subsidiaires et à utiliser les experts techniques, agissant sous son autorité, dont elle jugerait avoir besoin pour s'acquitter efficacement des fonctions et des obligations qui lui incombent aux termes de la présente résolution;

La Commission de conciliation aura son siège officiel à Jérusalem. Il appartiendra aux autorités responsables du maintien de l'ordre à Jérusalem de prendre toutes les mesures nécessaires pour assurer la sécurité de la Commission. Le Secrétaire général fournira un nombre restreint de gardes pour la protection du personnel et des locaux de la Commission;

13. *Donne pour instructions* à la Commission de conciliation de présenter périodiquement au Secrétaire général des rapports sur l'évolution de la situation pour qu'il les transmette au Conseil de sécurité et aux Membres de l'Organisation des Nations Unies;

14. *Invite* tous les Gouvernements et autorités intéressés à collaborer avec la Commission de conciliation et à prendre toutes mesures possibles

to assist in the implementation of the present resolution;

15. *Requests* the Secretary-General to provide the necessary staff and facilities and to make appropriate arrangements to provide the necessary funds required in carrying out the terms of the present resolution.

Hundred and eighty-sixth plenary meeting,
11 December 1948.

* *

At the 186th plenary meeting on 11 December 1948, a committee of the Assembly consisting of the five States designated in paragraph 3 of the above resolution proposed that the following three States should constitute the Conciliation Commission :

FRANCE, TURKEY, UNITED STATES OF AMERICA.

The proposal of the Committee having been adopted by the General Assembly at the same meeting, the Conciliation Commission is therefore composed of the above-mentioned three States.

pour aider à la mise en œuvre de la présente résolution;

15. *Prie* le Secrétaire général de fournir le personnel et les facilités nécessaires et de prendre toutes les dispositions requises pour fournir les fonds nécessaires à l'exécution des dispositions de la présente résolution.

Cent quatre-vingt-sixième séance plénière,
le 11 décembre 1948.

* *

A la 186e séance plénière, tenue le 11 décembre 1948, un comité de l'Assemblée composé des cinq États désignés au paragraphe 3 de la résolution ci-dessus a proposé les trois États ci-après comme membres de la Commission de conciliation :

FRANCE, TURQUIE et ÉTATS-UNIS D'AMÉRIQUE.

La proposition de ce comité ayant été adoptée, au cours de la même séance, par l'Assemblée générale, la Commission de conciliation est, en conséquence, constituée des trois États susdits.

(ترجمة القرار ١٩٤ الصادر عن الجمعية العامة للامم المتحدة بتاريخ ١٩٤٨/١٢/١١)

"إن الجمعية العامة وقد بحثت في الحالة في فلسطين من جديد:

١- تعرب عن عميق تقديرها الذي تم بفضل المساعي الحميدة المبذولة من وسيط الأمم المتحدة الراحل في سبيل تعزيز تسوية سلمية للحالة المستقبلية في فلسطين، تلك التسوية التي ضحى من أجلها بحياته. وتشكر للوسيط بالوكالة ولموظفيه جهودهم المتواصلة وتفانيهم للواجب في فلسطين.

٢- تنشئ لجنة توفيق مكونة من ثلاث دول أعضاء في الأمم المتحدة تكون لها المهمات التالية:

أ- القيام -بقدر ما ترى أن الظروف القائمة تستلزم- بالمهمات التي أوكلت إلى وسيط الأمم المتحدة لفلسطين بموجب قرار الجمعية العامة رقم ١٨٦ (د أ-٢) الصادر في ١٤ مايو/ أيار سنة ١٩٤٨.

ب- تنفيذ المهمات والتوجيهات المحددة التي يصدرها إليها القرار الحالي، وتلك المهمات والتوجيهات الإضافية التي قد تصدرها إليها الجمعية العامة أو مجلس الأمن.

ج- القيام - بناء على طلب مجلس الأمن- بأية مهمة تكلها حالياً قرارات مجلس الأمن إلى وسيط الأمم المتحدة لفلسطين، أو إلى لجنة الأمم المتحدة للهدنة. وينتهي دور الوسيط بناء على طلب مجلس الأمن من لجنة التوفيق القيام بجميع المهمات المتبقية التي لا تزال قرارات مجلس الأمن تكلها إلى وسيط الأمم المتحدة لفلسطين.

٣- تقرر أن تعرض لجنة من الجمعية العامة -مكونة من الصين وفرنسا واتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية والمملكة المتحدة والولايات المتحدة الأميركية- اقتراحاً بأسماء الدول الثلاث التي ستتكون منها لجنة التوفيق على الجمعية العامة لموافقتها قبل نهاية القسم الأول من دورتها الحالية.

٤- تطلب من اللجنة أن تبدأ عملها فوراً حتى تقيم في أقرب وقت علاقات بين الأطراف ذاتها، وبين هذه الأطراف واللجنة.

٥- تدعو الحكومات والسلطات المعنية إلى توسيع نطاق المفاوضات المنصوص عليها في قرار مجلس الأمن الصادر في ١٦ نوفمبر/ تشرين الثاني سنة ١٩٤٨، وإلى البحث عن اتفاق بطريق مفاوضات تجري إما مباشرة أو مع لجنة التوفيق، بغية إجراء تسوية نهائية لجميع المسائل المعلقة بينها.

٦- تصدر تعليماتها إلى لجنة التوفيق لاتخاذ التدابير بغية معاونة الحكومات والسلطات المعنية لإحراز تسوية نهائية لجميع المسائل المعلقة بينها.

٧- تقرر وجوب حماية الأماكن المقدسة -بما فيها الناصرة- والمواقع والأبنية الدينية في فلسطين، وتأمين حرية الوصول إليها وفقاً للحقوق القائمة والعرف التاريخي، ووجوب إخضاع الترتيبات المعمولة لهذه الغاية لإشراف الأمم المتحدة الفعلي. وعلى لجنة التوفيق التابعة للأمم المتحدة، لدى تقديمها إلى الجمعية العامة في دورتها العادية الرابعة اقتراحاتها المفصلة بشأن نظام دولي دائم لمنطقة القدس، أن تتضمن توصيات بشأن الأماكن المقدسة الموجودة في هذه المنطقة، ووجوب طلب اللجنة من السلطات السياسية في المناطق المعنية تقديم ضمانات رسمية ملائمة فيما يتعلق بحماية الأماكن المقدسة في باقي فلسطين، والوصول إلى هذه الأماكن، وعرض هذه التعهدات على الجمعية العامة للموافقة.

٨- تقرر أنه نظراً إلى ارتباط منطقة القدس بديانات عالمية ثلاث، فإن هذه المنطقة بما في ذلك بلدية القدس الحالية يضاف إليها القرى والمراكز المجاورة التي يكون أبعدها شرقاً أبو ديس وأبعدها جنوباً بيت لحم وأبعدها غرباً عين كارم -بما فيها المنطقة المبنية في موتسا- وأبعدها شمالاً شعفاط، يجب أن تتمتع بمعاملة خاصة منفصلة عن معاملة مناطق فلسطين الأخرى، ويجب أن توضع تحت مراقبة الأمم المتحدة الفعلية.

- تطلب من مجلس الأمن اتخاذ تدابير جديدة بغية تأمين نزع السلاح في مدينة القدس في أقرب وقت ممكن.

- تصدر تعليماتها إلى لجنة التوفيق لتقدم إلى الجمعية العامة في دورتها الرابعة اقتراحات مفصلة بشأن نظام دولي دائم لمنطقة القدس يؤمن لكل من الفئتين المتميزتين الحد الأقصى من الحكم الذاتي المحلي المتوافق مع النظام الدولي الخاص لمنطقة القدس.

- إن لجنة التوفيق مخولة بصلاحية تعيين ممثل للأمم المتحدة يتعاون مع السلطات المحلية فيما يتعلق بالإدارة المؤقتة لمنطقة القدس.

٩- تقرر وجوب منح سكان فلسطين جميعهم أقصى حرية ممكنة للوصول إلى مدينة القدس بطريق البر والسكك الحديدية وبطريق الجو، وذلك إلى أن تتفق الحكومات والسلطات المعنية على ترتيبات أكثر تفصيلاً.

- تصدر تعليماتها إلى لجنة التوفيق بأن تعلم مجلس الأمن فوراً بأية محاولة لعرقلة الوصول إلى المدينة من قبل أي من الأطراف، وذلك كي يتخذ المجلس التدابير اللازمة.

١٠- تصدر تعليماتها إلى لجنة التوفيق بالعمل لإيجاد ترتيبات بين الحكومات والسلطات المعنية من شأنها تسهيل نمو المنطقة الاقتصادي، بما في ذلك اتفاقيات بشأن الوصول إلى المرافئ والمطارات واستعمال وسائل النقل والمواصلات.

١١- تقرر وجوب السماح بالعودة في أقرب وقت ممكن للاجئين الراغبين في العودة إلى ديارهم والعيش بسلام مع جيرانهم، ووجوب دفع تعويضات عن ممتلكات الذين يقررون عدم العودة إلى ديارهم وعن كل مفقود أو مصاب بضرر، عندما يكون من الواجب وفقاً لمبادئ القانون أن يعوض عن ذلك الفقدان أو الضرر من قبل الحكومات أو السلطات المسؤولة.

- وتصدر تعليماتها إلى لجنة التوفيق بتسهيل إعادة اللاجئين وتوطينهم من جديد وإعادة تأهيلهم

الاقتصادي والاجتماعي وكذلك دفع التعويضات وبالمحافظة على الاتصال الوثيق بمدير إغاثة الأمم المتحدة للاجئين الفلسطينيين، ومن خلاله بالهيئات والوكالات المتخصصة المناسبة في منظمة الأمم المتحدة.

١٢- تفوض لجنة التوفيق صلاحية تعيين الهيئات الفرعية واستخدام الخبراء الفنيين تحت إمرتها بما ترى أنها بحاجة إليه لتؤدي بصورة مجدية وظائفها والتزاماتها الواقعة على عاتقها بموجب نص القرار الحالي. ويكون مقر لجنة التوفيق الرسمي في القدس، ويكون على السلطات المسؤولة عن حفظ النظام في القدس اتخاذ جميع التدابير اللازمة لتأمين سلامة اللجنة. ويقدم الأمين العام عدداً من الحراس لحماية موظفي اللجنة ودورها.

١٣- تصدر تعليماتها إلى لجنة التوفيق بأن تقدم إلى الأمين العام بصورة دورية تقارير عن تطور الحالة كي يقدمها إلى مجلس الأمن وإلى أعضاء منظمة الأمم المتحدة.

١٤- تدعو الحكومات والسلطات المعنية جميعاً إلى التعاون مع لجنة التوفيق وإلى اتخاذ جميع التدابير الممكنة للمساعدة على تنفيذ القرار الحالي.

١٥- ترجو الأمين العام تقديم ما يلزم من موظفين وتسهيلات واتخاذ الترتيبات المناسبة لتوفير الأموال اللازمة لتنفيذ أحكام القرار الحالي."

تبنت الجمعية العامة هذا القرار في جلستها العامة رقم ١٨٦ بـ ٣٥ صوتاً مع القرار مقابل ١٥ ضده وامتناع ٨ كالآتي:

مع القرار: الأرجنتين، أستراليا، بلجيكا، البرازيل، كندا، الصين، كولومبيا، الدانمارك، جمهورية الدومينيكان، إكوادور، السلفادور، الحبشة، فرنسا، اليونان، هاييتي، هندوراس، إيسلندا، ليبيريا، لوكسمبورغ، هولندا، نيوزيلندا، نيكاراغوا، النرويج، بنما، باراغواي، بيرو، الفلبين، سيام، السويد، تركيا، جنوب أفريقيا، المملكة المتحدة، الولايات المتحدة الأميركية، أوروغواي، فنزويلا.

ضد القرار: أفغانستان، بلوروسيا (روسيا البيضاء)، كوبا، تشيكوسلوفاكيا، مصر، العراق، لبنان، باكستان، بولندا، المملكة العربية السعودية، سوريا، أوكرانيا، الاتحاد السوفييتي، اليمن، يوغسلافيا.

امتناع: بوليفيا، بورما، الشيلي، كوستاريكا، غواتيمالا، الهند، إيران، المكسيك."

المصدر:

- قرارت الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي، المجلد الأول، ١٩٤٧ - ١٩٧٤، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، نقلاً عن المحاضر الرسمية للجمعية العامة، الدورة الثانية، الملحق رقم ١١، المجلد الأول إلى الرابع.